الى القارئ

أبو القاسم الشابي ...

بقلم محمد مزالي

أحيا اتحاد الكتاب فى الشهر الماضى الذكرى الأربعين لوفاة شاعر تونس الخالد ابى القاسم الشابى ، وشارك فى المهرجان أدباء وشعراء من تونس وبلدان شقيقة ، فكانت مناسبة جديدة لمزيد التعريف بصاحب « أغانى الحياة » وإلقاء الأضواء الكاشفة على خصائص شاعريته الفياضة وأدبه الجم الطريف ومساهمته الحاسمة فى النهوض بالأدب التونسى فى الثلاثينات وتجديده ، بل بعثه بعثا و « جعله جديرا بالخلود » كما يقول الشاعر نفسه فى إحدى رسائله .

إن أبا القاسم الشابى شاعر متوهج الحس ، صادق الهاجس ، ما فى ذلك شك ! إنه اصطدم بالكون واندهش منه وتاه فى متناقضاته وتألم مما تعاصى عليه من الغازه فتساءل عن ماهيته وتاق إلى معرفة أسراره فعبر عن حيرته الوجودية وقلقه إزاء معميات الحياة فى قصائد ضبابية كالطيف رائعة كالحب ، جذابة كالحرية ... ينفذ نغمها الرقراق وتنساب رنتها « الغنائية » إلى القلوب ويأخذ دفقها الزاخر بالنفوس ويحرك نفسها الشعرى الجامح وجوها السحرى البديع كوامن الذات التائقة الى المعرفة واليقين وتضيء ومضاتها النورانية سبيل الانسان المتحسس معنى الحياة ، النافذ بحدسه إلى حقيقة الموت والمآل :

نحن نمشى وحولنا هذه الأكوان تمشى لكن لأية غاية
نحن نتلو رواية الكون للموت ولكن ماذا ختام الرواية
هكذا قلت للرياح فقالت سل ضمير الوجود كيف البداية

وإن ضمير الوجود لا يسبر العقل وحده أغواره ولا يدرك العلم بمفرده إشاراته ومعانيه ، فالحقيقة الباطنة ومعنى السعادة ورسالة الانسان فى الكون والخير والشر وخبايا المستقبل والعشق والفناء ... ومنزلة الشاعر فى الوجود ووظيفته فى قومه... كلها لا تدرك إدراكا واضحا ولا تفهم فهما

كاملا ولا تندرج جميعا في نسق فكري متآلف العناصر أو تنسجم ضمن رؤية مستقبلية شاملة إلا بفضل « الحال الشعرية » أو التعاطف الممتاز مع الأشياء والتناغم بل التمازج بالكائنات أو ذلك النور الذي قال عنه أبو حامد الغزالي إن الله يقذف به في القلب فتضيء الدنيا ويزول الغموض وترجع الطمأنينة ويصدق اليقين ·

وهذا النور عبر عنه أبو القاسم بقوله :

النور في قلبي وبين جوانحي فعلام أخشى السير في الظلماء

وإن قلب الشاعر لكبير ، رحب ، حساس ، تتفجر منه الأنوار الكاشفة وتصدر عنه الومضات النورانية الفاحصة وتستروح به الايحاءات العبقرية الخالدة :

يا قلب كم فيك من دنيا محجبة كأنما حين يبدو فجرها إرم

والشاعر الحق ، إذ يضنيه وجوم الكائنات ويحيره صمت السماء ويذهله الزمن الجاري إلى غير وجهة أو قرار ، ويقلقه الموت ويعصف به القدر « ويزحف على قلبه الكون الكبير » لا يلبث أن يستشف سبيله في الوجود ويصافح المستقبل ويصوغ من إيقاعات الطبيعة وهمساتها ألحانا حية باقية وينشد على نغمات الحب والوجود الكبير « أغاني الحياة » ويردد أشواق الانسان إلى المطلق ويسعى إلى الذوبان في « فجر الجمال السرمدي » فإذا شعره وحي مقدس وفيض من وجود وصوت صائت يصدع بالحق ويعبر عن الحب والخير وإرادة الحياة ·

وإن أصالة الشاعر أبي القاسم الشابي لتتجلى بالخصوص في أنه تعاطف مع شعبه واضطلع بهموم تونس كلها ولم يغفل عن مصير وطنه رغم ما فعلت فيه عهود الانحطاط وما اعتدت عليه به عوادي الاستعمار فأحبه حبا جما و « سبح في لج هواه أي سباحة » ! ، بل إنه تبين بقلبه الكبير وحدسه الفياض مصير الشعب التونسي ومقوماته التي لا يمكن أن تفنى أو تمسخ ، وكانت له العين الثاقبة التي شاهدت « فجر الانعتاق » بينما يئس ذوو النفوس الصغيرة وتخاذل ذوو القلوب الضعيفة :

أنا يا تونس الجميلة في لج الهوى قد سبحت أي سباحه
شرعتي حبك العميق وإني قد تذوقت مره وقراحه

إن ذا عصر ظلمة غير أني من وراء الظلام شمت صباحه
ضيع الدهر مجد شعبي ولكن ستعرد الحياة يوما وشاحه

هذه المناجاة للوطن والاصداع بمحبته والايمان بمصيره المشرق رغم قوى الظلام وقسوة الدهر ، لها جميعا صداها المتجاوب مع شوق الثائرين وعزم المناضلين ويقين المؤمنين بنبل رسالتهم في كل مكان وزمان ٠

وإن الوطن الذى هام به أبو القاسم الشابي واستشرف فجره المنتظر ليس وطن « الأصنام الخشبية » أو « أمساخ القديم » و « عباد الموت » ، أولئك الذين ألفوا الحياة في « أكناف الدهور الغابرة » وظلوا يجترون الموروث من القيم ويخضعون للجامد البالي من العادات ، والشعب الذى خاطبه وحمله مسؤولية إرادة الحياة وفرضها على القدر ليس الشعب المخدر الذهن ، المشلول الارادة ، المداس الكرامة ، الذى أورث فيه الاستعمار مركب الشعور بالغضاضة والرضا بالدون ، كلا ، لأنه طالما تألم من مواطنيه وتأذى من القوم الذين تصدوا للأفكار النيرة والعزائم الصادقة فقاوموها وكفروا أصحابها كما فعل « زعماء » الحزب الحر الدستورى القديم والشيوعيون والاشتراكيون بمحمد علي فتضامنوا جميعا سنة 1925 مع الاستعمار الفرنسي وأيدوه عندما حاكم محمد علي وقضى بنفيه ، وكما فعلوا مع الطاهر الحداد وحاولوا أن يفعلوا مع زعماء الحزب الحر الدستورى الجديد وعلى رأسهم المحامي الشاب الحبيب بورقيبة ٠

إلكأي من جمرة متقدة خبت نارها وخفت نورها تحت رماد هذا المجتمع الرجعي الجامد الذى تألم منه أبو القاسم الشابي ، ونقم عليه وشهر بذاتيته له وغمطه لحقه وجحوده لقيمته وتمنى لو هوى بفأسه على الجذوع اليابسة فأراح الدنيا من « الموتى الذين نسوا شوق الحياة » و « خبا بهم لهب الوجود » ٠

لقد شعر بالغربة لا محالة ، وأي شاعر حق وأديب فذ لم يشعر بتفرده وعزلته وخصوصيته و « لا تواصله واتصاله » مع معاصريه ما دام يحمل رسالة جديدة ويضطلع بواجب التجديد في المفاهيم الماورائية والمواقف الأدبية والمقاييس الجمالية ، أي ما دام داعية لمذهب جديد ورسولا يسعى إلى الانتقال بمجتمعه من حالة الانغلاق الحضارى إلى التحول والتفاتح وما دام « نبيا مجهولا » يعيش فريسة الأضاليل وضحية السخافات والافتراءات حتى يطل الفجر وتسطع الحقائق الجديدة بنورها الوهاج ٠

وهذا الشعور بالغربة كان قاسيا جدا بالنسبة للشاعر ابى القاسم الشابى إلا أنه لم ييأس من أمته كما يئس الكثيرون قبله وبعده. ولم يردد مع الشاعر القديم :

تغرب عن الأوطان فى طلب العلا   وسافر ففى الأسفار خمس فوائد
تفرج هم واكتساب معيشة   وعلم وآداب وصحبة ماجد
فان قيل فى الأسفار ذل وغربة   وقطع فياف وارتكاب شدائد
فموت الفتى خير له من حياته   بدار هوان بين واش وحاسد

ولم يعبأ بالوشاية والحسد ولا « بحجارة الفلتاء » ، ولم يبال خاصة بغثاء التافهين بل شارك الشعب همومه وقاسمه منزلته وسعى إلى المساهمة فى الاطاحة بالأصنام ومغالبة قوى الظلام وطغيان الاستعمار وأدرك بذلك أن أشد ما يمكن أن يثأر به الحر من زيف الزائفين وأقسى ما يعامل به المنافقين هو ألا يكون شبيها بهم أو متواطئا معهم !

ذلك أن أبا القاسم الشابى أحب تونس - لا كما هى - بل كما بدت له من خلال رؤيته الشعرية : كما تمنى لها أن تكون وكما ينبغى لها أن تكون إذا ما اراد التونسيون الحياة ونظموا صفوفهم وأوجدوا لهم قيادة حكيمة وزعامة رشيدة :

أنت يا شعب قوة لم تسسها   فكرة عبقرية ذات بأس

ولئن اعتبر أبو القاسم نفسه « طائرا غريبا يترنم بين قوم لا يفهمون أغانى الطيور » فانه لم ينعزل عن قومه ولا احتقرهم أو تفصى منهم ، كما يفعل بعض أشباه المثقفين أو المخنثون من الأدباء ، بل عاد إلى سربه وتضامن مع قومه وحمل قسطه من أعبائهم وهمومهم . ألم يقل فى إحدى رسائله إلى صديقه محمد الحليوى : « لنتحمل يا صديقى كل شىء فى سبيل النهوض بتونس وآدابها ما دمنا إنما نجاهد لاحياء الوطن والرفع من شانه بين الشعوب » .

ولا شك أنه استاء أشد الاستياء عندما لاحظ سراة القوم وأكابر العلماء والفقهاء يشاركون الفرنسيين احتفالاتهم فى تونس العاصمة بالمؤتمر الافخارستى والذكرى الخمسينية لانتصاب الحماية (1931) ، ولا شك أنه هاله ما عمد إليه المستعمر من تفقير وتجهيل للجماهير التونسية ومن مسخ

للذاتية القومية ، وما شجع عليه من تجنيس حتى يـذوب هذا الشعب فى بوتقة الامبراطورية الفرنسية ويصبح هبـاء منثـورا فشهـر بـ « الثعبـان المقـدس » وكشف عن زيـف المنطـق الاستعمـار الـذى يـدعى التمـدين والتعصير و ... :

لا تتخـذ الظـالـم منطقـا عـذبـا لتخفـى سـوءة الآراب

ودوى شعره بزئير العاصفة :

لا عدل إلا إذا تعـادلت القـوى وتصادم الارهـاب بالارهـاب !

أليس معنى هذا أن الشاعر عرف كيف ينزل من سماء الخيـال إلى دنيـا الواقع فذكر التونسيين والجماهير المناضلة فى كل مكان بأن الحـق إنما هو انعكاس للقوى المتقابلة وأنـه « ليس له شأن مـا لـم تـدعمه قـوة » (*) فكان الشابى بهذا البيت صدى للآية الكريمة : « واعتـدوا عليهم بمثـل ما آعتدوا عليكم ! » .

ومن غريب الأمور أن أبا القاسم يموت فى السنة ذاتها (9 أكتوبر 1934) التى ولـد فيها الحزب الجديد (2 مـارس 1934) وامتزج زعماؤه بالشعب وساروا معه وأمامه فى درب الكفاح الجدى والمجدى . ونحن نعلم اليوم أنه حضر اجتماعا شعبيا بمعقل الزعيم أو بجامع الحلق ؛ (ربما يكون ذلك يوم

(*) كما كان يقول الرئيس الحبيب بورقيبـة من منفاه بتطـاوين فى أقصى الجنوب التونسى سنة 1934 كلما سنحت له الفرصة فاتصل بالمناضلين أو راسلهم ، وكما أجاب الشاذلى خير الله من منفاه الصحراوى كذلك فأكد على صفحات جريدة النهضة فى تلك الظروف الحالكة ، التى خيم فيها الخوف وساد الـرعب وعم اليـأس ، وتخاذل بعض الزعماء الذين كانوا صادقين فى وطنيتهم ولكنهم حرموا رباطة الجـأش والقـدرة على الصبر والمصابرة فى وقت المحنة عندما دخلوا السجون والمنافى ، أكد أن الاستعمار لا يغالب بالمقالات الصحفية أو بالمفاوضات الصالونية بل لا بد من تنظيم الشعب وجعله قوة ضاربة لحمـل الخصـم على الجنـوح لاختيار أخف الضررين والتسليم بالحقوق المشروعة للتونسيين .

14 مارس 1934) دعا إليه الزعيم الحبيب بورقيبة وشاهد لأول مرة فى حياته مظاهرة يقودها رجال النخبة ، بعد أن كان « الزعماء » يكتفون فيما مضى باصدار الأوامر والاختفاء فى المكاتب ، تاركين الجماهير وشأنها .

وليس من المفيد فى شىء أن نتساءل ما كان يكون موقف أبى القاسم الشابى من الحركة الوطنية التى توخت الكفاح المباشر وصادمت الارهاب بالارهاب ، لو عاش وقدر له أن يواكب ملحمة الشعب التونسى وجهاده حتى النصر خاصة وأنه أصيب بمرض القلب ووهنت قواه فى الفترة التى تفصل بين ميلاد الحزب الجديد (2 مارس 1934) واعتقال الزعيم الحبيب بورقيبة ونفيه فى الجنوب (3 سبتمبر 1934) أى ستة وثلاثين يوما قبل وفاته (9 / 10 / 1934) !

كفاه فخرا وخلودا أنه شام فجر الاستقلال وتنبأ لهذا الشعب بالحرية وكمال الوجود وأراد له الحياة والتقدم ! كفاه مجدا أنه أنشد بيتيه الرائعين :

إذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلى ولا بد للقيد أن ينكسر !

إلا أن هذه الحقيقة التاريخية التى استشرفها الشاعر وتغنى بها ورسخها فى وجدان الأمة كانت تحتاج إلى عبقرية فذة تجمع بين عمق الرؤيا ووضوح الرؤية وقوة الفعل والطاقة على حشد الجماهير الشعبية وتنظيمها وتوعيتها ورياضتها على النضال والتضحية من أجل المبدإ والكرامة الانسانية ... فكان الحبيب بورقيبة المثقف المخلص والمناضل الأصيل وكانت الأمة التونسية فى وقفتها التاريخية وقد ولدت من جديد ـ وكأنها بعثت بعثا ـ تتحدى الاستعمار وتفرض إرادتها على الأشياء فينهزم « تاريخ » مفروض ويكتب تاريخ جديد بأحرف من نار ونور .

وهكذا يقام الدليل مرة أخرى على أن الحضارات الانسانية إنما تتقدم وتتألق وتسمو بالتحديات ، ، يبشر بها ويعلن عنها المفكرون العباقرة والشعراء الأفذاذ والسياسيون العظام ، وتحققها الشعوب المؤمنة بنفسها ، الواثقة من أصالتها ، المتمسكة بأسباب الحياة ، وهكذا يكون الشعر الحق رؤية وحلما وخيالا جامحا تستحيل واقعا ملموسا بفضل كفاح الشعوب البطولى وطموح الانسان إلى تحقيق الذات والخلق المتجدد .

وسيظل أبو القاسم الشابى شاعرا كبيرا لأنه كان ـ كما قال هو نفسه عن جبران : « فكرا قويا ... يجوب أعماق الحياة » .

محمد مزالي

عنترية

شعر أحمد اللغماني

لِبيضِ الوُجوه : صناديد عبْسْ ...
مفاخرُ عبْسْ .
وللساحبين بُرودَ الدِمَقْسْ ...
على البُسُطِ الفارسيَّهْ ...
أمجادُ عبْسْ .
صناديدُ عبْسْ :
جِباهٌ من العزِ تشْرِقُ في كلّ رأسْ .
لَهم تُسْرَجُ الصّهَواتُ الكريمهْ
بأسْرِجة ذهبيّهْ
وتُكسَى السُّيوفْ ...
بأغمدَة لُؤلُؤيّهْ ،
لتُنْضَى على نَقَراتِ الدّفُوفْ ،
وزَغْرَدَة الحُنْجُراتِ الرّخيمَهْ ،
اذا حلّ موسمُ نَحرٍ ، وكانت وَليمَهْ ،
او انْطلقَتْ رقصةُ السّيف بين الصّفُوفْ ...
بليلةِ عرْسْ .
أولئك ابطالُ عبْسْ ...
وهذا ... أنا ..
أنا ... عنترُ العبد ...

كُنتُ نتيجةَ شَهْوَهْ ...
رمت بأبي الحُرّ في ليلة مظلِمَهْ ...
باعمق اعماقِ هُوّهْ :
تردّى بها مخدعٌ لأمِهْ .
وهذا .... انا ...
انا ... عنترُ العَبْد ... أحْمِلُ قيْدِي ،
نصيبي سَوَاد بحظي ، وجِلْدِي
واصبرُ صبرا جميلاً ،
واكتُمُ همّي ،
وارثي لِقومي ،
وأحمِلُ في قلبي الطّيّبِ ...
حماقات أهْل ابي ...
واسيادِ أُمّي .

***

صناديدُ عبْس ...
يهبّون حين تهبّ النسائمُ في الباديَهْ ...
الى مُنْتَدَى الحيّ ...
في ظلّ رابية عاليَهْ ،
وفي كل شِدق لُفَافة " قاط " ...
وأكذُوبةٌ عارِيَهْ ،
تُفيضُ الحديثَ عن " القوة الضّاربَهْ " ...
تلاحق خلف مفازات عبْس ...
كتائب " ذُبيَانَ " مُدْبِرة هاربَهْ .

كــذلــك كانــت أحــاديــثُ عبْـــسْ :
أكاذيــبَ تُنْـســَـجُ من لُحمـــةٍ واهيَـــــهْ ،
اذا الْتَأمَــت حلــقـــة " القــاط " في منـتـــدى الرّابيَـــهْ ،
لــــدى كــلّ مغـــرب شمْـــــسْ .
وأبقـــى انـــــا ....
انـــا .... عنتــرُ العبــــد ... اجْــثُــو على ركبتــيْ .
وقيــدى يُغلغِـــلُ في مِعْصَمَـــــيْ ..؟
أظـل اشـاهد سُخــف صناديــد عبْـــسْ ..
فيصّــاعــد الغثيــان .... إلى ناظــــرَيْ ،
واصبـــر صبرا جميــــلاً ،
واكتُــمُ همّـــــي ،
وارثــــي لِقومــــي ،
واحْمِـــلُ في قلبــي الطّيـــب ...
حمــاقاتِ اهــل ابــي ...
واسـيــــادِ أُمّــــــي .

***

صنــاديـــد عــبْـــسْ ...
ينامــون مــلءَ الجفــون علــى الفُــرُش اللّـيّــنَـــهْ
ينــامــون والشمــــسُ رأدَ الضّحَـــــى ،
ويستيقظون وأعيُنُهــم مــا تزال تناغِــي طيــوفَ الكَـــرَى
ويقـظــتهــم غفــوةٌ من سِــنــهْ .
أولـئــك أبطــالُ عبْــسْ !
مخــادِعهــم بُــؤَرٌ للخـطــايا ،

وغيران فسق ورجْسْ ،
وحوش : يـمُصّونَ نُسْغَ الصبَى ...
من شفاه الصّبايَا .
كواسِر : يعتصرون الهَوَى ...
من نهود السّبايَا .
أولئك أبطالُ عَبْسْ !
حرائرُهُم ينتظرن على عتباتِ الخيَامْ ...
– واعينُهنّ لهيبُ اشتياق –
ظهورَ خيول عِتاقْ ،
سَنَا بكهَا شررٌ من ضرَامْ ،
تشقّ غبار الزِحَامْ ،
تُقِلّ شياطين لا يسحَبُونَ برُودَ الحريرْ ...
على البُسُط الفارسيهْ ،
ولا يحملونَ السّيوف المرصّعةَ اللؤلؤيّهْ
كما تَحمِلُ الغيد فوق الصّدُورْ ...
قلائدَها الجَوهريّهْ .
وتحلم غادات عبْسْ ...
بفُرسانِ " ذُبْيَان " ينتفضونَ انتفاضَ الرّياحْ !
يحلون بالحيّ قبل حُلول الصباحْ .
وتُسبَى حرائرُ عبْسْ ،
ويُرْدفْنَ خلف الغُزَاةِ على صهواتِ الجيادْ ،
وتخمُد نار الحميّة في حي عبْسْ ...
وتغدُو رمادْ .
وإذ ذاك يُدرك ابطالُ عبْسْ ...

بان آلـرّجـولَــــهْ ...
ليســت سيــوفا مــرصّعــة وبــرودَ دمــقْـــس ،
وأن الفُحــولـــهْ ...
ليــــت فروســيّـــة للـتّـبـرّج في يـوم عُــرْسْ .
وأبقـــى أنـــا ...
أنـا ... عنتـــر العبــد ...
أحمــلُ وحــدي مــعــرّةَ عبْـــسْ
وينـفـــدُ صبـــرى
ويحتَـــدّ غيــظــي ، وَيمـــلأ صَـــدْرِي ،
وترتعِــدُ البيــدُ من صــرْختِــــي ،
وينتفــضُ الســّيـــفُ في قبضَتــي ،
ويَغْـبـَـرّ يوْمٌ وتـكـسَـفُ شَمْـــسْ ،
ويشتــدّ بــأسْ ،
فتهْــوى رُؤُوسٌ ، وتُرفَــعُ رَأسْ .
وإذ ذاك يــرجــع أبــطــال عبْـــسْ ...
يجــرّون في خيــلاء بــرود الـدمقْـــسْ ...
على البـسـط الفـارسيّـــهْ
ويمتشــقــون السيــوف المرصعــة اللؤلؤيّـــهْ
أبقــى أنـــا ...
ـا عنتــر العبــد ... أكتُــمُ همّـــي
وأرثـي لِقـومـــي
وأحمِــلُ في قلبــي الطيّــبِ ...
حماقـاتِ أهـــل أبـــي ...
وأسـيــــادِ أُمّـــي .

أبعاد المكان والزمان في شعر الشابي

بقلم سلمى الخضراء الجيوسي

اني أفترض فى هذه الدراسة ان الخطوط العريضة لحياة الشابى أصبحت معروفة الآن فى العالم العربى ، وأفترض كذلك أن أهم قصائده قد اصبحت جزءا من المعرفة الشعرية العامة عندنا ، ولا شك أن ناقديه ودارسيه وعلى رأسهم الاستاذ «أبو القاسم محمد كرو» قد وفروا عنا ، مشكورين ، الشىء الكثير من البحث والاستقصاء ، فأتاحوا لنا النظر فى فن الشابى الشعرى من نواح أخرى لم يتطرق اليها النقاد بعد • وفى هذه الدراسة سأتناول أبعاد المكان والزمان فى شعر الشابى واحساسه بهما ، والدور الذى لعباه فى رؤياه الشعرية •

المكان فى شعر الشابى :

لو قام ناقد بدراسة أهم قصائد الشابى دون سابق معرفة بهويته وبتاريخ حياته ، لما استطاع ان يتكهن بسهولة من أى بلد هو ، اذ أن شعره لا يحمل الا أوهى الاشارات المباشرة الى وطنه تونس كمكان خاص متميز ، ولا يحفل بذكر الاماكن بمسمياتها المعروفة ، ولعل فى هذا خروجا عن عرف الشعر العربى فى تاريخه الطويل•فحتى الرومانسيين العرب الحديثيين من معاصريه كثيرا لما لجأوا الى التخصيص وذكر الاسماء وابراز الطبيعة الخاصة التى ميزت مكانا معينا دون سواه • فمن نيل التجانى الذى يفيض بالخير والنور والجمال ، الى قنوات « فينيسيا » المضيئة بالقمر فى ليالى علي محمود طه ، الى قرى « الهمشرى » القابعة فى ظلال النخيل ، وقرى « ابى شبكة » التى تسكب عليها فصول السنة ألوانا من الجمال الذى لا ينفد ، او تعمر بحيواناتها الاليفة وطيورها وفلاحيها الطيبين •

لقد كان ذكر اسماء الاماكن من أهم اركان القصيدة العربية ومن أبلــغ محركات الوجد والذكرى والحنين ، يربط القصيدة بمكان معين ، كأنه يجعل لها نسبة وهوية وأرضية ، ويزرع لها جذورا فيما هو محسوس وملموس ، فيقربها من التجربة الواقعية ويقدم نوعا من الدليل على صدق تجربتهـا وان اسماء الاماكن من قرى ومدن وجبال وأنهار فى الشعر الوطنى تبعث العواطف المرتبطة بحب الوطن ، فتهيج فى المغترب الشوق والحنين ، وفى المقيم الحماسة والاحساس بالانتماء • وقد استغل هذه الخاصية المهمة الشعراء الفلسطينيون استغلالا كبيرا فأكثروا فى شعرهم من ذكر أسماء الاماكن الكثيرة فى الارض المغتصبة ليذكوا شعلة الغربة المحرقة والحنين الدائم لارض لا تنمحى معالمهـا الجغرافية من الذاكرة ولا تزول •

وليس فى شعر الشابى الا فيما ندر ، ذكر لتونس (I) وتخصيص لمعالمهـا الجغرافية المتعددة • وقارىء شعره لا يحس بأن قلبه متعلق بهذه المعالم كمـا يشعر من يقرأ مقصورة « الجواهرى » الشهيرة :

سـلام على هضبـات العــــراق وشطيه والجرف والمنحنـــــى
على النخـل ذى السعفـات الطـوال على سيد الشجـر المقتنــــى
عـلى دجلــة فـاض آذيهــا كمـا حـم ذو حـرد فاغتلــى
••• ودجلـة تمشـى على هونهــا ويمشـى رخيـا عليهــا الصبــا

ويدهشنا ان نقرأ قصائد الشابى التى استوحاها من ذكرى حبيبته الاولى التى توفيت وهو بعد فتى يا فع ، فيذكر لقاءات كثيرة لهما فى عدوة الوادى يتسلقان الجبل المكلل بالصنوبر ويبنيان « أكواخ الطفولـة تحت أعشـاش الطيور » دون ذكر لاسم بلد معين أو جبل أو نهر،فلا شى هنا شبيه بالتوباد أو « وادى القرى » أو « نجد » ، وكأن الحبيبين كانا يلتقيان فى بعض سفوح فردوس أرضى لا اسم له ولا مكان معين •

ويقف الناقد متأملا ازاء هذه الظاهرة،ولعلها هى وثورة الشابى على الجمود والرجعية والجهل فى شعبه بتلك اللهجة المريرة الغاضبة الساخرة أحيانـا ،

(I) قصيدته « تونس الجميلة » هى اكثر قصائده تخصيصا ، وهى من اوائل قصائده • « ديوان الشابى » ، ط• دار العودة ، 1972 ، بيروت ، ص 58 — 60

كانت الدافع الى سوء الفهم الذى ميز تقدير بعض الكتاب لوطنيته · غير أن الشابى كان شديد التعلق بوطنه ، وفيا له ومحبا ، وحادبا غيورا الى درجة الهوس على النهضة الادبية فى تونس ، طموحا لها ان تقتحم الحقل الادبى العربى وتدخل الى روح العصر الحديث بقوة وأصالة · وان الرسائل المتبادلة بين الشابى والحليوى، ومقالات الشابى المتعددة(1) ، عامرة بتعابير تدل على متانة العلاقة بين الشاعر ووطنه · فهو ، اذ يلح فى احدى رسائله على الحليوى ان يواظب على الكتابة عن الادب ، يربط هذا النشاط بالشعور الوطنى ، « فتونس لفى حاجة الى ابنائها الذين تتدفق فى دمائهم عزمات الفتوة ··· وتونس لفى حاجة ان تتقدم بخطوات ثابتة الى سبيل النور ··· أن ترفع رأسها عاليا » (2) ·

لم يكن الوطن غائبا على عين الشاعر لحظة واحدة ، وقد كان انهماكه فى الوطن وهمومه وراء الكثير من الحزن والقلق والغضب الذى هيمن على شعره · غير انا ما زلنا نقف امام ظاهرة اغفال الشاعر لذكر اسماء الاماكن وتعيين حدودها المتميزة · وتفسير هذا يعود الى عدة امور لا علاقة لها بحب الشاعر لوطنه · فالشابى يميل الى التجريد والتعميم أكثر من ميله الى التخصيص · انه لحق ان شعره يزخر بالصور الحسية البعيدة عن التجريد ، ولكنها عادة فى مدلولتها الاخيرة ، تظل صورا ذات معان تجريدية مطلقة اكثر مما هى ذات اشارات حسية معينة ، فتحول الحبيبة فكرة ومثالا اعلى للجمال والكمال ، وتغدو الطبيعة جنة رائقة لا عيب فيها ولا نقص ، ويفقد الوطن هويته الارضية الجغرافية ويصبح فكرة الشاعر عن الشعب ·

---

(1) انظر كتاب **آثار الشابى وصداه فى الشرق** ، وانظر ايضا كتاب الاستاذ أبو القاسم محمد كرو **كفاح الشابى أو الشعب والوطنية فى شعره** (طبع لاول مرة فى بيروت 1954 وله على الاقل طبعتان أخريان) ·

(2) الرسالة الثامنة المؤرخة فى 21 مارس 1930، **رسائل الشابى**،اعداد محمد الحليوى ، دار المغرب العربى ، تونس ، 1966 ص 45 · وانظر ايضا الرسالة 12 المؤرخة فى 10 افريل 1932 حيث يقول : « لنتحمل يا صديقى كل شىء فى سبيل النهوض بتونس وآدابها ، ما دمنا انما نجاهد لاحياء الوطن والرفع من شأنه بين الشعوب · » ص 63 و 64 ·

ان الشاعر يتخطى باستمرار حدود الاشياء الحسية ليصل الى اللامحسوس ، الى عالم الافكار والمشاعر والمثل العليا والمطلق ، ولا يهمه بعد ذلك ان يسمى المكان باسمه او الحبيبة باسمها او ان ينسب التجربة الى مكان معين يتعرف عليه القارىء دون التباس • والحقيقة ان غابه حيث حدثت أهم تجاربه الشخصية قد يكون فى أية بقعة جبلية فى العالم •

ولعل هذه الخاصية عنده ، أى ميله الى التعميم والاطلاق والارتفاع بالحالة النفسية الى نوع من المد الروحى ، تكمن ايضا وراء خلو شعره من اى ذكر يعتبر لنوع آخر من الامكنة ، البيت او المكتب او المعهد او المخدع او الطريق ، فكأن الشابى يود دائما ان يرتفع فوق خصوصية المكان ومحدوديته ، ونحن نراه عند ذكر البيت مرة واحدة فى قصيدة « الساحرة » يطلق عليه حكما تجريديا عاما فيقول : « ان للبيت لهوه الناعم الحلو » (I) • وكان الشابى اكثر احتفالا فى شعره بالوجود الكبير وبالحياة الشاسعة والموت والخلود وبالمجردات الاخرى كالحب والشباب والسعادة والعذاب منه بأى شىء آخر ، وجعل لها فى شعره فلسفة ملازمة شغلته على الاهتمام بالحدود الضيقة التى تفرضها الاماكن الخاصة على الشاعر ، غير انها حرمت شعره من تلك الاثارة العاطفية الخاصة التى تبعثها فى النفس اسماء الامكنة المعينة المتعلقة بتجربة الشاعر، أو التى تحمل للشاعر او له ولبنى وطنه ايضا معنى مثيرا او ذكرى لا تمحى •

تجىء هذه الخاصية عند الشابى نتيجة للرومانسية التى تسمح بالتجريد دون ان يكون التجريد شرطا ملازما لها • ورومانسيته ايضا هى التى تدفع به الى الغاب وتنفره من المدينة وحياتها • ان هذه المواقف المتعددة التى تتكشف عنها شخصية الشابى ذات علاقة وثيقة بموقف العبقرى الرومانسى من مجتمعه ، وهو موقف أساسى يزداد حدة عندما يبرز العبقرى فى مجتمع شديد التأخر ، فاتر العناية بالادب ، بطىء الاكتشاف والتقدير للعبقرية والابداع •

ان العبقرية لا يمكن إلا أن تعيش فى صراع مستمر مع العالم حولها ، لان المحيط الذى يحاصرها ، بمستوياته العادية ، يحاول دائما ان يضغطها ، وان يقولبها بالقالب العادى الذى يفهمه ، غير مدرك ان سر حياتها يكمن فى شذوذها واختلافها وعدم مطابقتها لنموذج الشخصية المقبولة فى محيطها •

(I) ديوانه ص 358 •

ان الجهاز العصبي عند العباقرة جهاز غير عادى ، وقد يكون جهازا غير طبيعي احيانا ، والوضع يزداد حدة ازاء العبقرية الرومانسية لان جوهرها هو الثورة ورفض الوضع الراهن والاعراف الموروثة والسعي وراء تجديد الحياة · وكان الشابي ، وهو الصافي العبقرية ، عاجزا عن الاحتفاظ بوداعتها وتماسكه عندما يدخل الى ذلك « القفر البائس الموبوء » الذى هو المجتمع :

وأنـــا الـــذى يحيـــا بـأرض قفـــرة مـــدحـــوة للشــــــك والآلام (1)

فالمجتمع يصبح رمزا للشر الاجتماعي ومكانا مضطربا تتشعث فيه نفس الشاعر وتتبعثر ، وتصيبها الغربة كالطاعون ، فتصبح منفصلة ناتئة عن هذا المجتمع الذى يرفضها ولا يفهم لغتها · وبالرغم من التزام الشاعر بمظاهـــر الحياة الاجتماعية العادية فى بلاده منطقة « الجريد » (2) فقد كان فى دخيلتـه ينر نفورا شديدا من مستويات الحياة العادية المقبولة فى مجتمعه ، ويعتبرها خطرا يهدد حياته · وقد تمثل رد فعل الشابي لهذا الوضع بمواقف متعددة : فى الحزن والنديب ، وفى الغضب والتحـدى ، وفى الايمـان والامـل ، وفى الغربة (3) والسعي الى مكان بعيد يخيم عليه السـلام ويعـود فيه للنفس انسجامها ، أى بالهروب ·

(1) « قيود الاحلام » **ديوانه** ص 91 ·

(2) مما ادهش صديقه ، محمد البشروش ، فهو يكتب لصديقهما الحليوى فى 15 فيفرى شباط 1934 فيقول : « واذا كان للشابي من ذنب فهو ضعفه واستسلامه لهذا الوسط الغبي ، فبقدر ما تعهده فيه من تمرد ونزوع الى الاستقلال ، بقدر ما تراه منكمشا خاضعا ، يأبى ان يأتى أمـرا يصـادم نفسية القرية » · الرسالة 12 ، **رسائل الشابي** ص 185 ·

(3) بدأ موقف الغربة فى الشعر العربي الحديث فى مطلع القـرن مع بعض الذين كانوا ينتمون الى جيل الادباء الذين ثـاروا على الاعـراف القديمـة الموروثة منفنيةواجتماعية · وقد وجد هذا الموقف أشد تعابيره حدة فى انتاج جبران المتنوع، ثم فى نثر عبد الرحمان شكرى فى اواسط العقد الثانى، كما فى كتاب **الاعتراف** (1916) **ومذكرات ابليس** (1917) وسواهما · اما بين الشعراء الرومانسيين من جماعة ابولو ومعاصريهم الاخرين امثـــال التيجانى وابى شبكة ، فقد كان الشابي أعظمهم تعبيرا عن موقف الغربة واعنفهم ثورة على الاعراف المتوارثة · وقد قوى موضوع الغربة فى شعر

وكان الشابي عندما يعين لهذا الشعب مكانا يجعله في المدينة ، المدينة ذات القلب المتحجر ، المدينة الغارقة بموار الدم ، (1) بؤرة الشر والمظالم والدعارة والفجور ٠ انها الارض القفر التي سكنها الشاعر مكرها ، وفيها تتمثل الدنيا الفانية ، وتعشش فيها تفاهة الحياة الاجتماعية وسخفها ولغوها (2) ٠

الخمسينات والستينات واصبح تجربة جوهرية في الشعر ، ترتبط بمواقف كثيرة اخرى كالرفض والضياع والثورة والرعب ـ الا ان تغيرا مهما لاح في شعر هذه الفترة الاخيرة٠فقد بدأ موضوع « الشعب » يتخذ دلالة أهم ومعاني أشد تعقيدا وايحاء ٠ وفصل مفهوم الشعب عن مفهوم السلطة واقيم منهما قطبان متعاديان ، ووقف الشاعر الحديث الى جانب الشعب ضد السلطة ٠ ولم يعد الموضوع موضوع عبقرية رومانسية لا تجد لها وطنا في محيط تهيمن عليه التفاهة والمستويات العادية وتحجر القيم والمفاهيم ، بل اصبح موضوع الحرب القائمة بين قوى الخير والمستقبل والحياة التي تتمثل في الشعب وشعرائه الطليعيين ، وبين السلطات السياسية (والدينية احيانا) التي تعرقل مسيرة التقدم ، بينما كان جبران وشكري والشابي (وراجع ايضا على سبيل المثال قصيدتي « الدينونة » و « القاذورة » لابي شبكة في افاعي الفردوس) ينفرون نفور الرومانسيين من المجتمع الذي حولهم ، من عامة الناس ، ويشعرون بانبتات العلاقة وانسداد الطرق بينهم وبين هذه الكتل البشرية التي تعيش على هامش الحياة ولا تطيق ان ترفع اعينها الى السماء ٠
غير أن وقوف الشاعر الحديث الى جانب الشعب ضد السلطة له عرف مباشر في هذا العصر ٠ فلعله بدأ منذ ايام الرصافي وجيله في العراق ثم وجد اوجه في شعر محمد المهدي الجواهري (راجع قصيدته « اطبق دجى »وفيها رفض للامرين : للشعب وللسلطان) ٠ وفي الاردن برز الشاعر مصطفى وهبي التل في الثلاثينات والاربعينات كشاعر مغترب رافض ، اعلن سخطه على السلطة والتقاليد الاجتماعية معا ، ونسب نفسه الى بسطاء الشعب والمنسحقين من ابنائه وعلى رأسهم الغجر ٠

(1) انظر قصيدته « مناجاة عصفور » ، **ديوانه** ، ص 185 ـ 191 ، وفيها يقول :
ماذا أود من المدينة وهي غارقة بموار الدم المهدور ٠
٠٠٠ ماذا أود من المدينة وهي مرتاد لكل دعارة وفجور » ، ص 189 ٠

(2)انظر قصيدته « قيود الاحلام » ، **ديوانه** ، ص 288 ـ 291 ٠

وازاء المدينة تقف الطبيعة الصافية ، فالمدينة تمثل القيود ، والتصنع والتعقيد ، وضرورة العمل لكسب العيش ، وتحكم الانظمة الموروثة ، والطبيعة تمثل الحرية والبساطة والتواضع والصفاء والبراءة والمساواة • ويثقل كاهل الشابى اضطراره إلى التزام المدينة لتصريف مؤون الحياة العائلية والاجتماعية وللمحافظة على الروابط المعنوية فى المجتمع ــ فهو دائما يحن الى الطبيعة ، الى الخروج من أسر الاماكن الضيقة المسكونة بالناس والشرور •

غزله بالطبيعة ينتمى الى عرف جديد فى الشعر العربى الرومانسى هو أقرب الى العرف الغربى الرومانسى منه الى تقاليد شعر الطبيعة فى الادب العربى الكلاسيكى • ان فى الشعر العربى الكلاسيكى عرفين مقترنين باشياء الطبيعة • فلو سمينا العرف الاول ، تجاوزا ، عرف « ابن المعتز » وجدنا انفسنا امام حشد من المنظورات الطبيعية فى طبيعة مخضرة مزهرة مليئة بالورود والظلال والندى والمياه ، ولكنها طبيعة تجردت الى حد كبير من العلائق العاطفية بوجدان الشاعر وبقيت اوصافا جمالية تسر العين اكثر مما تبعث الحنين والاشواق الغامضة فى القلب • والموشحات الاندلسية ، فى غالبيتها ، تقع ضمن هذا النوع « المعتزى » ظبى الحمى ، وعيون النرجس ، والهلال الشبيه بالزورق الفضى ، والمياه الجارية والجنان الافانين ، هذه كلها تظل رؤى بهجة ذات خطوط خارجية يصورها الشاعر كما بريشة رسام • أما العرف الثانى ، فهو عرف رومانسى عريق ، قديم قدم الشعر الجاهلى نفسه ، ارتبط منذ بدايته بمختلف العواطف كالحنين والحزن والشوق والذكريات ، ولعل الحمامة (او الورقاء او المطوقة) والظبية (او المهاة) من أشد هذه الاحياء الطبيعية رومانسية فى الشعر القديم •

أما شعر الشابى فان مسمياته الرومانسية من الطبيعة اقرب الى المسميات الغربية بسبب اختلاف البيئة وانزياح العرف ، ذلك لان الشعر الكلاسيكى كان فى باكورته شعر صحراء ، فاستمد مسمياته الرومانسية الاولى من أشياء الصحراء وما جاورها : حيواناتها ، وضالها وغضاها ، وبقيت الازهار والظلال والطبيعة المورقة من نصيب شعر الصنعة والتأنق « المعتزى » لتعود فتتمثل فى الشعر العربى الرومانسى الحديث مختلطة بوجدان الشاعر مشاعره الحميمة • واذا تمتزج هذه المسميات الرومانسية الحديثة (الفراش ، الزهر ، الظل ، الاضواء ، الينابيع ، الغصون المزهرة ، النسيم ، ضباب الجبال واشجارها) بأحاسيس الشابى ، فان عزلته التى يمعن فى وصفها ، وهى عزلة

جسدية واغتراب روحى فى آن واحد ، تظل كأنها عزلة طيف غريب يتبخر من قلب الطبيعة ، من اشجار الغاب الملتفة ، من السرول والصنوبر والسنديان والزيتون ، لتهيم روحه فى سماء اسطورية • وقد كانت الصورة التى رسمها لنفسه فى الغاب صورة اسطورية هى ايضا ، فهو يعيش فى « معبد الغاب » ، يشدو مع الطير فى الصباح ، ويمشى منتشيا نافخا نايه بين ورود الربيع :

شعره مرسل تداعبه الريح على منكبيه مثل العقس
والطيور الطراب تشدو حواليه وتلغو فى الدوح من كل جنس » (I)

لقد حرص الشابى على ألا يمزج هذه الاحاسيس بأى من اوصاف الطبيعة الصحراوية التى تتصف بها « توزر » وضواحيها ، واختار وصف الطبيعة الجبلية التى عرفها فى أسفاره ومصطافاته ، لا سيما فى عين دراهم فى شمال ـ تونس ـ والمشروحة الجزائرية ، بالرغم من انه كان يستأنس بواحات « توزر » وينصرف اليها ابان اقامته فى بلاد الجريد (2) أبالغريزة الفنية التى كانت تنفر من استجلاب الكلاسيكية الكامنة فى المسميات الصحراوية ، أم تلهفا على الانتماء الكامل الى عرف الشعر الرومانسى العربى الجديد كما سنته مدرسة المهجر ، ام تفضيلا وايثارا للطبيعة الجبلية على الطبيعة الصحراوية ؟ اننى شخصيا اميل الى ترجيح الفرضية الاولى •

واذ تنتصر الطبيعة الجبلية فى شعر الشابى يصبح الغاب مكانه الاثير • ان الغاب هو الموطن النموذجى للبطل الرومانسى عرفا وتقليدا راسخا فى الشعر الغربى وفى شعر المهجر • وقد سن جبران هذا العرف وجعل الغاب رمزا لوحدة الوجود وللحياة الانسانية فى بدايتها الاولى ، يوم لم تكن ثنائيات الخير والشر ، والجسد والروح ، وتناقضات الحياة الانسانية الحديثة قد أثقلت الانسان بقانون التباين والتمايز واشكال الانقسام النفسى المرهقة • وبقى الغاب عند « جبران » رمزا للبساطة والمساواة والانسجام الروحى والمحبة الشاملة •

(I) « النبى المجهول » ، **ديوانه** ، ص 254

(2) يقول الشابى فى رسالته للحليوى من توزر : « اننى الآن فى عزلة محببة الى نفسى فى الصحراء أو تحت ظلال النخيل » الرسالة I2 ، فى I0 أفريل نيسان ، I932 ، ص 62 •

اما الشابي ، فانه تحدث عن غاب حقيقي اولع به الى درجة الشغف . ومن تجربته التي تصل به الى درجة التوهج الصوفي (وبفضل مطالعته في شعر المهجر ايضا) ، وصل احيانا في بعض قصائده الى وحدة الوجود . ولكنه في أغلب قصائده عن الغاب ، جعل منه ملجأ شخصيا يحجب عنه شرور المجتمع وقيوده وتقاليده ، مكانا تتطهر فيه النفس وتنسى عذابها .

انني ذاهب الى الغاب يا شعبي لأقضي الحياة وحدي بيأس
انني ذاهب الى الغاب علي في صميم الغابات أدفن بؤسي
يالها من معيشة في صميم الغاب تضحى بين الطيور وتمسي
يالها من معيشة لم تدنسها نفوس الورى بخبث ورجس (1)

وقد يقول :

في الغاب ، في الغاب الحبيب وانه حرم الطبيعة والجمال السامي
طهرت في نار الجمال مشاعري ولقيت في دنيا الخيال سلامي (1)

ان صورة غاب الشابي صورة الملاذ الظليل الذي سكنه السلام والامان .

الشابي لا يعبأ بصور الطبيعة الرهيبة الهائجة ، بل ان صوره رعوية خضراء ، تؤنسن الطبيعة ، وتجعل الغاب مكانا للبحث والتجدد . وبين الشاعر وبين محاورة الغاب حديث ونجوى ، ومحاورة روحية ، وانسجام كامل ، انه غاب ربيعي يفيض حياة وبشرا وطمأنينة ، والشتاء العاتي المعري ، حامل الزوابع والسيول والرعد والصقيع ، لا يمر به الا لكي يعيد الجمال والصبا اليه في انتظار قدوم الشاعر . ان هذه الاستراحة الامينة ، وهذا الهجوع في الطبيعة ،حسب التفسير « الفرويدي » ، يشير الى شوق في النفس للعودة الى رحم الام ، ويتفق مع ما نعرفه عن نزوع الشاعر الملح الى التخلص من الغربة الروحية التي تسقطها عليه بلاوى الحياة الاجتماعية حوله،وعن توقه الى مكان أمين يجنه ويحميه .

---

(1) « النبي المجهول » **ديوانه** ص 249 ـ 256 .

(2) « احلام شاعر » **ديوانه** ص 469

ان العبقرية ازاء احساسها بالتغرب وبانقسام النفس ، تلعب دور القدر الذى يستطيع ان يتصاعد ويتخطى الغربة بادخال نظام أرقى الى الحياة ، نظام جمالى او سياسى او دينى او عاطفى ٠ والشابى كشاعر رومانسى ، سعى الى تبديد غربته بالاتصال بعالم جمالى وآخر عاطفى يسكب فيهما ذاتيته واحلامه ويتحرر فيهما من قيود غربته وعذابها ٠ فها هو على حين غفلة يتحد ويتآلف مع شىء خارج نفسه هو رمز فى رؤياه للكمال والانسجام ، يتخطى بواسطته غربته وينعم بالامتلاء الروحى فيتحرر من الوحشة والانقباض ٠

ولما كان الغاب هو المكان الوحيد الاثير الذى تحققت له فيه السعادة والذى يعنى الابتعاد عنه العودة الاليمة الى تجربة الشقاء والضجر والضيق ، فانه انتهى بان رفعه الى مستوى **الجنة الارضية** ، وأضفى عليه **رؤيا فردوسية** ساطعة انه جنة الفترات الذهبية من حياته المعذبة ، ونعيم عامر بآلهة الحب والنشوة والجمال ، وبالحيوانات والطيور الاليفة وبالطبيعة الانيسة الممراح ٠ وتظل صورة هذا الجنان العجيبة ذات الربيع الذى لا يذبل تغرينا بوعدها الدائم بسعادة اكيدة وانسجام أليف ٠ وتتدفق اجمل قصائده الغزلية بايقاعات الغاب الفردوسى ، وعندما يتحقق له الحب فى ظلال الاشجار الوارفة ، يصل الشاعر الى اقصى درجات النشوة والسلام ٠ ان اشجاره ابدا ظليلة ورحيمة ، تخلو من أفاعى ابى شبكة وافاعى شعراء الغرب من ورثاء الجنة الضائعة ، فحتى عندما يذكره الغاب ، وهو وحيد ، بحبيبته الاولى التى توفيت فى أول صباهما ، أى عندما يصبح الغاب جنة ضائعة ، فانه لا يتحول ابدا الى مكان موحش ، ولا ينقلب مكمنا للشر او الوحشة او مسكنا للافاعى المسمومة ٠ ولعل هذا يعود الى ان هذا الحب المبكر لم يضع غدرا واعتداء بل موتا وقدرا من الله ٠

لماذا خلت جنة الشابى من افاعى الجنان الموروثة ؟ فى الاساطير القديمة من سامرية ويونانية ومصرية ، ثم فى قصة خروج آدم وحواء من الجنة ، تلازم الافعى الشجرة ، وترتسم ملتفة عليها فى عشرات النقوش القديمة على اللوحات والزهريات والاوانى الاخرى٠وكانت الافعى رفيقة ابليس فى فردوس ميلتون الضائع Paradise lost ٠ اما الشابى فان جنته بقيت أنيسة وامينة ، محجوبة عنها الافاعى المراوغة ، رسل الموت والختل والتغرير ٠ انها جنة سعيدة لا ضجر فيها ولا عياء ولا موت ، تنتمى بقوة الى عرف الجنان المثالية التى تفيض سلاما وبردا ونعيما ، صورة مصغرة عن الجنان القرآنية المسكونة بالحب الالهى والسعادة الابدية ٠

غير ان دخول الافعى والشيطان الى الجنة معناه دخول عنصر الصراع الحى الى العمل الفنى وهو عنصر جوهرى فى الفن يحدث التوتر بين القوى المعادية التى تهيمن على حياة الانسان • غير ان جنة الشابى الارضية كانت مكانا انتهى فيه الصراع والتوتر والتناقض ، ولكى يحقق هذه الغاية كان عليه ان ينفى الافاعى عن فرودسه ، فالبراءة والبسالة فى غابه لا تتحققان عن طريق انتصارهما فى صراع حيوى مع قوى الشر والدمار بل لان لهما وجودا اوليا مطلقا فى معزل عن قوى الشر والدمار • والغريب ان الشابى استطاع بقدرة عجيبة ان يولد فى غاباته المطهرة الامينة حيوية دائمة دون ان يحتاج الى ادخال عنصر التوتر المتولد من صراع الخير والجمال مع عنصرى الشر والضعف وقد تمثلا فى الشيطان المغامر والافعى المغرية واللص الادمى المدفوع الى العصيان • وللمرة الاولى يدخل الانسان الى الجنة الارضية ولا يخرج منها ، وتحتفظ الجنة بقدرتها على صيانة الحب والجمال فى وجود موقع منسجم •

ابعـــاد الزمـــان في شعر الشـــابي

فى حديثى عن ابعاد المكان فى شعر الشابى مررت ببعض النقـاط مـرورا سريعا لانى مضطرة الى التطرق اليها مرة اخرى فى حديثى عن موقف الشابى من الزمن • ذلك لان الامرين يندمجان معا احيانا ، فتقترن مثلا بعض المدلولات الزمنية بعلاقة الشابى بالغاب والطبيعة ـ ويحدث البحث فيها نوعا من التكرار الذى لا مناص منه •

ان اسهل انواع التقسيم للزمن هو النظر اليه باعتباره ماضيا وحاضـرا ومستقبلا ، غير ان موضوع الزمن ليس بهذه البساطة • فالماضى نفسه مثلا يتشكل من ماض بعيد ضارب فى جذور التاريخ ، ومن ماض قريب تعيش صوره واضحة فى المخيلة ، كما ينقسم الى الماضى القومى والانسانـى والى الماضـى الشخصى • ان الشاعر الفلسطينى محمود درويش مثلا ، عندما يتحدث عن ذكرياته شعرا او نثرا (انظ ردواوينه ، وانظر كتابه النثـرى **يوميـات الحـزن العادى**) يمزج بين الماضيين ، ماضيه الشخصى وماضى شعبه وبلاده • وكذلك المستقبل ، قد ينحصر فى الفترة الشخصية التى تحد حياة الفرد ، وقد يمتد عبر الحقب الى اجيال لم تزل بعد فى المجهول • ثم ان الزمن قد يكون فى رؤيا الشاعر أفقيا ، يتدرج تدرجا تاريخيا متعاقبا فى خط مستقيم امامى واتجاه لا يعود القهقرى ـ وقد ينظر اليه الشاعر كزمن دورى يتشكل من دورة الفصول

وتكرار نفسها فى حلقات لولبية تلتقى بدايتها بنهايتها لتسجل ايقاع الكون الازلى ، صورة الولادة والموت والبعث من جديد فى تطور الطبيعة العضوى ٠ ان الزمن الافقى زمن آلى مرهون بدقات الساعة الآلية المقاسة باللحظات المتساوية ، يمتد الى الامام فى سلسلة من الحوادث المتلاحقة ، دافنا كل شيء وراءه ٠ والزمن الدورى زمن عضوى يعتمد فى مروره على قانون النسبية المتعلقة بتجربة الانسان ، فيمر سريعا كالحلم او يزحف زحفا بطيئا كالسلحفاة ، ولذا فان لدقائقه ولحظاته صفة نوعية تتخطى الحدود الالية المقاسة بالتساوى الكامل ٠

وقد ينظر الشاعر الى مرور الزمن على انه تذكير بمأساة التغير والفناء ، او على أنه غاية لبلوغ التقدم والنجاة ٠ وفى لحظات النشوة والاكتمال الروحى قد يتمنى ان تنكسر عقارب الساعة ويتوقف مسير الزمن ٠

ثم ان الزمن الانسانى الذى يؤول بالفرد دائما الى الفناء يقف ازاء الزمن اللانهائى الذى يمتد منذ الازل الى الابد ٠ وفى مواقف كهذه يعالج الشاعر مشكلة الفناء والموت كما يصور موقفه من الله والمطلق والخلود ٠

فكيف حاور الشابى هذه المواقف المختلفة ؟ ان دراستنا لرؤى الشابى الزمنية خليقة بان تكشف لنا مدى التعقيد الفنى والفكرى الذى بنيت عليه شخصيته الشعرية ٠ فموقفه من الزمن موقف مبطن ، متعدد الوجوه ، دون ان يتكشف فى جوهره عن تنافر سلبى لا فنى ٠ ان تناقضات الموقف عند الشابى ، وهى كثيرة ، انما تعود الى قدرة هذا الشاعر الفتى المعذب على رؤية الحياة الانسانية من جميع وجوهها ، وعلى معاناة التجربة المعقدة من نواحيها المتعددة ٠ ان شعر الشابى يتفتح عن مسافات روحية وفنية واسعة اذا ما طبقت عليه أدوات النقد الحديث ، بينما يفقد شعره أهم صفاته واكثرها تألقا عندما يتناوله النقد التقليدى بالبحث والتعليق ٠

الماضى البعيد والتاريخ فى شعـــره :

ينظر الرومانسيون عادة الى الماضى البعيد كزمن اكثر سعادة واكتفاء ٠ كان الرومانسيون الغربيون فى القرن التاسع عشر ، على سبيل المثال ، يؤمنون بأن اليونانيين القدماء كانوا يتنعمون بحياة حرة منسجمة لا تشعب فيها ولا انقسام،

حياة كان الانسان فيها موحدا مع نفسه ، ومع الطبيعة ومع العالم الخارجي ٠ وكانوا يرون بأن حياتهم المعاصرة قد غزاها التصدع والتفسخ ، وانفتحت على الغربة والكآبة ، وامتلأت بالنقص والخسران ٠ فحنوا الى الحياة القديمة ومجدوا الماضي البعيد ، ورفضوا الحاضر المتفسخ المسخر للقدر وللطبيعة ولقوى المجتمع الفوضوى المضطرب ٠

واختلف الرومانسيون العرب الحديثون عن هذا الموقف اختلافا كبيرا ٠ كانت الرومانسية العربية ثورة على القديم فى انجازاته الادبية وفى دلائله الروحية والاجتماعية ٠ وكانت الفترة السابقة للرومانسية ، وهى فترة الكلاسيكية الجديدة ، مكرسة لتمجيد الماضى البعيد فى انجازاته الفنية والروحية والحضارية ٠ كان شوقى مثلا ، يقدس الماضى الكلاسيكى ويقف منه موقف القبول والاحتفال ، واكتسى شعره حنينا عجيبا لمثالية ذلك الماضى فى عصور الاسلام الذهبية ـ واشترك معه شعراء جيله ثم مئات الشعراء المحافظين من بعده فى اغنية التمجيد الطويلة لماض بعيد رأوه ثابتا مضيئا ، كنجم ثاقب ٠ لقد أوقدوا له شعلة الذكرى المتوهجة ، ورفعوه بقوة على قصور الحاضر وعقمه واسترخائه ٠

وارتبطت هذه الفترة الزمنية البعيدة فى شعرهم بأمكنة كانت مراكز للحضارة والاشعاع ، كبغداد ، ودمشق ، والاندلس ، واعطى هذا التوحيد بين المكان والزمان معنى واقعيا لهذا التطلع الرومانسى الذى تميز به شعراء المدرسة الكلاسيكية الجديدة ومن اتبع طريقهم ٠ غير ان الاجيال تختلف فى اختيار الفترات الزمنية التى تستقى منها الوحى والمثال ـ ولعله كان فى ارتباط هؤلاء الشعراء الكلاسيكيين الجدد بالقديم ما ولد نفورا غريزيا فى الشعراء الرومانسيين من الماضى العربى الكلاسيكى ، لقد نزعوا الى التفلت من سطوة التقليد القديم ، وأبوة الشعر الكلاسيكى ، وسيطرة المواقف الشعرية الموروثة ، وكانت الحركة النفسية التى وجهتهم حركة رفض للماضى الشعرى والروحى ، وتطلع للغرب فى ابداعه الرومانسى ٠ فاختلفوا عن زملائهم الشعراء من رومانسيى اوروبا فى هذا المجال ، بينما اتحدوا معهم فى موقفهم المتماثل من الحاضر الذى وجدوه مليئا بالقصور والنقص والتهافت ٠

وانما فى ضوء هذه المعرفة نفهم موقف الشابى من الماضى البعيد ٠ ليس فى شعره أى ايماء الى عالم عربى سامق تجمد وانكفأ فتزعزع بانكفائه صرح الحضارة العظيم ٠ انه ليس عاشقا لعظمة الايام القديمة كشوقى واقبال ، ولم

تختزن ذاكرته معالم عصور ذهبية منصرمة ، ولم تقلقه اطياف الماضى البعيد فيحن الى عهود الايمان الضائع · التاريخ ، كمجرى الاشياء الطبيعى المحتوم ، كزمن مستمر متصل ، تتزاحم فيه الاسباب والنتائج ، ويتراوح فيه المد والجزر ، هذا التاريخ لا يلفت نظره كثيرا · فان كان الكلاسيكيون الجدد قد حاولوا ان يبرهنوا على قدرة الانسان فى العالم العربى على الانبعاث لانه وريث تلك الحضارة الشامخة ، فان الشابى فى اللحظات التى تحدث فيها عن امكان البعث حاول ان يبرهن على قدرة الانسان فى عالمه على الانبعاث لانه انسان ولان الانسان فى امكاناته كائن عظيم ·

غير ان الشابى لم يفهم روح العالم القديم ، ولا شعره ، ولا حركة الفن فى المجتمع الجاهلى او الاسلامى · ولقد كان اعظم المنشقين روحيا واكثرهم جرأة وصراحة ، ولعل خروجه **الفكرى** عن التراث تمثل على اقوى وجه فى محاضرته الشهيرة « الخيال الشعرى عند العرب » التى القاها فى سنة 1929 فى الجمعية الخلدونية بتونس العاصمة ·

ان هجوم الشابى فى هذه المحاضرة على الموقف الكلاسيكى العربى من المرأة (وهو موقف معقد لم ير فيه الشابى الا وجها واحدا) وعلى مدلولات الشعر الحماسى الجاهلى وحيويته فى مجتمعه ، يكشف نقصا فى ثقافته الشعرية الكلاسيكية وفى المامه بتاريخ المجتمع العربى ودور الشعر فيه · غير انها تقف شاهدا على روح الفترة التى كان يكتب فيها ، وعلى جرأته الشخصية النادرة وعمق ثورته ورفضه وطموحه · وان هذا ما يشغلنا الان اذ ندرسه · فالحضارة العربية الكلاسيكية ، بشعرها ونثرها وفكرها ، عانت منذ مطلع القرن هجومات لا حصر لها ، بعضها صائب واغلبها مبنى على تسرع فى المواقف والدراسة ، ولم يؤثر ذلك فى مكانتها ـ وعادت اليوم تلح على الدارسين ان يتناولوها من جديد ، بأدوات النقد الفنى والاجتماعى الحديث ، مانحين لها صبر الدارس العميق الثقافة · ما يهمنا فى هجوم الشابى على الشعر الكلاسيكى والحضارة العربية هنا ما عبر عنه هذا الهجوم من صفات شخصية تدل على فنوذية الشاعر ومن مزايا عامة تكشف روح تلك الفترة الرافضة ·

وقد كان الشابى فى شعره أقل احتفاء بالهجوم على الماضى الكلاسيكى منه فى هذه المحاضرة ، ولكن الدعوة الى التجديد والتغيير تتنفس فى كل ما قاله من شعر بهذا الصدد ، وتكتسى نغمة سخرية لاذعة ، فالعالم النحرير الذى ينفق عمره فى فهم الالفاظ المستغلقة ودرس الكتب القديمة :

« يحيـا على رمـم القديم المجتـوى   كالدود فى حمم الرماد الخابـى » (1)

والشعب الذى يتعبد لاطياف الماضى أشبه بعجـوز كل دنيـاه ذكـرى شبابه (2) • ويبلغ الشابى اوج السخرية من هذا الارتباط بالقديم عندمـا يقـول :

« والشقى الشقى فى الارض قلـب   يومـه ميـت وماضيـه حـى » (3)

لقد قطع الشابى شجرة الزمن من جذوعها ، وتغاضى عن الجذور الضاربة فى الارض – موقف ناقض فيه شعراء المدرسة الكلاسيكية الجديدة الذين عادوا الى الماضى لكى يكون لهم بعد جمالى وروحى يتغلب على ضعف الزمن الحاضر ومخاطره ، وموقف نقضه شعراء المدرسة الحديثة بعد الخمسينات برؤياهـم الشاسعة لزمن اسطورى يمتد من الماضى الى الحاضر الى المستقبل ويربط تاريخ الامة فى كل موحد ، مشيرا الى استمرارية الزمن وقدرته على اعادة نفسه من جديد •

لقد عادوا الى الماضى لكى يحصلوا على خلفيـة زمنية للتجربـة الانسانيـة المتكررة ، فان كان الشعر الكلاسيكى الجديد قد أضاء ذاكرة الامة بما قدمه من تمجيد لابطال الفتوحات والانجازات العظيمة ، فان الشعراء الحديثين نقبوا فى تاريخ الحضارة العربية وفى آدابها ليجدوا نماذجهم العليا فى نوع مختلف من الابطال – وبرزت الى الوجود شخصية البطل الضحية ، كالحـلاج ، والبطـل المأساوى ، كالحسين ، والبطل الجوال ، كالسندباد ، والبطل الفردى المغامر كصقر قريش ، كما برزت نماذج عليا لا بطولية للطاغية والخائن والمنغمس فى الملذات •

وقد أقامت معالجتهم الاسطورية للتاريخ والماضى وشائج متينـة بين الفتـرات الزمنية المختلفة ، وكشفت عن العلاقات الثابتة بين النماذج المختلفة عبر الزمن لتمنح المثال والانذار فى آن واحد •

---

(1) « الدنيا الميتة » **ديوانـه** ، ص 483

(2) « الى الشعب » **ديوانـه** ، ص 430

(3) « الى الشعب » **ديوانـه** ، ص 436

الماضي القريب والماضي الشخصي :

غير ان ذاكرة الشابي احتفظت بألق ماضيه الشخصي واحزانه • ومنذ حداثته بدأت الذكريات تعني له شيئا مهمـا • وبتلك الكآبـة المبهمـة التي رافقـت الرومانسيين ، لا سيما قبل نضجهم الفني والعاطفي ، راح الشابي يبكي امسه الذي ضاع منه ، ويرثي لسعادة حب شعر بأنها قد انفلتت منه الى الابد • كان هذا في بعض قصائده قبل ان يكتشف ابعاد طبيعته الفنية وقدرته العجيبة على السعادة وبلوغ النشوة والامتلاء • ولكنه في النهاية ، عرف الامرين وعاناهما معا في فترات متراوحة احيانا ، فاقترن الماضي الشخصي القريب بأطياف سعادة هاربة استحقت من الشاعر الحزن والرثاء ، بينما انحصرت سعادته في اللحظة الطارئة ذات الحضور اللازمني ، وسنجيء على هذه التجربة بعد قليـل • امـا احتفال الشابي بالماضي القريب فهو احتفال من لا يستطيع ان ينسى الايـام التي تمتع بها والايام التي خسرها ، وكان يعود الى هذه الذكريات كلما شكا خواء في روحه ، وجدبا في تجربته الحاضرة •

ان الطبيعة لا تحب الفراغ ، فكان قلبه ، كلما افتقد الحب « ماست » الذكريات في ظلمة نفس الشاعر(1) (التعبير للشاعر)،وأمعن تلفتا الى الماضي القريب الذي استقر في خياله رمزا للبراءة والحرية والمحبة والانسجـــام (2) • وفي لحظات كهذه كان يشعر بأن حياته حالت « كأعماق الكهوف الواجمة»(3) فقد فرق الموت « زوجي الطائر » الغريدين ، وجرفت « يد المنون » امسه « البعيـد المقهـور » •

ان تكرار نغم الرثاء لهذا الحب اليافع انما يكشف عن حقيقة مؤلمة : هي ان الحاضر ، يوم كتب هذه القصائد ، كان خاليا من الحب ، جافا جامدا باردا ، يتعلق بأهداب ماض ساذج • ان هذه المحبات اليافعة لا تتسلـط عـلى القلـب لو أن صاحبها عاش حياة طبيعية متكاملة وتدرج في تجربـة الحـب حسب نامـوس الطبيعة ومسيرتها المفطورة•أما عندما يظل هذا الحب الصغير مصباحا قدسيا يضيء الحاضر ، فانه يكشف عيوبه وفقره ونقصانه ، ويؤكد بأن البحث الدائب

---

(1) « أيهـا الليل » ــ ديوانـه ، ص 146 •

(2) اقرأ قصيدته « الجنة الضائعة » ، ديوانه ، ص 261 ــ 267 •

(3) « جدول الحب بين الامس واليوم » ، ديوانـه ، ص 152 •

فى قلب الشاعر عن الحب،وهو بحث منبثق من أعماق الموقف الرومانى، قد انتهى بالشاعر الى طرق مسدودة ، فانقلب راجعا الى ماض ثابت لا يتحول لان الموت اقتنصه فى حلاوته وبراءته الاولى قبل ان تبدأ عملية التغيـر المحتومـة بتحويله وتشويهه (1) ٠

وبقصائد كهذه ، يكرس شعره الحب كالجوهر الذى لا يقهر ، ولذا فان الشاعر يتغلب على هجوم الزمن بتذكره لساعات محبوبة مضيئة ٠ واذ يتدرج الزمن الآلى فى مسيرته المتعاقبة ، تبرز هذه الساعات « البروستية » وتستعيد حيويتهـا ونضارتها لتخلد الروح والحب ضد الزمن والفناء ٠

وتشترك طفولة الشاعر مع هذا الحب المبكر فىجعل الماضى الشخصى زمنـا سعيدا لا ينسى ، فهى « حقبة شعرية ٠٠٠ بدموعها وسرورها وطموحهـا وغرورها » لا تعرف » الكآبة والتعاسة والعذاب » (2) ٠

ان هذا الماضى الشخصى الدائم الحضور فىنفسه منأهم المظاهر التىتصف علاقته بالزمن ، ولعلها تميزه عن عدد غير قليل من الشعراء المعاصرين (3) ٠ لقد غلبت على الشعر المعاصر ذكريات الماضى الجماعى واصبح الشاعر الحديث منذ الخمسينات يشعر بأن عليه ان يقيم الرابطة الدائمة مع الماضـى الجماعـى القريب ، لان نسيان هذا الماضى معناه اسقاط الحقوق القومية المهضومة واسدال الستارة النهائية على المآسى والانكسارات التى أصابت الامة فى العقود الاخيرة ٠ وهذا ما لا يستطيعه الشاعر أبدا ، فهو يعيش فى زمن حرج شديد الخطورة، وعليه ان يكون جزءا من الحركة العامة التى أصبحت تنبض بها الارض العربية ٠

---

(1) قصيدة « **أنا أبكيك للحب** » (والمخاطب هو الماضى) تكشف هذا الفراغ العاطفى فى نفس الشاعر ، نظمها فى سبتمبر 1931 وفيها يرثى الماضى لانه رعى الحب الذى كان « يملأ الدنيا وينسـج الاحـلام ٠٠ بأضـواء الحياة » ، **ديوانه** ، ص 296 ـ 298 ٠

(2) « **الطفولة** » ، « **ديوانه** » ، ص 162 ـ 163 ، والابيات فى ص 163 ٠

(3) كان السياب اكثر الشعراء المعاصرين استعادة وتصويرا لذكريات طفولته ومحباته المبكرة ٠ ولكن علينا ان نذكر انه لم يقف من ماضيه الشخصـى هذا الموقفالمستعيد المتأمل الا عندما استسلم للمرض وقبع فى سريره منفيا عن الحياة العامة وعن الحاضر المعاش ، وحيدا مع نفسه وذكرياته ٠

. اما في عصر الشابي ، فقد كان الموقف الشعري الرومانسي اقل انهماكا بالحياة العامة . وانه لبرهان على عبقرية الشابي وامتداد افقه انه استطاع ان يجمع الموقفين معا : موقف الشاهد على عصره ، وموقف الامين على ذكرياته الخاصة . اما الماضي الجماعي القريب فهو قليل الاحتفاء به .

الزمن وعنصر التغير

ان الذاكرة كالطبيعة تحمل بذورها في قلبها وتظل قادرة على خلق نفسها من جديد . انها كايقاع الطبيعة ، تتميز بالاعادة والتكرار وتضمن الاستمرارية وبعث الحياة في كل ما اعتبره الشاعر حيويا وذا قيمة في الماضي .

وأول ما تواجهه الذاكرة هو عنصر التغير في الحياة الانسانية ، فهي التي تبعث الذكريات الماضية التي انتهت بالموت او الفراق او بمحض مرور الزمن ، اى بالتغير . ويقف الشابي ازاء عنصر التغير في الطبيعة والحياة مواقف متعددة تشير من جديد الى تلك الشخصية الكثيرة الجوانب التي جمعت المتناقضات دون ان تغزوها الفوضى او يدخلها التشويش .

ان رؤيا الشابي لمرور الزمن جمعت بين الرؤيا الافقية والرؤيا الدورية — ففي نظرته الافقية وجد عنصر التغير في الزمن فاجعا ، فالاماني لا تظل كما هي بل « تتراماها الرياح الجوائب » (١) ويتلقفها « سيل القضاء والنوائب » (١) فتصير « عفاء » (١) والحياة التي هي « قيثارة الله » والبشر الذين هم « الحانها » انما تدفنهم جميعهم «مغاور الليل» (2)، والموت، والجمال والشباب يذبلهما الدهر (3) وتفنيهما الايام التي تسقى عاشقها الخمر ثم تطرده ، كما تفعل العاهر . الشابي يقف وقوفا مأساويا ازاء هذا التغير في الحياة ، وهو تغير يحس به بحدة اذ يواجه تعاسة همومه الشخصية التي جعلته ينحدر من الافق ترابا الى صميم الوادي ، حسب تعبيره :

---

(١) « من حديث الشيوخ » ، **ديوانه** ، ص 73 — 74 .

(2) « الحياة » ، **ديوانه** ، ص 78

(3) « الجمال المنشود » ، **ديوانه** ، ص 270

لم اجد في الوجود الا شقاء سرمديا ولذة مضمحلة
واماني يغرق الدمع احلاها ويفنى يم الزمان صداها
واناشيد ياكل اللهب الدامي مسراتها ويبقى أساها
ووردا تموت في قبضة الاشواك ما هذه الحياة الملة ؟ (1)

ان العنصر المأساوي في مواجهة الشاعر هنا لهذا المصير ينبثق في الدرجة الاولى من ان الشابي لا يحمل في أغلب هذه القصائد رؤيا لاستمرار الحياة بعد الموت ، فكأن الموت هو النهاية الحاسمة لكل ما يشغل الانسان ويغريه. ان الارتباط الفكري والديني بيقين الحياة الاخرى ، وحضور هذا الارتباط في ذهن الشاعر باستمرار، خليق بأن يسيطر على موقفه في لحظة الابداع ويوجهه نحو الامل والايمان والعزاء ، فتنتفي حدة الفجيعة وتتحول الى استسلام مطمئن للقدر الالهي . غير ان الشابي لم يبن الجسور الميتافيزيكية لعالم خالد بعد الموت . ولعله يتساءل احيانا عن غاية الوجود وختام الرواية (2) . ويرهقه الملل (3) فتهيمن عليه في بعض قصائده عبثية لا ترى ابعد من حدود الحياة الفردية على هذه الارض ، ويجد في الموت العلاج الوحيد عندما تتكاثف هموم الحياة :

ثم ماذا؟ هذا أنا : صرت في الدنيا بعيدا عن لهوها وغناها
في ظلام الفناء ، أدفن أيامي ولا أستطيع حتى بكاها
وزهور الحياة تهوى ، بصمت محزن ، مضجر ، على قدميا
جف سحر الحياة ، يا قلبي الباكي ، فهيا ، نجرب الموت .. هيا (4)

ولكن الشابي لا يتخذ من هذه الرؤيا موقفا نهائيا ، فهو قادر ايضا على رؤية الزمن كامتداد دائري لولبي ، يستطيع اعادة الاشياء الى منبعها ووصل النهاية ببداية جديدة. وفي حالاته الاكثر تفاؤلا، عندما يستمد قوى جديدة من محص العذاب النفسي والاغتراب الروحي الطويل ، يسعفه ادراكه للمعنى المنضوي

---

(1) « الاشواق التائهة » ، **ديوانه** ، ص 283 — 284 .
(2) — (3) « في ظل وادي الموت » ، **ديوانه** ، ص 351 .
(4) « في ظل وادي الموت » ، **ديوانه** ، ص 353 — 354 .

في تعاقب الفصول ودوران الزمن ليكشف في قصائده : « مشيئة الجبار » و « الصباح الجديد » و « ارادة الحياة » عن رؤيا شمولية مفعمة بالايمان :

فعلام الشكاة من ظلام يحول
ثم يأتي الصباح وتمر الفصول ٠٠ ؟
سوف يأتي ربيع ان تقضى ربيع (1)

ولقد كانت رؤياه هذه لدوران الزمن وعودة الربيع هي أساس الموقف الفلسفي في رسالته التي خاطب بها الشعب في قصيدته الشهيرة « ارادة الحياة » فبعد ان :

يجيء الشتاء ، شتاء الضباب ، شتاء الثلوج ، شتاء المطر
وتهوى الغصون ، وأوراقها وأزهار عهد حبيب نضر
ويفنى الجميع ، كحلم بديع ، تألق في مهجة واندثر
وتبقى البذور التي حملت ذخيرة عمر جميل ، غبر
معانقة ـ وهي تحت الضباب ، وتحت الثلوج ، وتحت المدر
لطيف الحياة الذي لا يمل ،وقلب الربيع الشذي الخضر(2)

لقد استطاع اخيرا ان ينظر الى الماضي والى المستقبل معا ، بعد ان نفد صبره واعتراه الملل من مراقبة امتداد الحياة في مسيرة افقية نحو الفناء ٠ وكان هذا الانفجار ثمرة ذلك التعطش لايجاد طريقة يقيس بها حياة الانسان تحت مجهر اللانهاية ٠ وانضوى هذا الموقف على انتصار عظيم لفكرة الخلود والاستمرار ٠ وقد بنى الشابي ايمانه بتجدد الحياة في الامة على رؤياه الثاقبة لدورة الزمن والفصول ، واضاف الى ذلك اضافة مهمة عندما جعل الارادة الانسانية قادرة على تجديد الحياة بمحض قوتها وتصميمها ـ فالتغير الدوري تغير محتوم في الطبيعة ، وتغير ارادي واع في الانسان ٠

من البديهي ان النظام الدوري الذي يتحكم بحياة الانسان انما ينتظم اجيالا متعددة حتى يكمل الدورة الواحدة ، ويستثنى الفرد ٠ غير ان الشابي استطاع

(1) « الصباح الجديد » ، **ديوانه** ، ص 397 ٠

(2) « ارادة الحياة » ، **ديوانه** ، ص 409 ـ 410 ٠

ان يتحدى هذا المصير يوم وجد ان له فى فنه ، ذلك الوحى المقدس كما يسميه ، سلما للخلود . لقد كتب « نشيد الجبار » فى نفس الفترة المتفائلة التى مر بها فى سنة 1933 ، وفى القصيدة اعلان عن ايمان جديد ورؤيا زمنية تتحدى الموت والفناء ، فهو اذا ما خمدت حياته :

وخبا لهيب الكون فى قلبى الذى قد عاش مثل الشعلة الحمراء
فانا السعيد بأننى متحول من عالم الآثام ، والبغضاء
لأذوب فى فجر الجمال السرمدى وأرتوى من منهل الاضواء (1)

عالم الآثام هذا الذى شغله وارهقه من قبل ودفع به الى سكينة الغاب الامين ، لم يعد قادرا على تهديده ، فهو يعلن بان المعاول لا تهد منكبه ، وان النار لا تأتى عليه ، اشارة الى رؤيا التجدد الابدى (هل كان واعيا لاسطورة العنقاء ؟) عبر الفن الذى لا يعرف الموت :

من جاش بالوحى المقدس قلبه لم يحتفل بحجارة الفلتاء

الحاضر والمعاصر :

نظر الشابى الى مجتمعه فوجده وجودا متعفنا ، ونظر الى معاصريه من افراد الشعب الكبير كجماعة اقتطعت من عهد مندحر ولم تزل محافظة على سيماء الماضى وروحه ، كأنها حجارة نقشت فوقها العيوب القديمة الراسخة :

عمر ميت ، وقلب خواء ودم ، لا تثيره الآلام (2)

كان الشابى يعيش فى زمن الشوق الى التغيير والتجديد ، ولكنه كان زمن زوغان القيم ايضا : ابحار ولا مرسى، ورياح تهب من كل جانب حاملة الأفكار والمواقف والقيم ، فتختلط وتصطدم دون ان تلتقى، ومجمع راسخ فى ثبوتية القديم وطمأنينته وطغيانه . وقد اسلفت فقلت بان الشابى بالرغم من احساسه المرير بتفاهة الحاضر ، لم يتمكن من ان يقيسه بالماضى وان يندب ضياع الجوهر والخير من العالم القديم ، فلم تكن الحضارة الماضية تهمه ـ بل كان كل توجهه واندفاعه هو نحو روح العصر الحديث . هذا هو المحرك وراء رفضه وغضبه وثورته الجهورية على الشعب المستسلم لخدر التقاليد ورؤى الازمنة المندحرة :

---

(1) « نشيد الجبار » ، **ديوانه** ، ص 444 .
(2) « الى الشعب » ، **ديوانه** ، ص 427 .

كل شيء يساير الزمن الماشي بعـزم حتى التـراب ودوده
كل شيء الاك [يخـاطب الشعب] حي عطـــوف
يؤنــس الكــون شوقـه ونشيــــــــده
فلمـــاذا تعيـش فـي الكــون يــا صـــاح
ومــا فيــك مــن جنــي يستفيـده ؟ (1)

موقف كهذا يشير الى التزام صميم عند الشابي بعصره وباوضاع شعبه ٠ لقد كان يعيش داخل هذا العصر ، ما في ذلك من شك ٠ ولننظر اليه وهو بعد في مطلع العقد الثالث من عمره القصير ، كيف يتفتح على هذه الرؤية الشاسعة بينما يعيش منزويا اغلب السنة في بلاد الجريد في الجنوب التونسي ، تحبسه التقاليد والواجبات الاسروية ، وتخنق انطلاقه الفني والفكري ثقافة محلية محدودة ، ويرهقه المرض والقلق والغربة حتى العياء ، فينتظر دهرا حتى يترجم له احد الاصدقاء مقالة او قصيدة او قطعة من التوراة ، ليغذي ذلك الشوق اللجوج الى الاطلاع والمعرفة والى تفهم روح الشعر المعاصر التي ادركها بغريزته الشعرية الخلاقة ، انه لحق انه عشق الغاب حلما وحقيقة ، وهرب اليه في لحظات الاعياء الجسدي والروحي ، ولكن هذه الفترات كانت مجرد هدنة تستعيد فيها النفس عافيتها والجسد قوته٠ليس في الابتعاد المؤقت عن الناس انفصال حقيقي عن روح العصر واهله ، والشابي نفسه ما كان قادرا على الخروج عن عصره لو أراد مهما صدمته حساسيته الخشنة وانغلاقه الفكري ٠ والحق انه تعذب معـه وتعذب عنه ، واشترك في قدره وحاول ان يتخطى قدره ٠ ولو انه كان خـارج عصره لما ترك اثره في عالمه من بعده وحتى اليوم فكما قال جون ستوارت ميل : « ان الرجل اذا تمتع بمزايا طيبة لا يتسم بها عصره لأنها مزايا عصر آخر ، فانه لا يستطيع أن يؤثر في عصره » ٠

رؤيـا المستقبـل في شعـر الشابـي

ليس في شعر الشابـي ولا في شعر زملائه الرومانسيين العرب ارهـاص كبير بالمستقبل كما نجد في الشعر العربي المعاصـر منذ الخمسينـات ٠ ان المستقبلية اتجاه جديد في الشعر العربي ، فالشعر الكلاسيكي (2) لم يحفل

---

(1) « الى الشعب » ، **ديوانه** ، ص 434 ٠
(2) وكان هذا هو الحال في الشعر الكلاسيكي اليوناني والروماني وحتى في شعر القرون الوسطى في اوروبا ٠

بالشاعر النبى الذى يرهص للمستقبل ، الا فيما ندر ، ولم تشغله فكرة التقدم ، فكمال الخير هو فى الحاضر ، وهو خير تحدر من امجاد ما ض طويل · وهكذا وقفت الدنيا فى الشعر الكلاسيكى على اعتاب الحاضر وقد ادارت وجهها الى الماضى وظهرها الى المستقبل ، فاليوم هو المجد والمقال ·

اما الشاعر العربى المعاصر،فانه شاعر نبوءة ورؤيا مستقبليةاكيدة،ويقوم احد اركان شعره على رؤى البعث والنشور وعودة العافية الى الامة · وقد استعان شعراء الخمسينات والستينات على تصوير هذا الايمان الجديد بأساطير البعث القديمة ، كما استندوا الى بعض القصائد المهمة فى الموروث الشعرى العربى الحديث ·

وتحتل قصيدة الشابى « ارادة الحياة » مكانا مهما فى هذا الموروث الشعرى المباشر الذى تحدر الى جيل الخمسينات · وقد انتشرت هذه القصيدة بقوة بين الناس الىمطلع الخمسينات لانهم وجدوا فيها تمجيدا للارادة الانسانيةوايمانا بقوة الشعب وهى القوة الوحيدة التى بقيت بعد ان فشلت الجيوش والهيئات الرسمية فى درء النكبة · وجرت القصيدة ولو للحظة ذلك التصدع الموجع الذى اصاب القلوب · انها قصيدة الرؤى المستقبلية الصادقة المبنية على الايمان والوثوق · تضىء بقوتها الخاصة ، ولا تزال قادرة حتى اليوم على اعادة التوازن للنفس اذا ما غزاها الحزن او الشكوك :

اذا الشعب يوما اراد الحياة فلا بد ان يستجيب القدر
ولا بد لليل ان ينجلى ولا بد للقيد ان ينكسر

لم يكن موقف الشابى دائما واثقا ومليئا بالتحدى كما كان فى هذه القصيدة فهو ايضا تعرض للحظات اليأس والشك· ولشدة تلهفه على ان تدخل بلاده الى روح العصر الحديث كان يصيبه الارهاق ونفاد الصبر كلما رأى بطء حركة التقدم · ولذا فبامكاننا ان نعتبر حتى قصائده الهجائية التى لا ترى فى الشعب الا كاهن الظلام الذى يعبد الموت (١) قصائد مستقبلية الى حد ما لأنها تتوهج فى ضوء هذه الرغبة العميقة التى ألحت عليه كل حياته الى درجة الهوس · كان الشابى فى شعره وفى نثره يقف دائما الى جانب المستقبل ·

---

(١) « الى الشعب » ، **ديوانه** ، ص 435 ·

الشابـى والمطلـق : الافتقار الى الحس الزمنى فى بعض شعره

ان الشابى الى جانب اهتمامه بعصره وتجربته المعاشة يميل فى كثيـر من الاحيان الى التأمل فى الحياة ، الى التجريدات الذهنية المطلقة • انه يحاول ان يفلسف الحياة فى عشرات القصائد ، ويؤولها فى مطلقات ثابتة متحدثـا عن السعادة والفضيلة والحب والموت ، وهذا فى جوهره اتصال بالمطلق الذى لا يكاد يتغير •• ان شعر التأمل من هذه الناحية لا يحمل مدلولات زمنية ولا يتحدث عن تجارب الحياة ومعاناتها بل عن الخلاصة الفلسفية التى يستنتجها الشاعر من هذه التجارب • انه يتحدث فيها عن الكينونة لا عن الصيرورة وعن فكرة الحياة لا عن حركة الحياة •

توقـف الزمـن فى شعـر الشابـى :

ان القصائد التى أريد ان اتحدث عنها هنا هى النقيض الكامل لقصائـد التامل • فان كان الشابى فى قصائده التأملية قد أعطى الاحكام المطلقة التى لا ترتبط فى جوهرها باى مفهوم زمنى ، فانه فى بعض قصائده الاخرى قد قطع على الزمن حركته واستمراره • هذه هى القصائد التى يعبر فيها عن تجربـة حادة يشعر بأنها أقوى من الزمن وقادرة على ان تتغلب عليه • ففى قصائد اليأس المطلق يعطينا صورة الموت الكامل وقد خيم على الدنيا ، فهاهم الناس «I» « موتى نسوا شوق الحياة » و « خبابهم لهب الوجود » (I) ودوت حولهم العـواصف والانواء فلم يضطربوا او يتألموا حتى مل نهر الزمان نفسه ايامهم الميتة (2) ، صور ناطقة لعالم ابكم عاجز توقف فيه الزمن وانحلت عنه عرى الحياة •

غير اننا فى قصائد الشابى التى تحتفل بفرحة الحياة القصوى نجد التعبير لاكمل عن توقف الزمن • ان قصائد النشوة الحقيقية والامتلاء العاطفى نـادرة ى الشعر ، وانه لشاهد على تنوع قدرة هذا الشاعر على تذوق التجارب المختلفة ن نجد فى شعره مكانا فسيحا للتجارب المتناقضة ، ان ننتقل معه من قمـــة ليأس والحزن الى سطوة الغضب والرفض ، الى ذروة الفرح والنشوة •

فى بعض هذه القصائد كقصيدة « الغاب » مثلا ، يفقد مرور الزمن عنـــده عناه ، وتكثر فيها صور الربيع الابدى الذى يتنفس خارج الفصول ليعطينـا

I) « الدنيا الميتة » ، **ديوانـه** ، ص 480 ــ 483

2) « الى الشعب » ، **ديوانـه** ، ص 426 ــ 436

احساسا بتلك الحرية الغريبة التى يعرفها الانسان عندما يتحرر فى لحظات العمر النادرة من حدود المكان والزمان ٠

وتشعر بأنه قد حول الغاب الى مكان سرمدى صباحه ومساؤه قرير وليله لا وحشة فيه ، وانه قد قلب الاشياء الواقعية الملموسة الفانية : الازهار والاشجار وطيور الغاب الى لوحات تنبض بحياة ابدية وتفقد ارتباطها بمرور الزمن الحامل للتغير والفناء ٠

غير انه فى قصيدة « الحانى السكرى » يتجاوز هذا الى التمسك باللحظة الراهنة٠انها لحظة النشوة العظيمة المحلقة ، مجسدة وممتلئة بالحيوية،تتحد فيها جميع تجارب الفرح بالحياة والحب والجمال ، وينسكب فيها الزمن ، الماضى والآتى فى لحظة وعى مكثف بالحاضر :

قد سكرنا بحبنا واكتفينا طفح الكأس فاذهبوا يا سقا
نحن نحيا فلا نريد مزيدا حسبنا ما منحتنا يا حيا
حسبنا زهرنا الذى نتنشى حسبنا كأسنا التى نترشف
ان فى ثغرنا رحيقا سماويا وفى قلبنا ربيعا مفوف

* * *

أيها الدهر ايها الزمن الجارى الى غير وجهة وقرار
ايها الكون ايها الفلك الدوار بالفجر والدجى والنهار

* * *

أيها الموت ايها القدر الاعمى قفوا حيث انتم او فسيروا
ودعونا هنا تغنى لنا الاحلام والحب والوجود الكبير

* * *

واذا ما أبيتم فاحملونا ولهيب الغرام فى شفتينا
وزهور الحياة تعبق بالعطر وبالسحر والصبا فى يدينا

سبتمبر 1933

الاكتمال هو بدء النهاية ـ هذا ما تومىء اليه القصيدة ٠ واذ تهرب اللحظة القريرة فالشاعر يمسك بها فى قصيدته الى الابد ٠ انه لا يطيق ان يرى التغير المحتوم الذى يحمله الزمن فى قلبه يغزو التجربة الممتلئة ويسلمها الى النقصان والتفسخ ، ويفضل عليه الموت ، لان الموت وحده هو الذى يستطيع ان يحمى التجربة من التغير ويحافظ عليها فى توهجها وجمالها واكتمالها ليصبح هنا هو الحامى والواهب للحياة ٠

س٠ خ٠ ج٠

نبيّ الأمنيات

شعر علي مصطفى

-ابـا القـاسم :
ويجرحنى النداءُ ، وانت تبتعدُ ،
كـأمنيـة تظل بخيبـة الوطن ،
نبيـا في دروب القهر والحرمان والمحنِ
فبعدك ، يا أمير الحرف ، أحرقنا منابرنا
وأسقطنا ضمائرنا
وجرجرْنا الذيول وراء سادتنا
فلم ينبت بقلب الشعب
من آلامـه أحـدُ ،
فأنت وبعد نصف القرن
أنت البعث والعضدُ

* * *

أتيتك من بلاد الشرق
أحمل كل أتعابي
لأسفح دمعة حرى ،
معلقة بأهدابي
وأسفح عند بابك – يا أمير الحرف –
أغنية من الوجعِ

لأني قد حملت الفقر والانسان في سفري .
وفي حلبِ ،
مررتُ على أبي الطيِّبْ
جلبتُ لك المدائح كلهـــا ،
وحضنتُ مهزلتي ،
فلا تعتب ! !
لأني لا أزال أرى بريف قريتنا ،
مواسم سفحها الأجدب .
وعند معرّة النعمان أوقفنا مطايانا
فكان اللغز يمشي في خطايانا
فلم نأبه ،
بكل شراسة الموت
وبالتقميص (1) والخلد
فلاتعتب ! !
لأني ما جلبت شقائق النعمان في سفري
فقد علمتنا أن الشعوب : «إرادة القدر»

***

أناشيد الرعاة (2) تنام بجفن مــزمارِ
فمن « توزور (3) » ينتقل الحنين الى برارينا

---

(1) التقميص : التقمص وهو العودة الى الحياة البشرية بعد الموت
(2) اناشيد الرعاة : قصيدة لابى القاسم الشابى
(3) توزور : هى بلدة الشاعر

فتسكر كل رابية ، على أنغام راعينا
كأنك كنت مثل الغيث ،
في إيماءة البرقِ
يمر على السفوح اليابسات بوجنة الشرقِ
أتيتك من بلاد الشرق ،
والأطفال يرتحلون في عينيك قافية وإنشادا
ويغتسلون بالمطر ،
ويفترشون أفئدة الى الشمسِ ،
فقد علمتهم حب الحياة ، وعزة النفسِ
وأن القيد ينكسرُ
وأن الظلم والطغيان ، خلف طلائع الاجيال ،
ينحسرُ .

***

أبا القاسم :

حملتك منذ كان الحرف ملحمة بتكويني
تعلّمناك في الصغرِ ،
نبيا مثل كل الانبياء بخاطر الشعب
وقافية هي الآمال في أنشودة الدرب
نشب ، وأنت خلف القبر مقهورُ
على الجيل الذي ما زال خلف الضفة الأخرى ،
ينام على الأساطيرِ
ويؤمن بالخرافاتِ ،

ويؤمن أن فقر الارض ،
من رب السمواتِ .

***

أبـا القـاسم :

ونارك لـم تـزل خضراء ،
في جنبي تشتعلُ
فلي وتر إلهي
بقلب الشعب يختزلُ
ولي إثمي وأحزاني ،
ولي فجر ، هو التاريخ والبطلُ .

أبـا القـاسم :

تعلمناك في النُوَبِ ،
تعلمناك أنك منبر العـرب

ع. م.

لحظة الابداع عند الشابي

بقلم الدكتور احسان عباس

لا يحدثنا الشابى كثيرا عن لحظة الابداع فى حياته الشعرية ، وهو فى حديثه عن الخيال الشعرى عند العرب يستشهد بتجارب غيره ، ولا يقف عند تجربته الذاتية فى هذا المجال ، واذا تحدث عن تصوره للشعر اكتفى بأن يقول : « **انه انتاج قريحة خصبة منتجة وخيال حي صحيح** » (1) وتدل آراؤه في الخيال عند العرب على انه كان يرى الابداع الشعرى ثمرة مباشرة لنشوة مستغرقة فى الجمال وبخاصة جمال الطبيعة . اما كيف يتأتى لتلك الثمرة ان تستكمل وجودها حتى تظهر خلقا شعريا ، فربما كان أقرب ما ينبىء عنه قوله فى احدى رسائله : «**اما انا فلا أفهم من الشعر الا انه فيض الحياة ، اى أيقظ ساعاتها وأحفلها بنوازع الفكر والشعور،وكما انالسحابة العابرة قد تسيل السيول وقد تسكب القطرات ، كذلك نفس الشاعر** » (2). ان كلمة «فيض» فى هذه العبارة تشبه التعريف الرومنطيقى للشعر عند ورد زورث حين يقول : « **انه الفيض التلقائى لمشاعر قوية** . » كما ان تشبيه عملية الخلق الشعرى بفعل السحابة يؤكد هذه التلقائية . وقد أورد الشابى هذا التشبيه دفاعا عن الاكتفاء بالابيات القليلة (القطرات) ضد من يرون ان يكون الشاعر دائما ممتد النفس (السيول) ، فكان استعماله لصورة السحابة ردا » على « تحكم الارادة » فى عملية الخلق ، ولا ريب فى ان نظرية « الفيض التلقائى » خير ما يصور انعدام تدخل الارادة على نحو يجعل كمية الماء فى السحابة وانفصال ذلك الماء عنها أمرين حتميين خاضعين لظروف تمت قبل ان تتكون السحابة . ولكن الشابى يتجاوز تلك الظروف فلا يقف عندها ولا يهمه ان يفعل ، وانما يركز بصره على السحابة نفسها ، ولا بد من أن يحس قارىء شعر

---

(1) من مقالة « الشعر » فى كتاب الاستاذ ابو القاسم كرو : « الشابى حياته وشعره » : 271 ، ط . بيروت (الطبعة الثالثة) 1960 .

(2) رسائل الشابى : 111 بتاريخ 1351/12/21 (17 أفريل 1933) .

الشابي ان نظرية « الفيض » كانت اقرب النظريات الى نفسه وطبيعته الشعرية لانها كانت تمثل جانبا كبيرا من ممارسته الذاتية ، فيما يبدو ، فتصوره لعملية الخلق انما هو تصور ذاتي محض ، لا يعنيه منه ان يكون مشابها او مغايــرا لتصورات الآخرين. ومما يؤكد هذا قول الاستاذ زين العابدين السنوسي في وصف لحظات الابداع لدى الشابي : « الشابي لم يكن يعتصر الشعر او يتطلبه ولا كان يرتجله في المناسبات ، ولكن الشعر كان يتولد في نفسه ثم ينبجس على لسانه » (1) . فتولد القصيدة في النفس ثم انبجاسها ـ دون اعتصار او تطلب ـ هو عمل السحابة في ما يفيض عنها من مـاء ، ولهـذا نفى الاستـاذ السنوسي « الاعتصار » لانه يعني كدا في الاستخراج مخالفا لطبيعة الفيض او الانبجاس ، كما نفى الارتجال لانه يدل على عدم « احتشاد » سابق لما يفيض او ينبجـــس .

ولكن هل يترتب على هذا كله أن يكون ما ينبجس من نفس الشاعر مكتمل الخلق ؟ ان طبيعة الفيض تعني أن خلق الشاعر للقصيدة ليس الا نقلا لها من حال وجودها بالقوة الى حال وجودها بالفعل ، نقلا لا يتدخل الشاعر فيه كثيرا لانه أمر يتم دون تحكم ارادي ، وهذا يعني أن القصيدة تجيء في صورة لا قبل للشاعر ازاءها باحداث اي تغيير او تبديل ، أو تقديم وتأخير ، وربما كان هذا التصور هو الذي دعا الاستاذ السنوسي الى أن يقول في الشابي : « ولا تفارقه تلك الحال حتى يستفرغ ما جاش في صدره **شعرا محكما** » (2) ، فهذا الاحكام يعني أن كل دقائق البنية في القصيدة قد استكملت ، ووضعت على نسقهـا المحتوم دون حاجة الى اعادة نظر او تنقيح. غير اننا مهما يكن ايماننا بامكان الانبجاس التلقائي ، يجب ان نأخذ القول بالاحكام النهائي أخذا تقريبيا يسمح بكثير من الاستثناءات ، ومرجعنا في ذلك شهادة الشابي نفسه ، فانه حيـن يعيب شعر أبي شادي لا يجد بدا من أن يقول : « ولكن الذي أسقط من قيمة أدبه... أنه متعجل مكثار **لا يصبر على التجويد** الذي هو عمل لا بد منه للفنان المتسامي » (3). فقوله « لا يصبر على التجويد » قد يفيد أنه يبتر عملية الخلق

---

(1) أبو القاسم الشابي : حياته وأدبه : 42 ـ 43 (تونس : 1956) وقـد اقتبسه الدكتور عمر فروخ في كتابه : الشابي شاعر الحب والحياة : 212 (الطبعة الثانية ، بيروت : 1974)

(2) المصدر السابق نفسه .

(3) رسائل الشابي : 133 .

ولا يترك للتجربة ان تنضج فى نفسه بل يجهضها قبل أوانها ، وما أظـــن الشابى قصد الى ذلك الا ان كان يعنى ان شعـر أبى شادى كان أشبه شيء بالارتجال • وقد يفيد قوله « لا يصبر على التجويد » انه لم يكن يردد النظر فى شعره ويجرى فيه يد التنقيح ، وفى هذا نفسه ما يقلل من معنى « الاحكام » المكتمل فى القصيدة أول تسطيرها • ومما يؤيد ان يكون طلب التجويد لونا من ألوان التنقيح النهائى ـ تحت سيطرة الارادة الذهنية ـ ما أخبرنا به الشابى عن نفسه فى احدى تجاربه الفذة حين نظم احدى قصائده اذ قال : « **ولم أزد عليها الا نحو بيت او بيتين وبعض تنقيحات رأيتها لا بد منها** » (1)• ذلك ما يقوله الشابى فى ما جرى عليه فى قصيدة واحدة ، وليس لنا ان نأخذ ذلك نموذجا لكل عملية خلق مارسها : وأعنى بذلك انه ان كان الفيض التلقائى فى هذه القصيدة نفسها قريبا من درجة الاكتمال ، وكان التنقيح بالنسبة اليـــه ضئيلا ، فليس يعنى ذلك ان هذا الامر كان مطردا فى سائر قصائده ، كمـا سأبين من بعد •

واحب ان اسرع الى القول ان لفظة « فيض » قد تكون ذات ايحاءات مضللة ، لانها لا تنبىء عن أية معاناة فى عملية الخلق نفسها ، بل هى توحى بالسهولة واليسر فى التدفق ، وربما كان استعمال الاستاذ السنوسى للفظة « ينبجس » (والاحسن منها « يتبجس ») أدق دلالة ، لانها تعنى انطلاقا غير مشمول بالعفوية المطلقة ، وانما فيه شيء من العلاج الذى تتطلبه لحظة الولادة • وحين يعبر الشابى عن اللحظات التى تهيمن فيها الحاجة الى انفصال القصيدة عـن النفس باسم « نوبة الشعر » ، فانه فى أغلب الظن يريد ان يشير الى الحال التى يشير اليها الصوفى ، وهى تتفاوت لدى الشعراء فحينا تكون حلما ، وحينا تكون مرحلة بين النوم واليقظة ، وحينا تكون بالعلاقة القائمة آنيا بين الشاعر وبعض المنبهات ، وتارة تكون معاناة روحية ينسى المرء فيها ان له جسدا ، او كما يقول الشاعر الانجليزى ستيفن اسبندر : « انها اختلال فى التوازن بين الجسد والعقل ولهذا السبب يحتاج المرء الى نوع من العلاقة الحسية بالعالم المادى » (2) • وحول مثل هذه الحال يقول الشابى فى احدى رسائله : « اما الآن ان شئت ان تعرف ذلك ـ فان نوبة الشعر تمتلك على عواطفى وأفكارى ، وان ربة الشعر تعزف على قيثارتها الذهبية أناشيدها بعنف هائل **ترتج لـــه**

---

(1) رسائل الشابى : 132 •

(2) The créature process. p. 106

أعصابي المرهقة ولست أدرى متى تسكن النوبة وتتوارى ربة الانشاد فـــى أفقها الغامض البعيد » (1) . ان هذه النوبة التى تعزف فيها ربة الشعر بعنف فترتج لها أعصاب الشاعر لتشير حتما الى نوع من المعاناة لدى لحظة الابداع ، ولكن يجب ألا نجردها من معناها الواسع الذى أراده الشابى وهو أن فترة من الفترات قد تملكه فيها الحاح الخلق المتواتر المتتابع ، فكان يستجيب له رغم ما قد يتعرض له من ارهاق عصبى . وهذا المعنى يتأكد اذا تذكرنا ان هذه الرسالة كتبت فى 24 فيفرى (فبراير) 1933 ، وأننا اذا عدنا الى ما سبقها وما تلاها ــ مباشرة ــ من قصائد ، وجدنا ان الشاعر عاش حقا « نوبة » مليئـــة بخصب الشاعرية ، وأنه نظم فى تلك الفترة خمسا من قصائده هى : « مـــن أغانى الرعاة » (6 فيفرى) و « أيتها الحالمة بين العواصف » (11 فيفرى) و « للتاريخ » (16 فيفرى) و « صوت من السماء » (8 مارس) و « ذكرى صباح » (17 مارس) (2) .

وحين يتأمل الدارس القصائد المذكورة يجد انه لا يملك ما يسعفه على ان يعين الحافز المباشر الذى دفع بكل قصيدة من تلك القصائد الى الوجود ، لان الشاعر لم يشر الى شىء من ذلك ، وكل ما يمكن ان تمدنا به الوثائق المتيسرة انما هو صورة جو عام غلب على طبيعة تلك السنة (أعنى سنة 1933) . فنحن نعلم ان الشابى ــ رغم المرض الذى كان يبعث فى نفسه الارق والخوف ــ قد ارتاح حينئذ الى جمال الطبيعة ارتياحا شديدا لم يحس بمثله من قبل ، وأنه كـــان يستشرف عهدا من الاطمئنان الى نوازع الشهرة ، سواء فى اتصاله بمجلة ابولو ووصول شعره الى جمهور أكبر ، او بكتابة مقدمة لديوان ابى شادى (وذلك يمثل اعترافا ذا سمة خاصة ، لا لاهمية الشاعر بل لاهمية البلد الذى ينتمى اليه) او بتخيله أن ديوانه يكاد يصبح حقيقة ملموسة يتناقلها القراء . كـــل هذه العوامل الايجابية وغيرها مما هو بسببها كانت تجعله يحس ان الشعر لديه يتدفق من ينبوع اسمه الامل ، وأن الياس وترقب الموت ووطاة الداء ، كلها أمور تغور ذلك النبع وتخمد حيوية الطاقة الشعرية ، وفى ذلك يقول لصديقه الاستاذ محمد الحليوى : « كذلك يا صديقى أكتب **حينما يهيج بقلبى روح الامل** وتطغى حوالى امواج الشباب ، ولكننى اذا رجعت الى نفسى وثابت الى اشباحى الكئيبة الدامية وقرت حوالى امواج الشباب وسكنت ألسنـــة الحياة

---

(1) رسائل الشابى : 105 .

(2) انظر الديوان : 372 ــ 394 .

الهاتفة : اذ ذاك تتراخى أجنحتي وتغشاني سكرة الموت ... فهذا الداء الذي يخايلني كل يوم وساعة بأكفان القبر وظلام الرموس ، هو وحده كاف لان يهد عزائم الاقدار » (1) . ونحن اذا طلبنا شواهد ذلك من شعره في ذلك العام وجدنا تدرجا عجيبا من الاستغراق الوادع في جمال الطبيعة ، الى الرضى الهانيء المكتفي بنعمة الحب ، الى القوة المتمثلة في تحدي الموت ودحر اليأس وإلقاء تحية الوداع ـ دون أسف ـ على الهم والاسى ، الى الايمان المتصاعد بالشعب والتوحيد بينه وبين الشاعر في ارادة الحياة . وما نكاد نربط ذلك كله ببوارق من الامل كانت تضوىء أفقه رغم الداء الذى كان يخايله كل يوم بأكفان القبر ، حتى يطالعنا الشابي ملخصا تجربته في ذلك العام (1933) كله بقوله : « أكتفي بأن أقول انه لم يمر على مثل هذا العام في كثرة الهموم والشواغل التي لا تعقب الا **الالم والعذاب** ووفرة الغم والكمد » (2). اذن أي شيء فجر ذلك الينبوع ـ وربما شهد عام 1933 أغزر نتاج للشاعر بالنسبة لسائر الاعوام ـ : أهو الامل ام تلك الهموم التي لم تعقب الا الالم والعذاب ؟ وهل يمكن ان يكون للصراع بين الحالين اثر في طاقته الشعرية ؟

يبدو لي ان التعلل بالامل لم يكن الا نشوة مثالية في أحضان الطبيعة ، وأن عنف الحياة ولد في نفس الشاعر تحديا عنيفا مماثلا ، وجنوحا الى تلك النوبة الشعرية رغم ما تصيبه به من ارهاق ، وأن السحابة لم تتكثف وتحتشد ثم تتبجس الا بعد ان ساقتها رياح قوية معنفة . حقا ان اليأس والداء وترقب الموت تغور ينبوع الشعر وتهد العزيمة ، ونسي الشابي ان يضيف : اذا استسلم الانسان لها وواجهها بخور الضعيف ، غير أنها تعجز عن ان تفعل ذلك اذا احتقب الانسان صلابة بروميتوس ووحد نفسه في الجماعة ورأى قوته من قوتها ، وهذا وحده يصور كيف استطاع الشابي ان يصهر الالم شعرا بل ان يتحول به في ذلك العام ليغدو وجها آخر من الامل المتفائل .

ذلك جو عام يقرب الصورة ولكنه لا يستطيع ان يحدد الحافز المباشر المتصل بلحظة الابداع في كل قصيدة على حدة . غير اننا مدينون للشابي بوصف دقيق للحال التي مر بها حين نظم قصيدة « نشيد الجبار » ، فهو يخبرنا ان تلك القصيدة تولدت في جواء ازمة نفسية كان يعانيها ، اذ يقول ـ ولاوزد

---

(1) رسائل الشابي : 99 (بتاريخ 22 فيفري 1933) .

(2) رسائل الشابي : 126 (بتاريخ 1933/12/8) .

كل ما قاله دون حذف او ايجاز ـ « **فانى فى ليلة من ليالى هاته الازمة النفسية المرهقة ـ ولعلها ليلة كتبت لك رسالتى الاخيرة (1) ـ نمت معذب النفس مهموم القلب ثم استيقظت نحو الساعة الواحدة بعد منتصف الليل فلجت بى الآلام وضربت بى فى كل سبيل حتى لقد كاد رأسى ينفجر ، وأحسست انى لا بد مشف على الجنون لو دام بى ذلك الحال الى الصباح ، وتطورت نفسى فى غمرة الالم ، فبعد ان كانت معذبة باكية فى ظلمة أحزانها تكاد تجن من الاسى انقلبت ثائرة هائجة واثقة من نفسها ساخرة بالقدر والداء والاعداء وكل آلام الحياة . وتحت تاثير هذه الحالة النفسية نظمت نشيد الجبار فذابت آلام نفسى وشعرت بالحرية والانطلاق كأنما القيت عن منكبى عبئا ثقيلا يهـد القوى . وقد نظمتها فى تلك الليلة ولكن نفسى لم تنهض لكتابة ولو كلمة منها ، وفى نحو الفجر نمت مرتاح النفس مطمئنا وأفقت من الغد فلم أجدنى قد نسيت منها كلمة واحدة ، فكتبتها ولم أزد عليها الا نحو بيت او بيتين وبعض تنقيحات رأيتها لا بد منها » (2) .**

وتستطيع ان تستخرج من هذا النص الفريد عدة حقائق ، منها :

1 ـ العلاقة بين القصيدة والجو الليلى . ويضيف الاستاذ السنوسى مـا يؤكد ان هذه العلاقة لم تكن دائما كذلك ، وأن ولادة القصيدة كانت تتم فى ساعة من ليل او نهار ، وفى ظل الخميلة فى حمارة القيظ او فى كوخـه عشية » (3) .

2 ـ ان الازمة النفسية المرهقة لم تكن صالحة لنظم قصيدة الا حين استحالت الى ثورة واثقة ، اى انقلبت من حالة السلب الى الوجوب .

3 ـ ان القصيدة تمت خلقا ـ او كادت ـ فى داخل النفس ، وأن الشابى كان يتمتع بذاكرة قوية ، مكنته من تدوينها دون تغيير كثير او زيادة. فاذا

---

(1) المخاطب هو الاستاذ محمد الحليوى ، والرسالة المشار اليها كتبت فى 1933/12/8 وفيها يشكو معاكسة القدر له ، ويذكر ضياع (باقـاج) له قيمته تزيد على سبعمائة فرنك ، وأنه نسى ديوانه فى الحاضرة وبعث فى طلبه ... الخ .

(2) رسائل الشابى : 132 .

(3) السنوسى : 43 .

تذكرنا ان قصيدة « نشيد الجبار » ـ كما هي في الديوان ـ جاءت في 36 بيتا تبين لنا ان اكتمال القصيدة وحفظها دون تدوين أمر فذ لافت للنظر ·

4 ـ ان الفترة التى استغرقها تحول الازمة المؤلمة الى وضع نفسى ملائم ثم نظم القصيدة وترسخها فى النفس ربما لم تتجاوز ثلاث ساعات ·

5 ـ ان عملية الخلق كانت تفريغا او تطهيرا ذابت معه الآلام وحات الراحة التى تشبه التخلص من حمل ثقيل ، وسيطر الاحساس بالاطمئنان ، ثـــم الاستسلام للنـــوم ·

6 ـ ان اعادة النظر فى القصيدة كان يمثل احتفالا بالتجويد ، واذا كانت هذه القصيدة لم تتطلب تنقيحا كثيرا ، فذلك مرده الى اعجاب الشابى بها ، لجزالة خاصة تنتظمها ، ولتعبيرها عن انتصار نفسى فى مـرحلة دقيقـة · ولكن ربما تطلب غيرها مزيدا من ترديد النظر ·

واذا قرأنا القصيدة نفسها وجدنا ان بناءها يمكن ـ على نحو ما ـ من تمثلها فى الذاكرة دون كتابة ، لانها بسيطة غير مركبة ، ذاهبة طولا ، وللوقفات فيها صوىدالة على طبيعة الانطلاق المستأنف، فاذا قلت : سأعيش رغم الداء والاعداء اتبعت ذلك بالحركات المواكبة للعيش : ارنو ، أسير ، اصغى ، ثم تحديت القدر (المسؤول عن الداء) بخطاب طويل نسبيا (اقول للقدر ···) ، ثم تحديت الجمع الناقم (وهم الاعداء) بخطاب آخر (واقول للجمع) ، ولشدة الجلبة فى القصيدة يحس القارىء وكأنها تتأدى اليه بصوتين : صوت حركتها فى النفس وصوت استعادتها حين دونت · فهل من الممكن ان نتخذ هذه القصيدة مقياسا عاما لطريقة الشابى فى الابداع ؟ للاجابة على هذا السؤال لا بد من أن أقرر أولا أن هذه الطريقة ربما لم تكن صالحة لخلق قصائد ذات أصوات متعددة أو بناء مركب،او ذات مبنى توشيحى تتغير فيه القوافى على نظام مرسوم،وخاصة حين تجرى التقفية على نظام معقد ، ومهما يكن ايماننا بقوة الذاكرة فلا بد من أن نقر بأن هذه الطريقة يستعصى عليها قصائد ذات طول متميز ، لا يمكن ان تنبجس فى كل مكتمل · تقول الشاعرة ايمى لوول فى وصف تجربتها الشعرية ـ دون ان يكون ما تقوله ملزما او صالحا لكل شاعر آخر : « قد تستغـــرق القصائد الطويلة شهورا وهى تعد فى اللاشعور ، اما القصائد القصيرة فقـــد تستغرق يوما أو لحظة أو أى مدى زمنى بينهما»(1)·ومع ذلك يمكننا ان نقول

(1) The créature process. p. 111.

مطمئنين ان الشابي قد مرن على هذه الطريقة في قصائد أخرى عدا « نشيد الجبار » ، واذا كنا لا نملك الوثائق التي تثبت ذلك ، فحسبنا ان نتبين آثار هذه الطريقة في شعره لنحكم بأنها كانت طريقته المفضلة،ومن أول ما نلاحظه ان اكثر قصائده لا يستطيل الى حد تعجز الذاكرة عن استيعابه جملة ، وان القصائد ذات الاصوات المتعددة قليلة نسبيا في ديوانه ،وانه يستعيض عن تعدد الاصوات بالصوت البديل، فبدلا من أن يتحدث هو نفسه يترك المجال للارض او الغاب او غير ذلك ، كي تحدثه أو ترد على سؤاله (1) • ويبدو أحيانا ان استجماع القصيدة دفعة واحدة لا يسمح له بالراحة الضرورية في أعقابها ولهذا تجده يعود الى الموضوع نفسه ، والنغمة نفسها ما تزال تدوى في أذنيه فيحاول بلوغ الراحة في قصيدة ثانية•ومن السهل أن يحكم القارىء بأن قصيدة « صوت من السماء» تتمة لقصيدة عنوانها « للتاريخ » (2) فقد حاول الشاعر ان يصور بؤس الشعب حين نظم الاولى ثم اذا به لا يجد الرضى في تلك القصيدة ، فيحاول ان يحقق ذلك الرضى بنظم قصيدة أخرى على الروى نفسه يصف ذلك البؤس وانعدام العدالة على نحو يفضي الى تفاؤل يبعث الراحة في نفسه • وبين القصيدتين حوالى عشرين يوما • وليست قصيدة « فلسفة الثعبان المقدس » الا تطويرا جديدا لقصيدة نظمت قبلها بعنوان « الدنيا الميتة » (3) • واحيانا تتغير النغمة ، والموضوع ما يزال يملك عليه نفسه ، فهو يقول في قصيدة « أحلام شاعر » :

ليت لى ان أعيش فى هذه الدنيـا	سعيدا بوحدتي وانفـرادي
أصرف العمر فى الجبال وفى الـ	ـغابات بين الصنوبر الميـاد
عيشة للجمال والفن أبغيها بعيـدا	عــن أمتـي وبـلادي

ثم يقول فى قصيدة « قيود الاحلام » :

وأود أن أحيـا بفكـرة شاعـر	فأرى الوجود يضيق عن أحلامي
في الغاب في الجبل البعيد عن الورى	حيث الطبيعة والجمال السامي
فأعيش فى غابى حياة كلهـا	للفن للاحـلام للالهام
لكننى لا أستطيع	.... (4)

(1) من نماذج ذلك قصيدة « ارادة الحياة » ، الديوان : 406 •

(2) الديوان : 381 ، 383 •

(3) الديوان : 480 ، 484 •

(4) الديوان : 285 ، 288 •

فالقصيدة الثانية تطوير فكرى للقصيدة الاولى : الاحلام واحدة فى القصيدة وهى الموضوع الذى يتشبث بقلب الشاعر وخياله ، ولكنه فى الثانية يصحو على الواقع فيعد الاسباب التى تحول بينه وبين تحقيق تلك الاحلام · فهذا الميل الى الاشباع فى الموضوع الواحد او الى استكماله أو الى توليد موضوع آخر منه، يمثل انطلاق موجة من موجة، فى مدى زمنى متقارب الطرفين، وأن جيشان النفس لا يستقر مع انطلاقة الاولى ، وانما يظل يستجمع لانطلاقة أخرى تبعث فى نفس الشاعر طمأنينة صحيحة ورضى مكتملا ، وهذا شىء ربما لم يحدث لو كان الشاعر يقيد خطراته ، فى المدى المتطاول ، ليبنى من تلك الشذرات قصيدة ، او لو كان يكتفى بتناول قصيدته على شكل فكرة مبهمة ، يحاول تطويرها كتابة ·

ومن أثر تلك الطريقة فى شعر الشابى ـ فيما أقدره ـ اعتماده الروابط التى تعتمد على التداعى المقيد ، لكى تسعف الذاكرة على اختزان القصيدة كالاعتماد على فعل الامر أوائل الابيات « وامرحى ، واربضى ، واسمعى » (I) او التكرار التأكيدى للاستقصاء ـ وهو كثير ـ ، او التكثيف بالتعداد من مثل قوله :

عذبة أنت كالطفولة كالاحلام كاللحن كالصباح الجديد
كالسماء الضحوك كالليلة القمراء كالورد كابتسام الوليد

أو قـولـه :

فى كل أصوات الوجود طروبها وكئيبها
ورخيمها وعنيفها وبغيضها وحبيبها
ويـراك فى صـور الطبيعة حلوهـا وذميمها
وحزينها وبهيجها وحقيرها وعظيمها

وظاهرة التكثيف فى شعر الشابى تخدم اغراضا كثيرة، ولهذا نجدها مبثوثة فى شعره على نحو متميز ، غير أنها ترتد فى الاتكاء عليها الى تلك « الحمى » التى تواكب التبجس لحظة الابداع ، وهى تشير الى ان خيال الشابى يتولد من ذاته بحسب التيار الذى يجرى فيه السياق · ولهذا لا يمكن ان يقال ان خيـال الشابى تلفيقى ـ أعنى يلفق بين المؤثرات الثقافية وتجارب الحياة اليومية ـ على مهل وأناة ، ومهما تحدث النقاد عن المؤثرات فى شعره ، كأثر جبران أو شعراء المهجر عامة او غيرهم فان تلك المؤثرات تظل لقـاء عامـا فى حـومة الرومنطيقية ، حيث تـؤدى الاستعـدادات النفسيـة المتمـاثلة الى نتـائج

(I) الديوان : 375 ·

متماثلة ، اما فى طبيعة الخيال نفسه فان تلك المؤثرات تشبه الومضات العابرة ، ولامثل على ذلك بمثلين اثنين : اولهما من قصيدة « قالت الايام » (1) حيث يقول الشاعر :

يا أيها السادر فى غيه   يا واقفا فوق حطام الجباه
مهلا ففى انات من دستهم   صوت رهيب سوف يدوى صداه

فالقارىء قد يقرن للتوبين هذه الفكرة وفكرة أبى العلاء المعرى التى عبر عنها بقوله :

خفف الوطء ما أظن أديم الارض الا من هذه الاجساد

ولكنه ما يلبث أن يدرك أن هذه رابطة عابرة وان الشابى يتحدث عن الجبار الذى يدوس جباه المظلومين ، وأن الحق أشد جبروتا ، وأنه ان أغفى ذات مرة فان فى عينيه يقظة تستشرف « الفجر » الذى لا يستطيع ان يبصره ذلك الجبار السادر فى غيه . أما المثال الثانى فانه مستوحى من قراءة قصيدة « يا رفيقى » لمخائيل نعيمة ، وقد جاء فيها : (2)

قل ولجنا قصر الحياة عراة   واقتربنا من الحياة سكارى
فاستطبنا لهاثها ولماها   وعشقنا ظلامها والنهارا
ورضعنا من ثديها ما اشتهينا   ونزعنا عن منكبيها الازارا
وغرفنا من حفنتيها كنوزا   وقطفنا من وجنتيها ثمارا
غير انا لما دعينا انطلقنا   وتركنا كما وجدنا الديارا
وخرجنا منها عراة حيارى

قل أطعنا فى كل ما قد فعلنا   صوت داع الى الوجود دعانا
فجنينا من الحياة ولكن   قد أعدنا الى الحياة جنانا
وأكلنا منها ولكن اكلنا   وشربنا لحومنا ودمانا
ومضينا ولا ندامة فينا   وتركنا كؤوسنا لسوانا
فاذا كان فى الحياة حرام   فحرام من مثلنا ان يهانا
وحرام من مثلنا أن يدانا

وكى يصح لى ما أريد استنتاجه لا بد أن أفرض أن الشابى قرأ هذه القصيدة ودارت نغمتها فى نفسه ، وليس لدى شاهد يثبت ذلك على نحو يقينى ،

---

(1) الديوان : 164 .

(2) همس الجفون : 78 ـ 79 ط. صادر ـ بيروت 1952 .

ولكن هنالك ما يدل على أن الشابي كان يعرف قصائد نعيمة ، وقد بين أحد الدارسين تأثره بقصيدته « النهر المتجمد » (١) • وأستطيع أن أقرن قصيدته « الصباح الجديد » بقصيدة نعيمة « الطمأنينة » (2) لا للاتحاد في النغمة بل للاتحاد في الروح • فاذا صح الفرض الذي وضعته استطعت أن أقول ان قصيدة « يا رفيقي » ملكت اعجاب الشابي لا بنغمتها وحسب بل بهذه الروح الفلسفية التي تشير الى الارتواء والعطاء معا، ولهذا نقل الشابي هذا الى معنى الاكتفاء بكأس الحب لا بكأس الحياة فيقصيدته «الحاني السكرى» وفيها يقول:

قد سكرنا بحبنا واكتفينا طفح الكأس فاذهبوا يا سقاة
نحن نحيا فلا نريد مزيدا حسبنا ما منحتنا يا حياة

وكانت ظلال هذه القصيدة تخيم على نفسه من قبل حين نظم قصيدته « في ظل وادي الموت » ، حيث يقول :

قد رقصنا مع الحياة طويلا وشدونا مع الشباب سنينا
وعدونا مع الليالي حفاة في شعاب الحياة حتى دمينا
وأكلنا التراب حتى مللنا ونثرنا الدموع حتى روينا

ونثرنا الاحلام والحب والآلام والياس والاسى حيث شينا

فانظر كيف كان اللقاء مع نعيمة في المرتين : مرة تحول فيها الاكتفاء الى صورة للشقاء الانساني ، في ظل الموت (وهذا ليس اكتفاء وانما هو حظ الانسان في هذه الحياة) الى حقيقة واحدة في الحياة هي الاكتفاء في ظل « الحب » ، وفي كل ذلك لم يستطع خيال الشابي الا أن يكون متسقا مع احساسه النفسي،والا يسمح للقاء مع نعيمة الا أن يكون أمرا عابرا وحسب•

تلك دراسة موجزة لبعض مميزات الخيال عند الشابي تتحمل مزيدا من التحليل بالوقوف عند نماذج أخرى من شعره ، وربما كان الاطلاع على مذكراته ـ وهو أمر لم يتح لي عند كتابة هذا البحث ـ كفيلا باضافة شيء جديد مسعف على توضيح هذه الصورة المتصلة بلحظة الابداع لديه •

إ • ع•

---

(١) هو الصديق الاستاذ خليفة التليسي في كتابه « الشابي وجبران »
(2) همس الجفون ق 78 ـ 79 ط• صادر ، بيروت 1952 •
(3) همس الجفون : 73 •

مُتْ لتعيش

شعر نور الدين صمود

يامَن رعيتَ رياضَ الشعرِ من قِدَمِ ... مازلت في الشعرِ تدعى قمة القممِ
إنَّا تلاميذُك الأبرارُ ما فَتِئَتْ ... أسماعُنا تَرتوي من روائع النغَم
أَسمعْتنا السحرَ فاخضرّتْ قصائدنا ... كالروض إن ينتعشْ بالغيثِ يبتسمِ
ولم يزلْ شعرُك الرفَّافُ في خلدي ... عذبَ المعاني رقيقَ الوحي كالحلُمِ
أعليتَ باسمك دنيا الشّعرِ في وطني ... فشعّ في الشرق مثل النورِ في الظُّلَمِ
وسارَ شعرُكَ في الآفاق منطلقا ... يسطرُ الجوّ بالاضواء كالرجمِ
في كل أذنٍ رَنينٌ من روائعه ... ثر المغاني يبث اللحنَ في كرَمِ
دنيا من السحرِ والتقديس مشرقة ... ينْسابُ فيها السَّنى كالفجرِ في إرَمِ
يا قمة الشعرِ إن الشعرَ قد تعبتْ ... أقدامه لبلوغِ المجد في القممِ
وظل يلهثُ في تشييدِ هيكله ... لكنه حصْوَةٌ في جانب الهرَمِ
الذنبُ ليس لأهل الشعر ، ياعلما ... مرفرفا في ربوع العُرْب والعجم
لكنه ذنبُ من ماتتْ ضمائرهم ... وصيّرُوك بدنيا الشعرِ كالصَّنم
وأوْصَدُوا كل بابٍ كنتَ فاتحهُ ... وكبلوا الشعرَ بالتحنيطِ والسَّقَم
وحاربوا كل تجديدٍ و موهبة ... فأغضبوك بسخف الفعل والكلمِ
قد ناصبوك العدا إذْ كنتَ بينهُمُو ... وقاتلوك بسيفٍ باترٍ خذِمِ
تحجرُوا في عصورِ الدهرِ أجمعها ... وحاربوا الحيِ بالنيرانِ والحممِ
لكنه إن قضَى ، أضْحى لهم صنما ... يقدمون له القُربانَ في نَدمِ
إن الذين أماتوا الأنبياء غدَوْا ... بعدَ المماتِ لهم من أطوَعِ الخدمِ
هم ينكرون جهود الحيّ بينهمو ... إذ أطفؤُوا كل نورٍ قاهرِ الظلمِ
فإن يمتْ ملؤُوا الدنيا بأجمعها ... عن كلمةٍ خطّها في الطِّرْس بالقلمِ

وقدسُوه وهَاموا في روَائعِــــه   وعظموه كَفعلِ الجنْد بالعلــــم
هُم كالتماسيح إذ تبكي فريستهَـــا   وتستلذ بمَا تبدي منَ الألـــــم
قد حاربوا كل من تاقتْ مواهبـه   إلى المعَالـي بعزمٍ غيـرِ مُنهزِمِ
وأنشبوا فيــه أظفارا مــذبَّبــة   مثل الذئــابِ متى تسْطو على الغنم
لأنهم جهلوا – ياويحَ جهلهـــمُ   أن السُّفوحَ مكـانُ النقص في العلم
وهل تضيقُ بألفِ قمةٌ سَمَقَتْ   وطاولتْ مفرقَ الجوزاءِ والسُّدُم؟
كمْ قمة حطموها حينما آرتفعتْ   ومرغوها وداسوا المجدَ بالقـــدم
لكـنهم ألَّهُوها حينما انكسرتْ   وأدرجتْ في رحابِ الموتِ والعدَم
ياأيهَا الحيُّ في أبناءِ جلْدَتـــه   متْ إن أردتَ حياة في ذرَى النعم
ياأيها الحي في أكنافِ مـوطنـه   مُت يارفيقي فإن العيشَ للرمـــم
وسوفَ ترثيك أجيالٌ بـأجمعهـا   وسوفَ تبكي بدمع غيرِ مُـكتتَم
في مهرجان له في الكون ألفُ صدى   تطيرُ روعته في مسمعِ الأمـــم
ياأيها المتشهِّي تمرَة نضِجَـتْ   إن مت يأتوك بالعرْجون في كرم
ياأيها الشاعرُ المهضومُ جَانبُـهُ   كنْ مثل (شاعرنا) واصبرْ على الألم
وقارِع الناس والاقدارَ مبتسمـــا   واسخرْ بما شرعوا من بائد النظُم
وآكتبْ خلودك في الدنيا ، كما كتبتْ   سحبُ السماء على الآكام بالديَم
غــدا تغنى لك الدنيــا مـــرددة :   مازلتَ في الشعر تدعى قمة القمم
ياشاعرَ الخلد هبنا بعض عزمك إن   خارتْ قوانا بما في الكون من سأم
يامن علوتَ عروش الشعرِ سامقة   كالنسر تبدو رفيعَ المجد ذا شمَم
أوقدتَ روحك مثل الشمع فاحترقتْ   من أجل إعلاء ما في الكون من قيَم
عش في سمائك عملاقا وكن أبـــدا   في عالم الشعرِ مثـل المفرد العلم
واترك بني الأرضِ وآسخرْ من مطامحهم فلم تزل في الأعالي عالي الهمـــم
وصرْحُ مجدك في الآفاق منتصبٌ   يبقى مدى الدهرِ صرحا غيرَمنهدم
الأربعون مضتْ والخلدُ يكنُفُهـا   وشعرُك الغض لم يتعبْ من الهرم
مماتُ بعض الورى في عيشهم ، ولقد يحيا بنُو المجد يوم الموتِ والعدم .

من الغربة إلى الثورة
الغربة في أدب الشابي
مفهومها وأبعادها
بقلم أحمد خالد

إذا تعمقت فى دراسة أدب جيل الثلث الاول لهذا القرن بتونس وخاصة الشعر تبينت انه عبر عن الغربة لكثرة ما ورد فيه من المفردات الدالة على الاغتراب والحيرة والتساؤل القلق ·

ولو قمت باحصاء معانى الغربة فى ديوان « أغانى الحياة » لأبى القاسم الشابى لهالتك وفرتها وادركت ان الشعور بالاغتراب مقيم على أشده فى نفسه بارز كل البروز فى شعره ونثره · ألا ترى انه اختار لعديد من قصائده عناوين توحى اليك بصورة المغترب الطريد الشريد مثل « الاشواق التائهة » (1) و « أغانى التائه » (2) و « الى قلبى التائه » (3) و « النبى المجهول » (4) وأسمعك فى « صوت تائه » (5) هذه الصيحة المشحونة بأشجان الغربة :

« شردت عن وطنى الجميل أنا الشـ ـقى فعشت مشطور الفؤاد يتيما »
فى غربة روحية ملعونة أشواقها تقضى عطاشا هيما »

وتفهم من ذينك البيتين ومن القصائد التى ذكرت لك عناوينها ان شعور الشابى بالتمزق والضياع يبرز أولا صورة « غربة روحية » حاول الشاعر ان يتخلص منها برحلة الخيال الى فردوس مفقود عن طريق التجربة الصوفية فتأثر

---

(1) أبو القاسم الشابى « أغانى الحياة » ط· الدار التونسية للنشر 1970 ص 168 ·
(2) « أغانى الحياة » ص 132 ·
(3) نفس المرجع ص 134 ·
(4) نفس المرجع ص 149 ·
(5) نفس المرجع ص 119 ·

بفكرة الخطيئة الاولى ثم بفكرة الاسراء والمعراج عندما قص محنته الكونية المتمثلة فى مأساة سقوط نفسه من عالمها السماوى وحلولها فى سجن العالم الترابى فقابل بين سعادتها فى عالم ما قبل الولادة او « صميم الحياة » وواقعها الارضى المرير او « صميم الوادى » كما فى اصطلاح الشاعر وحن الى جنته الضائعة ورسمها بلمسات ايحائية رمزية منغمة يطربك جو سمفونيتها بتعاقب الروائح العبقة والالوان الساحرة والانغام المعسولة التى توحى بها لوحاته الشعرية كما فى هذه المناجاة لصميم الحياة من قصيد « الاشواق التائهة » حيث يتخيل الشابى نفسه عطرا يرف فوق الورود يترشف الضياء وينتشى بنشيد الخلود :

« يا صميم الحياة · أين أغانيك   فتحت النجوم يصغى مشوقك »
« كنت فى فجرك الموشح بالاحلام   عطرا يرف فوق ورودك »
« حالما ينهل الضياء ويصغى   لك فى نشوة بوحى نشيدك »

هكذا تصور الشابى حياته الاولى التى سبقت نزول الحطب به واكتساح الظلام نور فجره فى صميم « الحياة » وانحدار نفسه من عالمها السرمدى الى شرك الجسد كما فى الاسطورة الافلاطونية وفى قصيد « النفس » للفيلسوف الاشراقى ابن سينا فاذا نفس الشابى اوراق متبددة من ذابلات الورود وضباب من الشذى يتلاشى بين ظلام الوجود وصمته · وقد تصور الشاعر حاضره المأسوى فى وادى غربة ملىء بالآلام وفى سجن ود لو يستطيع ان يخلص منه نفسه المعذبة التى ينخر فيها القلق · فاقرأ له هذه الابيات لمزيد معرفة مأساته الكونية كما تخيلها :

« ثم جاء الدجى فأمسيت اوراقا   بددا من ذابلات الورود »
« وضبابا من الشذى يتلاشى   بين هول الدجى وصمت الوجود »
« وانقضى الفجر فانحدرت من الافق   ترابا الى صميم الوادى »
يا صميم الحياة كم أنا فى الدنيا   غريب أشقى بغربة نفسى »
« فى وجود مكبل بقيود   تائه فى ظلام شك ونحس »

ايقنت الان ان الشابى يشكو غربة معنوية روحية ينشد من ورائها حياة مثلى يفتقدها فى واقعه وما ذاك الا البيئة التونسية بسلبياتها التى لم يستطع الشاعر ان يتكيف معها كل التكيف فى الثلاثينات وفى بداية الاربعينات فجنح الى الهجرة الروحية وتعلقت همته ببيئة اخرى مثالية يحيا فيها بروحه ويحلق

فيها بخياله ووجد في الحب احيانا ملجأ من الاغتراب فاعتصم بالمرأة الحسناء من شقوته واعتبرها منقذته من محنته الكونية كما بينته في دراسة اخرى بعنوان « الشابي والمرأة » بمناسبة الذكرى الثلاثين لوفاته . (1)

وما قصدي في هذا المقام العودة الى نفس ذلك الموضوع وانما التنبيه الى مفهوم جديد للغربة يجعل لأدب الشابي مذاقا خاصا ويعطيه أبعادا عصرية إذ قد يتبادر الى ذهنك ان شاعرنا القومي هرب من واقع بلاده ليعيش في برجه العاجي ونسى هموم شعبه ليتعشق ذاته كما في قوله من قصيد « أحلام شاعر » (2) :

« ليس لي من شواغل العيش مايصرف نفسي عن استماع فؤادي »
« عيشة للجمال والفن أبغيها بعيدا عن امتي وبلادي »
« لا أعني نفسي بأحزان شعبي فهو حي يعيش عيش الجماد »

وفي الحقيقة وردت تلك الابيات بعد أمنية تصنعها الشاعر لاثارة شعبه وتعمدها لتحريك سواكنه وقصدها لشحذ سمعه لنداء المستنهض فلم تكن احزانه « سيزيفية » كمن لا يرى الا ذاته وانما كانت احزانا ممزوجة بأمل تجاوز الواقع الاليم ، ويعتبر صاحبها من أدباء الفداء الفكري اذ تحمل مسؤولية المثقف الحق المؤمن بـ « رسالة الدنيا » وهي عنده رسالة الحرية ومقاومة الاستبداد ومصارعة قوى الشر والظلام مثلما فعل « بروميثيوس » الذي حمل في الاسطورة اليونانية النار من الالهة الى البشرية فمكنها من طي مراحل جديدة في تاريخها الحضاري ونقلها من العصر النباتي الى عصر النار وضحى من أجل ذلك بنفسه فنزل عليه عقاب الالهة فشد الى صخرة بالسلاسل وانقض عليه صقر ينقر كبده ويمزق أحشاءه . ويتقمص الشابي شخصية « بروميثيوس » في قصيد له بعنوان « نشيد الجبار » (او هكذا غنى بروميثيوس) (3) مؤرخ في يوم 15 ديسمبر 1933 فيصدع بصيحة الحر ويجهر بارادة الحياة التي تحرك المشلول وتنعش محطم العزيمة :

---

(1) أحمد خالد « شخصيات وتيارات » فصل الشابي والمرأة . مطبعة أحمد الشلي ـ سوسة 1970 ص 89 ـ 108 .

(2) ديوان أغاني الحياة أحلام شاعر ص 171 .

(3) « أغاني الحياة » نشيد الجبار ص 256 ـ 258 .

« ساعيش رغم الــداء والاعــداء — كالنسـر فـوق القمـة الشمـــاء »
« أرنـو الى الشمس المضيئة هازئــا — بالسحـب والامطـار والانـــــواء »
« لا أرمــق الظـل الكئيـب ولا أرى — مـا فـي قـرار الهـوة السـوداء »
« وأقول للقدر الذى لا ينثنـــــى — عن حرب آمالى بكل بـــــلاء »
« لا يطفىء اللهب المؤجـج فى دمــى — مـوج الاسـى وعـواطف الارزاء »

وفى « أغانى الحياة » تكثر التعبيرات الرمزيـة عن تأزم واقـع اوجتماعـى وسياسى واقتصادى وثقافى صدم الشابى فتألم منه وأحس بالغربة فأعطاها تارة ابعادا روحية شبيهة بأبعاد التجربة الصوفية وجهر تارة بدوافعها الحقيقية فذكر الظروف السياسيـة والاجتماعيـة والفكريـة التى كان لها أثر فى أدب الاغتراب عنده سواء فى نثره او فى شعره ٠

تألم أولا من تناسى الناس أدبه ومن اهمالهم عبقريته وفنه فى بيئة ثقافية استحوذ عليها المقلدون فاعترفوا بامارة الشعر لتونسى واحد آنذاك هو الشاذلى خزندار الذى لم يكن ، يفهم من شعر أبى القاسم الشابى شيئا (I) حسب اعتراف أحد اصدقاء هذا الشاعر فلا عجب ان يعلل محمد الحليوى دوام الصلة بينه وبين صديقه ابى القاسم الشابى عن طريق المراسلة بتعاطف اضطـرارى فرضته عليهما غربة فكرية اوجدتها البيئة الثقافية التونسية المتعلقة زمنئـذ بالقديم الرافضة للجديد ٠ وكان تعاطفهما طبيعيا مع جبران لقرابة تجمع بينهما وبينه فى الشعور بأشجان الغربة الفكرية وان اختلف سببها فى أدبهما وفى أدبه اذ كان المهجر الامريكى فى أصل نشأتها عند جبران فى حين لـم يغـادر الشابى والحليوى وطنهما ٠ واليك ما كتبه الحليوى فى هذا الموضوع :

« كلانا كان فى غربة روحية٠ كان هو (أى الشابى) فى قرية الشابية وأنا فى قرية بنى خلاد ٠ وكنا نحس بالحاجة الى التعاطف وليس له فى قريته من يعاطفه ويفهم روحه ويستمع الى أحاديث نفسه ٠ وكانت اغلب صحـف ذلـك الوقت رجعية مناهضة للأدب الحديث لا تفتح صدرها للشبـان المجدديـن ولا

(I) راجع أبو القاسم الشابى « مذكرات » ط٠ الدار التونسية للنشر 1966 ص 35 ٠

ترحب بأفكارهم وأساليبهم « الجبرانية » فكنا نتبادل فيما بيننا الآراء والاخبار الأدبية » (1) ٠

وفى تلك البيئة الثقافية التقليدية تضايق الشابي من الجامدين وسماهم بالكناية ازدراء لهم فى «رسائله» (2) وفى «الخيال الشعرى عند العرب» (3) :

« اصناما خشبية » و « أحلاس الجمود » و « عباد الموت » و « أمساخ القديم » و « أصحاب الضغط والحجر... يلبسون لبوس الوطنية ويتعممون الدين » و « ويؤثرون الحياة فى أكناف الدهور الغابرة » ٠

لا تعجب من قساوة الشابي على الجامدين لانها قساوة واجه بها الشاعر خصوما متشددين فى غير الحق مع دعاة التجديد رافضين الحوار معهم منحرفين عن منهاج النقد الموضوعى فى مناقشة آرائهم ومؤلفاتهم مستسهلين محض السباب فى الحكم عليهم مستعملين «سلاح الدس والتضليل واتهام كل من لم يكن من رهطهم بالالحاد والمروق والتجديد » (4) ، كما فعلوا تماما مع الشابي عقب القائه بيانه الادبى « الخيال الشعرى عند العرب » على مسامعهم بقاعة الخلدونية فى سنة 1929 (5) وكذلك مع صديقه الحداد فى سنة 1930 عقب صدور

---

(1) من مقدمة « رسائل الشابي » منشورات دار المغرب العربي ـ تونس 1966 ص 12 ٠

(2) راجع مثلا فى « رسائل الشابي » الرسالة السادسة ص 39 والرسالة الثانية عشرة ص 63 ٠

(3) الشابي « الخيال الشعرى عند العرب » ط٠ الشركة القومية للنشر والتوزيع ـ تونس ـ راجع خاصة ص 15 وص 107 ٠

(4) « رسائل الشابي » ص 83 ٠

(5) أ ـ محمد الصالح المهيدى «الخيال الشعرى عند العرب» فصل فى مجلة « الندوة » ـ تونس أكتوبر 1953 ـ السنة الاولى ص 17 ٠
ب ـ محيى الدين القليبى « النقد والتأليف عندنا » مجلة « العالم الادبى » ـ تونس ـ جانفى 1930 ٠
ج ـ محيى الدين القليبى « الخيال الشعرى عند العرب » مجلة « العالم الادبى » ماى 1930 ٠

كتبه «امرأتنا فى الشريعة والمجتمع» (1) المتضمن مشروعا اصلاحيا يستهدف ترقية المرأة التونسية (2) ٠

والى جانب ذلك الصنف من الادباء المقلدين اهل الملق من رجال الفكر الذين تخاذلوا عن مسؤولية القيادة الفكرية فعاشوا على « رمم القديم » واذا كانت لهم مواهب تمسحوا بها على الاعتاب فكان الشابى « الحساس » نابتيا بينهم مثل النبات الغريب فى أرض الغربة ٠ أليس هو القائل فى قصيده « الدنيا الميتة » (3) ؟ :

الشاعر الموهوب يهرق فنه ... هدرا على الاقدام والاعتاب
ويعيش فى كون عقيم ميت ... قد شيدته غباوة الاحقاب
والعالم النحرير ينفق عمره ... فى فهم ألفاظ ودرس كتاب
يحيا على رمم القديم المجتوى ... كالدود فى حمم الرماد الخابى
والشعب بينهما قطيع ضائع ... دنياه دنيا ماكل وشراب
الويل للحساس فى دنياهم ... ماذا يلاقى من أسى وعذاب

هذه غربة فكرية ذاق مرارتها أديب لم يعترف له الادباء المقلدون والمتملقون بعبقريته ولم يبوئوه فى بيئته الثقافية المكان اللائق به وان عظم شأنه فى عين زعيم مدرسة أدبية تجديدية بالمشرق هو أحمد زكى أبو شادى الذى رحب بالشابى فى مجلة « أبولو » واصطفاه من بين الادباء ليقدم له ديوانه « الينبوع » ونشر له العديد من القصائد(4) فسارت فى المشرق سيرورة كبرى وتأثر بها

---

(1) الطاهر الحداد « امرأتنا فى الشريعة والمجتمع » طبعة أولى – تونس 1930 وطبعة ثانية بالدار التونسية للنشر سنة 1972 ٠

(2) أحمد خالد « الطاهر الحداد والبيئة التونسية فى الثلث الاول من القرن العشرين » الدار التونسية للنشر 1967 ٠

(3) « أغانى الحياة » ص 274 – 275 ٠

(4) نشر لأبى القاسم فى المجلد الاول من مجلة أبولو القصائد التالية «صلوات فى هيكل الحب » و « السعادة » و «الاشواق التائهه» و «الجنة الضائعة» و « انا ابكيك للحب » و « الابد الصغير » ٠ وفى المجلد الثانى « قلب الام » و « فى ظل وادى الموت » و « الصباح الجديد » و « الحانى السكرى »

الادباء مثلما تأثر بها عبد المعطى الهمشرى فى قصيدته «الى جتا الفاتنة» (1).

لزم الشابى « النبى المجهول » فى بيئته الثقافية شعور عميق بالضياع بين جامدين قد احتلوا مكانا فى الادب « يجب ان يحتله الاحياء الذين يعرفون كيف ينفخون فى الشعب روح الحياة والذين يعرفون كيف يعلمونه محبة الحق والقوة والجمال » (2) على حد قوله فى رسالة بعث بها الى صديقه محمد الحليوى يوم 10 أفريل 1392.

واحس الشابى ثانيا احساسا فاجعا بالغربة لانه لاحظ ان بيئته الثقافية التقليدية متخلفة زمنئذ عن التيارات الفكرية والادبية التجديدية فى المشرق خصوصا وفى العالم عموما . فلما أراد تزعم الحركة الادبية الجديدة فى بلاده تصدى له دعاة التقليد ورفضوا بيانه الادبى الذى جهر به سنة 1929 فى مسامرته « الخيال الشعرى عند العرب » وكان الزعيم السياسى محمد محيى الدين القليبى احد الناطقين بلسانهم (3) . والتفت الشاعر حوله يبحث عن أدباء « تتدفق فى دمائهم عزمات الفتوة ونخوة الشباب ونشوة الاحلام » (2) على حد قوله فوجد ثلة قليلة معجبة بعبقريته معترفة بريادته الادبية فى تونس مؤمنة مثله

و « الناس » و « الرواية الغريبة » و « أيتها الحالمة بين العواصف » « السماء » و « من أغانى الرعاة » و « الى طغاة العالم » و « الايمان بالحياة » و « نشيد الجبار » – راجع عبد العزيز الدسوقى « جماعة أبولو وأثرها فى الشعر الحديث » . ط. القاهرة 1960 ص 369 .

(1) انظر القصيدة « الى جتا الفاتنة » فى كتاب « جماعة أبولو وأثرها فى الشعر الحديث » 414 – 416 .

(2) « رسائل الشابى » ص 63 .

(3) أ – راجع مثلا محيى الدين القليبى « الخيال الشعرى عند العرب » مجلة « العالم الادبى » ماى 1930 .
ب – يقول الشابى لمحمد الحليوى : « رأيت كلمتك عن « العالم » وأنا ما كنت اتوقع منها غير ذلك . فقد كنت اعلم ان رئيس تحريره (يعنى زين العابدين السنوسى) ليس سوى آلة يديرها محيى الدين و ... ممن لف لف هذين من تلك الطائفة المرذولة » . « رسائل الشابى » ص 86 .

(4) « رسائل الشابى » ص 45 .

بوجوب « خلق الادب التونسى الجدير بالخلود » (1) وكان محمد الحليوى أحد أولئك الانصار فكتب الى صديقه ابى القاسم يوم 22 فيفرى 1930 هذا الاعتراف بزعامته : « لا شك انك ستتولى زعامة التجديد الادبى فى تونس ونكون نحن تحت لوائك » (2) .

غير ان المجددين قصروا احيانا عن بلوغ مستوى المسؤولية الادبية الجديدة التى تحملها الشابى فتحير وساءل صديقه محمد الحليوى : « ألا يحز فى قلبك وينغص عليك الحياة ان يقول عنا أبناء العالم : ان هاته الاصوات الميتة والاصداء الخافتة هى كل ما فى تونس من صيحات الحياة ؟ اما أنا فانى حين افكر فى هذا يسود الفضاء المنير أمامى وتتضايق حوالى رقعة هذا الوجود » . ثم يهيب الشابى بصديقه ان يتحمل معه مسؤولية الرسالة الادبية الجديدة بقوله :

« **لنتحمل يا صديقى كل شىء فى سبيل النهوض بتونس وآدابها ما دمنا إنما نجاهد لاحياء الوطن والرفع من شأنه بين الشعوب** » (3) .

ويظهر ان انهماك الشعب فى طلب ضرورات العيش قد صرفه عن الغـذاء الفكرى المعتبر من الكماليات فى أمة فقيرة جائعة فأحس الشابى ثالثا احساسا فاجعا بالغربة وكتب فى إحدى مذكراته « **لست والله غير طائر غريب يترنم بين قوم لا يفهمون اغانى الطيور** » (4) وكتب اليه صديقه محمد الحليوى فى رسالة له بتاريخ 30 جانفى 1933 هذه الشكوى : « أبدى لك ما عندى من اليـأس فى بعث حركة أدبية فى هذا الوقت وبين هاته الامة المسكينـة الفقيـرة التى شغلها طلب العيش عن الاشتغال بغيره » (5) .

وألح الشابى فى غير ما موضع من « رسائله » و « مذكراته » وديوانه على تعليل غربته الفكرية بتغاضى الشعب عن الرسالة التى اعتزم ان يبلغها اليه كما فى هذا الاعتراف من مذكرة يوم 7 جانفى 1930 :

---

(1) « رسائل الشابى » ص 63 .

(2) « رسائل الشابى » ص 42 .

(3) « رسائل الشابى » ص 63 ـ 64 .

(4) الشابى « مذكرات » ص 36 .

(5) « رسائل الشابى » ص 98 .

« أشعر الان اني غريب في هذا الوجود واني ما ازداد يوما في هذا العالم الا وازداد غربة بين أبناء الحياة وشعورا بمعاني هاته الغربة الاليمة .

غربة من يطوف مجاهل الارض ويجوب أقاصي المجهول ثم يأتي يتحدث الى قومه عن رحلاته البعيدة فلا يجد واحدا منهم يفهم من لغة نفسه شيئا .

غربة الشاعر الذي استيقظ قلبه في اسحار الحياة حينما تضطجع قلوب البشر على أسرة النوم الناعمة فاذا جاء الصباح وحدثهم عن مخاوف الليل واهوال الظلام وحدثهم في اناشيده عن خلجات النجوم ورفرفة الاحلام الراقصة بين التلال لم يجد من يفهم لغة قلبه ولا من يفقه أغاني روحه .

الآن ادركت انني غريب بين ابناء بلادي . وليت شعري هل يأتي ذلك اليوم الذي تعانق فيه احلامي قلوب البشر فترتل أغاني ارواح الشباب المستيقظة وتدرك حنين قلبي واشواقه أدمغة مفكرة سيخلقها المستقبل البعيد » (1) .

وتدرك من وراء تلك الشكوى المريرة ايمان الشابي بانه صاحب رسالة أدبية جديدة لا تستهدف الفن للفن وانما تستغله لبلوغ غايات انسانية يسميها الشابي « رسالة الدنيا » (2) ويعني بها بذر « إرادة الحياة » في شعبه فكانت دعوته خطرة على الجامدين الخادرين لانها ازعجتهم وكدرت نومهم كما كانت خطرة على المستبدين بأمر الشعب اذ كشفت له عن فضائحهم وحثته على عصيانهم تصريحاً وتلميحا فكانت « رسالة الدنيا » التي جهر بها الشابي تتجاوز البيان الادبي Manifeste littéraire لتنقلب بيانا سياسيا Manifeste politique كما في مسامرته « الخيال الشعري عند العرب » التي أثارت ضجة في سنة 1929 وتضايق منها المتمسكون بالقديم (3)

---

(1) الشابي « مذكرات » ص 33 .

(2) « رسائل الشابي » ص 99 .

(3) الشابي « مذكرات » ص 64 . علق الشابي على موقف المحافظين تجاه مسامرته بقوله في مذكرة 20 جانفي 1930 : « جاهرت فيها بآراء لم تسغها أفكار بعض ادعياء الادب وعدوها ثورة على الاداب العربية وجحودا لمزايا العرب .

وتطورت هاته الفكرة في نفوس الناس والفت حولها الاراجيف والاشاعات الكاذبة حتى عدها بعض الجهلة زندقة وكفرا » .

لأن الشابى أزعجهم بمثل هذا القول : « **لقد اصبحنا نتطلب ادبا جديدا نضيرا يجيش بما فى اعماقنا من حياة وشعور نقراه فنتمثل فيه خفقات قلوبنا وخطرات أرواحنا وهجسات امانينا وأحلامنا • وهذا ما لا نجده فى الادب العربى القديم • لقد اصبحنا نتطلب ادبا قويا عميقا يوافق مشاربنا ويناسب أذواقنا فى حياتنا الحاضرة بما فيها من شوق وأمل ••• لقد اصبحنا نتطلب الحياة ولكن لنعلم لنعلم قبل ذلك اننا جياع عراة ••• لعلنا ان شعرنا بفقرنا وعرانا تحركتْ فينا عوامل العزة الانسانية فطفقنا نعمل بعزم وقوة ما نستر به سواعدنا العارية ونطعم به ارواحنا الجائعة مما نحوكه بأنفسنا ونستخرجه بأيدينا من مصانع الحياة (1)** » •

تجلى لك الآن من البيان السابق ان لغربة الشابى ابعادا اجتماعية وسياسية فضلا عن دوافعها الروحية والفكرية • فلا تستعجل بعد هذا الكشف باعتبارها مجرد غربة صوفية او رومنتيقية مائعة كما يتوهم بعضهم (2) اذ ان مردها – كما يبينه « الخيال الشعرى عند العرب » وتؤكده رسائله و « مذكراته ويثبته ديوانه «أغانى الحياة» تألمه من ظروف سياسية واجتماعية وفكرية واقتصادية قاسية مر بها شعبه الفقير الجائع العارى الجاهل المستضعف فى الثلث الاول لهذا القرن فأبى له الشاعر الضيم ولم يرض له بالتخاذل والفتور فتعهد بتعليمه « ارادة الحياة » (3) وهى احسن درس فى العبادة بعد عبادة الله كما يقول عبد الرحمان الكواكبى (1849 – 1902) وناهيك به مفكرا فطنا ومصلحا جريئا جهر للمسلمين فى كتابه «طبائع الاستبداد» بأن ارادة الحياة هى «أم ناموس الاخلاق وهى ما قيل فيها تعظيما لشأنها : لو جازت عبادة غير عبادة الله لاختار العقلاء عبادة الارادة • هى تلك الصفة التى تفضل الحيوان على النبات فى تعريفه بانه متحرك بالارادة • فأسير الاستبداد الفاقد الارادة هو مسلوب حق الحيوانية فضلا عن الانسانية لانه يعمل بأمر غيره لا بارادته • » (4) ولا يستبعد ان يكون الشابى قد طالع كتاب « طبائع الاستبداد » وتأثر به ولكنه – على كل حال تجاوز رأى عبد الرحمان الكواكبى فى ارادة الحياة عندما نفى وجودها فى نفوس السـواد

(1) « الخيال الشعرى عند العرب » ص 105 – 106

(2) راجع محمد الحليوى « فى الادب التونسى » ط• الدار التونسية للنشر 1969 ص 29 •.

(3) راجع فى « أغانى الحياة » قصيد « ارادة الحياة » ص 240 – 244 •

(4) عبد الرحمان الكواكبى « طبائع الاستبداد » القاهرة بلا تاريخ •

الاعظم من بنى وطنه العائشين «بين الحفر» حسب عبارته(1) ثم أثبت وجودها في البذور النباتية الحالمة بالربيع المفجرة للارض الضاغطة عليها المندفعة من الظلام الى النور بقوة الارادة وهذا لطف تحيل لتحريك سواكن الحادرين ·

ومتى عدت الى ديوان « أغاني الحياة » وفكرت في العديد من قصائده ادركت أن الشابي يتغنى فيها بارادة الحياة وفهمت سر اختياره ذلك العنوان لمجموع أشعاره · ولو اعتمدت تواريخ قصائده المشحونة بأشجان الغربة وربطت معانيها بالارضية التاريخية للبيئة التونسية في الثلث الاول لهذا القرن لتبينت ان سياسة التجنيس والتجهيل والتفليس والفرنسة ومن ورائها الرغبة في القضاء على الشخصية التونسية وتدعيم الاستعمار التوطيني باغتصاب الارض التونسية من اهلها هي التي كانت في اصل نشأة ذلك الشعور بالاغتراب والتشرد في نفس الشابي الحساس « الشقي بحساسيته » (2) وكذلك في نفوس الادباء التونسيين الايقاظ في الثلاثينات وفي بداية الاربعينات امثال الطاهر الحداد(3) وسعيد بوبكر (4) ومحمد الحليوي (5) ومحمد البشروش(6)· وهل أدل على دوافع الاغتراب في أدب الشابي من مطولته الشعرية القصصية بعنوان « فلسفة الثعبان المقدس»(7) حيث كشف الشاعر يوم 20 أوت من سنة 1934 قبيل موته عن المكيدة التي دبرتها إدارة الحماية الفرنسية للقضاء على مقومات الشخصية التونسية وابتلاعها بسياسة الادماج · أما الثعبان المقدس فهو رمز المستعمر المستبد بحكم الشعب التونسي وبأشباهه من الشعوب المستضعفة · واما

---

(1) « أغاني الحياة » ص 240 ـ 244 ·

(2) راجع في « أغاني الحياة » النبي المجهول · ص 149 ـ 153 ·

(3) راجع فصل الطهر الحداد شاعر سياسي في كتاب «الطاهر الحداد والبيئة التونسية في الثلث الاول من القرن العشرين ط· الدار التونسية للنشر 1967 » ·

(4) راجع أحمد خالد «شخصيات وتيارات» ط· أحمد الشلي سوسة 1970· فصل سعيد بوبكر وغربة جيل ص 43 ـ 68 ·

(5) محمد الحليوى « رسائل الشابي » ·

(6) راجع رسائل محمد البشروش في كتاب « رسائل الشابي » ·

(7) « أغاني الحياة » ص 276 ـ 278 ·

الشحرور فهو رمز الشاعر المعبر عن ضمير الشعب ورمز كل انسان فطن مستبد عليه في ارضه . ويعني الشابي بفلسفة الثعبان المقدس لغة القوة المثقفة التي يزين بها ساسة الغرب للشعوب المستعمرة نفي الذات فيدعونها الى الاستكانة ويزهدونها في الدنيا ويوهمونها بان القوة خسران مبين كما في هذه النفثات المعسولة التي خاطب بها الثعبان الشحرور لخداعه وابتلاعه :

« إنـي الـه طالما عبد الـورى ظلي وخافوا لعنتي وعقابي »
« وتقدموا لي بالضحايا منهم فرحين شأن العابد الأواب »
« أفلا يسرك ان تكون ضحيتي فتحل في لحمي وفي أعصابي »
« وتكون عزما في دمي وتوهجا في نظري وحدة في نابي »
« وتذوب في روحي التي لا تنتهي وتصير بعض الوهتي وشبابي »
« اني اردت لك الخلود مؤلها في روحي الباقي على الاحقاب »

غير ان الشحرور لم يكن غرا لينخدع بمعسول كلام الثعبان فأجابه والموت يخنقه :

« لا رأي للحق الضعيف ولا صدى الرأي رأي القاهر الغلاب »
« وكذلك تتخذ المظالم منطقا عذبا لتخفي سوءة الآراب »

ان الاستبداد بشتى مظاهره السياسية والاقتصادية والفكرية والدينية زمن الاستعمار بتونس هو الذي أثر في توجيه أدب الشابي الى التعبير عن الغربة ولكن الاستبداد السياسي هو الذي شكل اكبر دوافع الاغتراب عنده فجعله يتمزق تمزقا اليما لهول الهوة التي تفصله عن وطنه رغم أنه لم يفارق أديمه . ولما كان وطنه مغتصبا منه ومن شعبه انقلب « دار غربة » معنوية يعاني فيها الشاعر وشعبه آلام الفقر وعذاب الاضطهاد كما صور الشابي ذلك « للتاريخ » (I) :

« البؤس لابن الشعب يأكل قلبه والمجد والاثراء للأغراب »
« والشعب معصوب الجفون مقسم كالشاة بين الذئب والقصاب »
« والحق مقطوع اللسان مكبل والظلم يمرح مذهب الجلباب »
« هذا قليل من حياة مريرة في دولة الانصاب والالقاب »

(I) راجع قصيدة « للتاريخ » في ديوان أغاني الحياة ص 228

ومن الوطن الغريب تاق الشابي بخياله الى « دار هجرة » توفر له الامن بعد الخوف والطمأنينة بعد الحيرة وتهيئه فكريا وروحيا للعودة الى «وطن الاستقرار» ولكن الواقع المر في وطنه السليب كان يشده شدا مهما حاول التخلص منه فظل الشاعر يعاني اسر سجنه الكبير أعني الوطن بلا حرية ولا أمن ولا اطمئنان فكان مشردا معنويا كما في قوله :

« شردت عن وطني السماوي الذي ما كان يوما واجما مغموما »
« شردت عن وطني الجميل أنا الشقي فعشت مشطور الفؤاد يتيما »
« يا أيها الساري لقد طال السرى حتام ترقب في الظلام نجوما » (1)

وكان الاسير المعنوي وما أشد عذاب الاسر الفكري اذا قارنته بعذاب الاسر المادي وراء القضبان كما يفهم من قول الشاعر :

« يا صميم الحياة كم انا في الدنيا غريب أشقى بغربة نفسي »
« في وجود مكبل بقيود تائه في ظلام شك ونحس »

وكان المهاجر المعنوي الى دار هجرة خيالية كما في هذه العينات من قصيدة « الصباح الجديد » (2) .

لم يعد لي بقاء فوق هذي البقاع
الوداع الوداع يا جبال الهموم
قد جرى زورقي في الخضم العظيم
ونشرت القلاع فالوداع الوداع

ولست متقولا على الشابي اذا صرحت بأن الوطن عنده مفهوما عصريا وهو « كل مكان ينبت العز » بأمنه وحريته . واذ عاق الاستبداد جيل الثلث الاول لهذا القرن بتونس عن التمتع بوطن ينبت العز كذلك الذي تصوره الشابي وتعلقت به همته فان ذلك الجيل عاش متمزقا غريبا وتحرك من بينه قادة الفكر

---

(1) الديوان صوت تائه ص 120 .

(2) أغاني الحياة ص 238 .

بدون تمييز بين الساسة والادباء آنذاك اذ كان يصعب التمييز بينهم (1) فرفضوا أن يكون لهم وطن بلا حياة كريمة وآمنوا مثل الشابي بأن **« لا خير فى امة عارية تكتم فقرها ولا خير فى شعب جائع يظهر الشبع ... وشر من كل ذلك امة تقتنى أثوابها من مغاور الموت ثم تخرج فى نور النهار متبججة بما تلبس من أكفان الموتى وأكسية القبور »** (2) .

واعتقد الشابى فى الثلاثينات بأن مسؤولية الاديب الحق لا تختلف عن مسؤولية السياسى . فكلتاهما « رسالة الدنيا » قبل الفن او الخطابة وكل واحدة تستهدف ايقاظ الضمائر وانعاش النفوس وتحرير الشعب من شتى أنواع الاستبداد وخدمة الانسان وبناء الحضارة . تلك هى الرسالة التى بشر بها الشابى فى أدبه فنزهه عن التملق وسخره لخدمة أمته كما يدل على ذلك قصيدة بعنوان « شعرى » (3) وهو بمثابة البيان الادبى والسياسى Manifeste littéraire et politique وقد وجد الشاعر فى قريضه متنفسا لغربته وآلام نفسه كما فى قوله :

شعرى نفاثة صدرى — إن جاش فيه شعورى
لولاه ما انجاب عنى — غيم الحياة الخطير
لا أنظم الشعر أرجو — به رضاء الامير
بمدحة أو رثاء — تهدى لرب السرير
حسبى اذا قلت شعرا — ان يرتضيه ضميرى
ما الشعر الا فضاء — يرف فيه مقالى
فيما يسر بلادى — وما يسر المعالى
لا أقرض الشعر أبغى — به اقتناص نوال
الشعر ان لم يكن فى — جماله ذا جلال
فانما هو طيف — يسعى بوادى الضلال (4)
يقضى الحياة طريدا — فى ذلة واعتزال

---

(1) راجع مثلا نضال الطاهر الحداد فى كتاب (الطاهر الحداد والبيئة التونسية فى الثلث الاول من القرن العشرين) وراجع مذكرات المنفى للطاهر صفر فى كتاب :
A. Demersman = là bas à Zarzis et maintenant. M.T.E. Tunis - 1969. p. 319.

(2) « الخيال الشعرى عند العرب » ص 106 ـ 107 .

(3) « أغانى الحياة » ص 26 ـ 27 .

(4) « أفضل هذه القراءة على الظلال » .

يكاشفك الشابى بذلك التصور الهادف لرسالة الشعر فى الابيات السابقة المنتقاه من « فن شعرى » Art poétique هو « بيان أدبى » ويؤكد لك فى غير ما مناسبة أنه لا يرضى عن الفن اذا خضع لغير سلطان الحق وخدم أغراضا لا تفى بـ « رسالة الدنيا » فيكتب الى صديقه الحليوى « **إنه لا يحزننى شىء فى هذه الدنيا أكثر مما يحزننى التفكير فى اننـى أمـوت قبل أن أؤدى رسالـة الدنيا التى أحس أننى لم أخلق لغيرها فى هذا العالم** » (1) ·

ويجهر الشابى فى « الخيال الشعرى عند العرب » برأى طريف فى الجمال اذ يعتبره بالاضافة الى كونه عماد الفن مبدأ حركيا يمهد للبشرية سبل الرقى ويمكنها من بناء صرح الحضارة · فاقرأ له هذا التعريف الطريف بالجمال :

« **الجمال هو الذى انطق شعراء الوجود بتلك الاناشيد الخالدة المتغنية بجلال الكون ومجد الحياة · والجمال هو الذى مهد للانسانيـة هذا السبيـل الـذى تضرب فيه واستثار أفكار الجبابرة من مراقد النسيان · ولو لا هذا الجمـال المنبث فى مظاهر الكون وطواياه لاتخذت الانسانية سبيلا آخر غير هذا الذى تعرفه ولحرم العالم من ثمار خالدة أنتجتها العقول** » (2) ·

فاذا تخلى الفنان عن رسالة الفن وهى عند الشابى مرادف « رسالة الدنيا » كان ذلك إيذانا بعرقلة الرقى وبضياع الشعب كما بينه الشاعر من قبل فى أبيات من قصيده « الدنيا الميتة » · واذا صدح الفنان بـ « رسالـة الدنيـا » وضاع صداحه

« **بين موتى نسوا شوق الحياة وعزمها وتحركـوا كتحـرك الانصـاب** »

فان أشجان الغربة تحل بنفسه فيتألم ويثور ويشكو كما يشكو الشابى الى صديقه « **من جمود الشعب وركود الادب وموت أحلام الاديب · وهى شكـاة لا تسمع فى هذا القطر الضائع المغمور لانه لا يفهمها الا أفراد قلائل ولا يحس بها الا الاقل ولا يتغنى بها الا بضعة قلوب غريبة هائمة فى مجاهل الاحلام** » (4) ·

---

(1) « رسائل الشابى » ص 99 ·
(2) « الخيال الشعرى » ص 44 — 45 ·
(3) « رسائل الشابى » ص 98 ·
(4) « أغانى الحياة » : قصيد « الغاب » ص 266 ـ 270 ·

أدركت الآن أسباب حيرة الشابي وعلمت خلفية قلقة في ما اعتبرناه عنده أدب الغربة فأيقنت ـ جنبك الله الشبهة ـ أن أبا القاسم ليس من البكائين دعاة الانهزامية ولا من أنصار الابراج العاجية اذ تحمل عبء « رسالة الدنيا » التي أملتها عليه المسؤولية الفكرية في الأثر الفني . أما ما يوهمك في بعض قصائده بأنه تخلى عن أمته ولاذ بخياله الى الاحلام ليعيش لمحض « الجمال والفن » (1) فانما ذلك منه لطف تحيل لا يخلو من قسوة مقصودة أراد بها أبو القاسم تحريك سواكن شعبه الذي لم يكن يعي في عديد من المناسبات صوت المستنهض فاقدم الشاعر على مخاطبته بمثل النفثات التالية من قصيدة « النبي المجهول » (2) :

« أيها الشعب ليتني كنت حطابـا	فاهـوى على الجـذوع بفأسـي »
« أنت لا تدرك الحقائق إن طافت	حواليك دون مس وجس »
« إنني ذاهب إلى الغـاب يا شعبي	لأقضي الحياة وحدي بيـأس »
« ثم أنساك ما استطعت فما أنت	بأهل لخمرتي ولكأسـي »
« أنت في الكون قوة لم تسسهـا	فكرة عبقرية ذات بـأس »
« هكذا قال شاعر نـاول الناس	رحيق الحياة في خير كـاس »
« فأشاحوا عنها ومروا غضابـا	واستخفوا به وقالوا بيـأس »
« قد اضاع الرشاد في ملعب الجن	فيا بؤسه اصيب بمـس »

ففي ظاهر تلك الابيات من « نشيد الجبار » تنافر بين الشاعر وشعبه وفي باطنها تلاحم قوي بينهما فلا عجب ان يستحق الشابي في تونس لقب الشاعر القومي اذ عبر عن ضمير الشعب في عصره ثم تجاوز بأدبه حدود المكان والزمان فضمن لنفسه الخلود بما في أدبه من أبعاد انسانية مستقبلية .

نعم لم يكن الشابي شاعرا ضبابيا منفصلا عن واقع بيئته التونسية العربية في الثلث الاول لهذا القرن ولئن حلق بخياله المجنح في أجواء الاساطير وصور لك في عديد من قصائده محنته الكونية وغربته الروحية بأسلوب قصصي رمزي فقد اتخذ الرموز احيانا وسيلة ليوحي لك بحيرة اوجدتها فيه ظروف سياسية واجتماعية وفكرية سيئة تجرع منها الشابي واحرار تونس مرارة

---

(1) « أغاني الحياة » : قصيد « احلام شاعر » ص 171 ـ 172 .

(2) « أغاني الحياة » : « نشيد الجبار » ص 256 ـ 258 .

الاستبداد وهو « داء أشد وطأة من الوباء وأكثر هولا من الحريق وأعظم تخريبا من السيل وأذل للنفوس من السؤال » (1) ٠

ومن امثلة الاستبداد السياسى والاجتماعى والاقتصادى والفكرى فى عصر الشابى نكبة محمد على الحامى زعيم الحركة العمالية فى سنة 1925 (2) واندلاع ثورة أولاد منصور فى جبلهم سنة 1926 احتجاجا على اغتصاب ادارة الحماية مساحات شاسعة من أراضى المرعى والفلاحة التابعة لهم فتدخل الجيش الفرنسى لقمع الثائرين فى سنة 1928 مثلما فعل بأهالى طبربة فى الشمال التونسى وأولاد بلواعر بالنفيضة فى الوسط التونسى سنة 1931 ٠ وقبلها بسنة انعقد فى العاصمة وفى قرطاج مؤتمر افخارستى Congrés Eucharistique

تجمع فيه نواب عن كنائس العالم من جميع القارات وكان بمثابة الحملة الصليبية التى استهدفت تنصير المسلمين والقضاء على مقومات الشخصية التونسية ٠ وتعتبر سنة 1930 نذير تاريخنا الحديث بالمغرب العربى اذ احتفل المستعمرون أثناءها بمرور مائة عام على احتلال الجزائر واستعدوا للاحتفال فى السنة الموالية بمرور خمسين عاما على انتصاب الحماية بتونس واندلعت خصومة عنيفة تجلى فيها الاستبداد الفكرى ضد الطاهر الحداد صديق الشابى الذى شد أزر داعى الاصلاح فى مشروعه الرامى الى ترقية المرأة التونسية المسلمة (3) فكانت رسائل الشابى ومذكراته ومسامرته « الخيال الشعرى عند العرب » طافحة برفض الاستبداد السياسى والاجتماعى والاقتصادى والفكرى وكان العديد من قصائد ديوانه « أغانى الحياة » رمز أمانى الشعب وأحلامه وندبة أحزانه وآلامه وعنوان طموحه الى الحياة ٠ وبأدبه الهادف عبر الشابى عن عشقه لشعبه رغم قساوة اللغة التى استعملها من حين الى آخر لتحريك سواكنه ٠ ولا أدل على التحام الشاعر بشعبه وارتباطه بتربة

---

(1) الكواكبى « طبائع الاستبداد » ٠

(2) أحمد خالد « محمد على » ط٠ الدار التونسية للنشر 1968 ٠

(3) راجع موقف الشابى فى الخصومة حول الطاهر الحداد فى كتابى « الطاهر الحداد والبيئة التونسية فى الثلث الاول من القرن العشرين » ص 369 ـ 370 ٠

آبائه وأجداده من قصيدته التي بكى بها « تونس الجميلة » (1) في ظروف نكبة محمد علي ورفاقه يوم 2 جوان سنة 1925 فأسمع شعبه هذه النفثات المشحونة بالاشجـــان :

لست أبكي لعسف ليل طويـــل أو لربـع غـدا العفـاء مراحـــه »
« إنمـا عبرتـي لخطـب ثقيـل قد عرانـا ولم نجد من أزاحـــه »
« كلمـا قـام في البـلاد خطيـب مـوقظ شعبـه يريـد صلاحـــه »
« ألبسوا روحـه قميص اضطهـاد فاتك شائك يرد جماحـــه »
« أخمـدوا صوتـه الالهـي بالعسف أماتـوا صداحـه ونواحـــه »

ثم عوض الشاعر الغزل التقليدي بعشق وطني في الابيات الموالية التي خاطب بها بلاده :

« أنـا يـا تـونس الجميلـة في لـج الهـوى قـد سبحـت أي سباحـه »
شرعتـي حبـك العميـق وانـي قـد تذوقـت مـره وقراحـــه »
« لست أنصاع للـواحي ولـو مت وقـامت علـى شبابـي المناحـــه »
« لا أبـالي وان اريقـت دمائـي فدمـاء العشـاق دومـا مباحـــه »

ولو قمنا باحصاء كلمة « الحياة » وما يرادفها في آثار الشابـي لا متدت القائمة • ولو تما دينا في ذكر اشعاره الوطنية لطال الاستعراض ويكفيك في هذا المقام تذكر عناوين قصائده السياسية التي شاد بها كل تونسي وعربي حر وأنارت نفوس المجاهدين بنور الحق واضرمت فيهـا نـار العزيمـة مثل « الصيحة » (2) و « نظرة في الحياة » (3) و « الى الطاغيـة » (4) و « النبـي المجهـول » (5) و « سر النهـوض » (6) و « للتاريـخ » (7) و « صوت من

---

(1) « أغاني الحياة » ص 24 ـ 25 •
(2) « أغاني الحياة » ص 28 ـ 29 •
(3) « أغاني الحياة » ص 35 ـ 37 •
(4) « أغاني الحياة » ص 64 ـ 65 •
(5) « أغاني الحياة » ص 149 ـ 153 •
(6) « أغاني الحياة » ص 193 •
(7) « أغاني الحياة » ص 228 •

السمـاء » (1) و « إلى الشعب » (2) و « إلى طغـاة العالم » (3) و « فلسفة الثعبان المقدس » (4) و « زئير العاصفة » (5) .

و « إرادة الحياة » (6) . وهذه القصيدة الاخيرة نظمها الشابي يوم 16 سبتمبر 1933 بعد المقابلة التي أجراها مع الزعيم الـوطني الطـاهر صفـر (1903 – 1942) (7) فأهداها الى المجاهدين التونسيين (8) والى الاحرار في كل مكان وزمان اذ تجاوز بها الحدود الاقليمية المكانية والزمانية وأكسبهـا أبعادا انسانية خالدة فرددوا منها خاصة قول الشاعر :

اذا الشعب يومـا أراد الحيــــاة فـلا بد أن يستجيـب القـــدر »
ولا بـــد لليـل أن ينجلـــــي ولا بـد للقيـــد أن ينكســـــر »

ولا تنس له خاصة قصيده الوطني الرائع « يا ابن أمي » (9) حيث خاطب يوم 20 فيفري 1929 شقيقه وليد التربة التونسية العربية الاسلامية وأهاب به أن يفك عنه الاغلال فيتحرر من ضروب الاستعباد ومن الاوهـام وينهض من سبات عهود التدلي بمثل هذه الانغام :

---

(1) « أغاني الحياة » ص 229 .
(2) « أغاني الحياة » ص 250 – 253 .
(3) « أغاني الحياة » ص 264 – 265 .
(4) « أغاني الحياة » ص 276 – 278 .
(5) « أغاني الحياة » ص 280 – 281 .
(6) « أغاني الحياة » ص 240 – 244 .
(7) راجع تعريفا بالطاهر صفر ودراسة لمذكراته في المنفى بقلم :
A. Demersman
(8) ابن الطاهر صفر أبا القاسم الشابي فيذكراه الاربعينية فذكر انه اجتمع مع الشاعر في بلدة طبرقة حينما كان أبو القاسم في حال شديـدة من الالم ودار اذ ذاك الحديث بين الشاعر والزعيم في الوطنية عما يؤملانـه للشعب التونسي من التقدم ورثى الشاعر لحال شعبه وعبر عن ذلك في قطعة شعرية نشرتها مجلة « العالم الادبي » في ديسمبر 1934 . راجع « أغاني الحياة » ص 15 .
(9) « أغاني الحياة » ص 130 – 131 .

« خلقت طليقا كطيف النسيم وحرا كنور الضحى فى سماه »
« فما لك ترضى بذل القيود وتحنى لمن كبلوك الجباه »
« ألا انهض وسر فى سبيل الحياة فمن نام لا تنتظره الحياة »
« الى النور فالنور عذب جميل الى النور فالنور ظل الاله »

لئن قاسى الشابى فى حياته قساوة الغربة المعنوية ــ وهى أشد مرارة من غربة من نأى عن وطن مادى ينبت العز لاهله ــ فان اشجان غربته وما تبعها من قلق روحى وفكرى كادا يلازمانه فى آثاره الشعرية والنثرية. ولم تكن تلك الاشجان سلبية معطلة حركية التفكير والعمل اذ نشد الشابى الحياة فى حالة الاغتراب والحيرة وتغنى بارادة الحياة ودعا شعبه الى مماشاة الزمان والى تحطيم القيود المكبلة للاجساد والعقول والارواح واختار لديوان شعره أحسن عنوان فسماه « أغانى الحياة » ورغب شعبه بقريضه فى التعلق باسباب القوة التى تفرض الحق وتجعله غلابا جبارا (1) واراهم أجمل ما في الحياة من المغريات البطولية لا الزائفة بموازنات جدلية بين النور والظلام والحركة والسكون والطموح والاستسلام واللهيب والرماد وصعود الجبال والعيش بين الحفر.

وأسمع الشابى شعبه فى « زئير العاصفة » (2) من ديوان « أغانى الحياة » نداء الثورة المدوى فى الابيات التالية :

« سيثأر للعز المحطم تاجه رجال اذا جاش الردى فهم هم »
« رجال يرون الذل عارا وسبه ولا يرهبون الموت والموت مقدم »
« وهل تعتلى الا نفوس أبيه تصدع أغلال الهوان وتحطم »

وقد يمتزج غضبه الثائر بالحيرة والشك فتقرأ له قوله : « **إن الثورة التى تعصف فى جوانب صدرى لا تهدأ ضجتها ولا يسكت هديرها ولا يخمد طغيانها العارم المريد وان المعانى لتزدحم وتتصارع فى راسى بصورة مرعبة وانني لعاجز عن أن أصور لك الآن ما يصطفق فى قلبى من ثورة وسخط وغضب وحيرة وشك وتساؤل وآلام ، ثورة على القدر وشك فى المستقبل وآلام لحظ**

---

(1) « أغانى الحياة » قالت الايام ص 92 ــ 93 .

(2) « أغانى الحياة » ص 42 .

تونس المنكوس » (1) . فلا تعجب من تأرجحه أحيانا بين شك ويقين فى حالات الجهاد الفكرى والروحى لان أحسن الايمان ما يتمخض عن أزمة الشك العابر وينقذ المجاهد من الضلال فيصدع بالحق الغلاب كماصدع به الشابى « إلى الطاغية » (2) :

« اذا التف حول الحق قوم فانه   يصرم احداث الزمان ويبرم »
« هو الحق يغفى ثم ينهض ساخطا   فيهدم ما شاد الظلام ويحطم »

وتستعر نار الثورة فى جوانب صدر الشابى فيشحن الحرف بنار الثورة ويقدمه منغما لشعبه كدرس فى الفداء وفى تحدى الارهاب » (3) كما فى قوله :

« لا عدل الا ان تعادلت القوى   وتصادم الارهاب بالارهاب »

ويكشف للمجاهين فى قصيده « سر النهوض » (4) عن نجاعة المقاومة المسلحة للتحرر من قيود الاستعباد وقهر الاستبداد :

« لا ينهض الشعب الا حين يدفعه   عزم الحياة اذا ما استيقظت فيه »
« والحب يخترق الغبراء مندفعا   الى السماء اذا هبت تناديه »
« والقيد يألفه الاموات ما لبثوا   أما الحياة فيبليها وتبليه »

ومن حالم جانح فى عديد من قصائده الى الاسلوب الايحائى الرمزى ينقلب ثائرا مدويا بصريح الوعيد فى قصيده « الى طغاة العالم » (5) الذى نظمه يوم 8 أفريل 1934 واخاله ادرك التحول الهام فى تاريخ الحركة الوطنية آنذاك وتوقع انتفاضات الشعب التونسى فى مستقبل أيامه فخاطب المستعمر بقوله :

---

(1) « رسائل الشابى » ص 64 .
(2) « أغانى الحياة » ص 64 ــ 65 .
(3) « أغانى الحياة » ص 277 .
(4) « أغانى الحياة » ص 193 .
(5) « أغانى الحياة » ص 264 ــ 265 .

« ألا أيها الظالم المستبد حبيب الظلام عدو الحياة »
سخرت بأنات شعب ضعيف وكفك مخضوبة من دماه »
« حذار فتحت الرماد اللهيب ومن يبذر الشوك يجن الجراح »
« سيجرفك السيل سيل الدماء ويأكلك العاصف المشتعل »

بمثل هذا الشعر تبوأ الشابي منزلة الشاعر القومي في بلاده واحتل مكانة مرموقة في الادب العربي وعرفته الشعوب الاجنبية بترجمات شعره (1) لانه تجاوز به حدود المكان والزمان وأكسبه ابعاد انسانية خالدة .

ويهمنا — معشر التونسيين خاصة — أنه أخلص في حب بلاده واحترق كالشمعة المشتعلة لينير السبيل لشعبه ويبدع الاعلاق الفنية ويقدمها له قربانا والتزم فيها بأداء « رسالة الدنيا » حسب تعبيره (2) وكان بها العين الكشافة التي شامت « فجر الانعتاق » من وراء الظلام في حين الغفلة وشمول الحيرة وتوالي المصائب على الفدائيين والمجاهدين من الجيل البطولي فبشرهم بالفرج بعد الشدة وانشدهم ليخفف عنهم آلام المصائب يوم 2 جوان 1925 في ظروف المؤامرة التي أطاحت بمحمد علي بطل الحركة العمالية ذات الابعاد السياسية الوطنية وبثلة من رفاقه :

« ان ذا عصر ظلمة غير أني من وراء الظلام شمت صباحه »
« ضيع الدهر مجد شعبي ولكن سترد الحياة يوما وشاحه »

ولو احصيت معاني « الامل » في آثار الشابي لتبينت ان ادبه تنغيم لاحلام جيل تواق الى فجر الانعتاق من كابوس الاستعمار والاستبداد . فها هو الشابي يعبر لصديقه محمد الحليوي في أوت 1929 عن حيرته الاليمة المزوجة بأمل تجاوز الواقع المر وترقب فجر الانعتاق .

« ساظل سائرا منتظرا صباح الحياة وساظل مرددا على هاته الغابات والكهوف أغنية الحيرة والحنين الى أن يبدو الصبح او يسكتني صراخ القبور:

يا ابن أمي ! ترى أين الصباح قد تولى العمر والفجر بعيد »
« أين نايي ؟ هل ترامته الرياح أين غابي أين محراب السجود ؟ »

---

(1) راجع مثلا : Abul Kacem Chabbi - Poèmes - traduit de l'arabe par A. Ghedira Ed. P. Seghers - Paris. 1959

(2) « رسائل الشابي » ص 99

« يا بنـات الليل قد غاض الصـداح   منذ طاشت نشوة العيش الحميـــد »
« يا ابن امـي ترى اين الصبـــاح ؟   أوراء البحـر ام خلف الوجـود ؟ »

« يـا ابن امـي ! ترى أين الصبـــاح ؟ » (1)

وكان الشابي شاعر الغربة والحنين والنور والامل حالما بمجيء منقذ يسوس الشعب « بفكرة عبقرية » حسب تعبيره (2) ويفك عنه قيود الـذل ٠ وكـان الشابي في غربته الاليمة من أولئك المفكرين النوابت الذين تجود بهم الحيـاة لشعوبهم ليكونوا ضمائرها الواعية عندما تشتبه عليهم السبل في الفتـرات الانتقالية الحاسمة منتاريخها ٠

وفي اعتقادي ان حيرته الاليمة لم تكن تلذذا بالكآبة ولا انتشاء بالغربة ولا تعطيلا لنهضة الجيل البطولي في الثلث الاول لهذا القرن بتونس وانما كانت حيرة منعشة للفكر مدعمة للذات ٠ فهي ـ على ما فيها من مذاق الكآبة ـ قـد « خالفت نظائرها » لانها « شعلة مؤججة ـ تحت رماد الكون تستعر ـ سيعلم الكون ما حقيقتها ـ ويطلع الفجر يوم تنفجر ٠ » كما وصفها الشابي (3) ٠

ولئن كان صوته خافتا لا يصل الى جميع الاذان في وطنه في الثلاثينـات واوائل الاربعينات فانه قد نفذ الى أعماق نفوس الشبان الايقاظ فحيرهم وآلمهم وقوى فيهم العزم على استعجال الخلاص من ضروب الاستبداد فكان ألم الشابي الغريب في وطنه ألم التمرد ورفض الواقع السيء والبحث عن امكانيات التفجر ومن هنا أشبه الالم الذي وصفه صديقه محمـد البشـروش مؤسس مجلـة « المباحث » فكان ألمه « نعمة لا تجود بها السماء على كل أحد (اذ) بالألم نلج آفاقا ما كنا نلجها ونفهم الحياة كما يجب ان نفهمها ونحاسب نفوسنا فاذا في نفوسنا قوة وصلابة ٠٠٠ » (4) ٪

ا٠ خ٠

---

(1) « رسائل الشابي » ص 27 ٠

(2) « أغاني الحياة » النبي المجهول ص 151

(3) « أغاني الحياة » الكآبة المجهولة ص 47 ـ 49 ٠

(4) « رسائل البشروش » في ذيل « رسائل الشابي » ص 189 ٠

نجواكِ خالدة

شعر محي الدين فريف

تغفو الليالي وتخضرُ الأساطيـــــرُ ‏ وأنت قولٌ بسمع الدهرِ مأثورُ
تراقصُ الذكرياتُ الحالماتُ بـــهِ ‏ كما تراقَصُ في الأيك العصافيرُ
نجواك خالدةٌ كالشمسِ تسطع في ‏ ظلماء غابَ على آفاقها النُّـــورُ
ففي دجى الليلِ أنغامٌ وأخيلـــةٌ ‏ وفي فمِ الفجرِ تسبيحٌ وتكبيـــرُ
لك الأناشيد تسْبِى القلب بهجتُهَا ‏ إن أعوزَ القلب إحساسٌ وتعبيـــرُ
فجرتها كـالينابيع التي آنبجستْ ‏ والأرْضُ كالحة والروضُ مهجورُ

* * *

يتواجـــدُ ذو النغم الســـــاهي
بـــــدواويـــنِ الأشـعـــــار
ويمحّصُ في اللّهـــبِ الخبـــرُ
وتـؤججُ بالحرفِ القدسي النَّـــارْ
والغـيـــمُ يصـاحـبــهُ المطرُ
وأراضِـــي القحـــطِ كـثـــارْ
لكـنً من الواحات ربيعا لا يأتيه شتاء
ومن الواحـاتِ دموعًا تهطِلُ في ليلِ الغـرباء
وغناءً يـعـرفـه التعســــاء
وشجى لايبرَحُ من قلبِ الشعــراء

* * *

لمن تصاغُ المعاني والتعـــابيـــــرُ؟ وقد شجاك بدنيا الشعرِ تصْويرُ
طيرٌ يردُّ على طيرٍ يســا عفُــــهُ في الغصْن طيْرٌ له رجعٌ وتقريرُ
نحن الندامى على الاكوابِ قد حكمتْ فينا الليالى وساقتنا المقاديـــــرُ
لوصُوِّرَ الشعرُ كـان الشعْرُ عاصفـة وبالعواصفِ تجتاحُ الأزاهيـــــرُ
أوكـان ذوبَ قلوب شفّها ســقم وآدها في سنيـــن العمرِ تهجيـــرُ
تراه يأْخذُ ما يعطى فلاَ رغـــــد ا أبقى ومن طبعـهِ شـحّ وتقتيـــرُ

* * *

رقصتْ فى بهْوٍ أخْضَـر
ربةُ هذا الشعرِ على نقراتِ دفوفيِ
فيِ عرس أمير لم يبلغ سنّ العشرين
الوجْهُ دنانيرٌ والشعْرُ غيومُ خريفْ
والجبّةُ أنصعُ من زَهْرِ الليْمــونْ
بالشعرِ أعــاد لهذا الكون الجـدةَ
لوّنهُ بالبرْق وأيقظَه بــالــرّعــدْ
ومن الأحزَانِ أضاء سماء الناسِ بنجم السَّعدْ

* * *

لمن تغنى معَ الفجرِ الشحاريـــــرُ ويستبيها غناء منك مسحـــــورُ
ومنْ بيانك لحنٌ ليْس تعرفــهُ ومن بـديعك منظومٌ ومنثـــــورٌ
ومن حديثكَ ما غنوا وما هتفُــوا به وماطفحت منه الأساريــــــر
صناجة كنتَ والأفـواه واجمــة والشعر فيِ رأيهم جبن وتقصيـرُ
فكنتَ أكبرَ من خبٍ يخادعُــــهُ جهلٌ ويغويه تدْليسٌ وتزْويـــــر
ماتَ الألى حجبوا نورَ السماء ضحىً وعاش من بعد ذاك الظِلّ والنورُ

الشابي ناقداً ومنظراً

بقلم خليفة محمد التليسي

ألقت ازمة الضمير العربى الحديث عبئا ثقيلا على الشاعر العربى المعاصر ، منذ رفع راية التجديد ، وشغل باعادة تنظيم الواقع العربى ، مما دفع به ، فى كثير من الحالات الى الخروج عن حدود الوظيفة التى اصطلحت الاجيال على حصره فى نطاقها ، وربما كانت مفاجآت التجديد ، ومغامراته ، وما يقترن به من خروج عن المألوف،وصدم وتهديم وبناء وما يلحق بذلك من مشكلات عديدة وقضايا مختلفة هى السبب فى رصدنا لظاهرة بروز الشاعر الناقد، والشاعر المفسر، والشاعر المنظر، فلم يعد الشاعر الحديث يكتفى بصياغة الشعر وارسال القصائد ، ثم ينام عنها نومة المتنبى عن شواردها ليسهر الخلق من جرائها ويختصمون. وقد كان الخصام حول الشعر القديم هينا لينا يسيرا يقتصر على قضايا لغوية وبلاغية . اما الخصام حول الجديد من الشعر فقد بلغ من العنف ماجعل الشاعر يخرج عن حدود وظيفته ليحمل ديوانا بيده يبنى به هذا الجديد الذى يريده ، ونقدا وتفسيرا بيد أخرى ينظر به هذا الجديد ويدافع عنه ويبرره ويفسره .

وقليل هم النقاد الذين استطاعوا ان يسايروا الشاعر الحديث فى مغامراته ومشكلاته. مما جعله ينهض بهذا العبء وحده ، دون مساعد ، وقد زاد ذلك من توتره وعمق احساسه بالغربة واللاتفاهم واللاتواصل .

وقد كانت مشكلات الشعر الحديث من العمق والتعدد والتنوع بحيث انها اصبحت اضخم من ان تستوعبها بيسر وسهولة وعفوية نفسية القارىء المتلقى وكان لابد ان يشعر الشاعر بالعجز عن الايصال فيسعى الى مديد العون للقارىء ليساعده على فتح مغاليق نفسه والقاء الاضواء على عالمه الخاص ويرسخ القواعد التى يتبناها وياخذ بها .

ومن هنا قرأنا « حياتي في الشعر » لصلاح عبد الصبور « وتجربتي مع الشعر » لعبد الوهاب البياتي وزمن الشعر لادونيس وغيرها من الكتابات المتفرقة التي تشكل نوعا من البيان الذي يحدد المفاهيم ويوضح الغاية ويبرر الموقف والتصرف ·

وما من شك في أن هذه الاعمال كانت جيدة ، شكلت في الواقع نوعا بين المعاناة الجديدة في البحث عن نظرية شاملة تفسر الشعر الحديث وتبرره وتدافع عنه ، وافادت في كثير من الحالات في القاء الضوء عليه ·

وقد تناولت هذه الاعمال مفهوم الشعر ذاته وعلاقته بالقارىء ، ومشكلة التراث والحداثة ، ومشكلة الشعر والفكر والفلسفة ، والشعر واللغة والتواصل وقضية الرمز والاسطورة الى غير ذلك من القضايا التي اصبح يطالعنا بهـا الشعراء اكثر مما يطالعوننا باشعارهم المنظومة في اطار هذه المفاهيم · والخطر كل الخطر ان تطغى هذه النزعة النظرية ، بكل ما يقترن بها من تحديد ووضوح فتتحول الى نوع من التعقيل الذي يقضي على نوازع الفطرة والعفوية لدى الشاعر ويحوله الى مفكر او صانع محترف يشتغل وفق تصميمات وقوالب فكرية محددة ·

هذه لمحة تمهيدية ، اردت ان انتهي منها الى القول ، اننا اذا كنا نقرا اليوم عن شعراء جدد يهدمون القديم الموروث بنقدهم وكتاباتهم النثرية ، ويبنون الحديث بقصائدهم وابداعهم الشعري ويحاولون تنظير تجاربهم وتفسيرها ، فليذكروا الرواد الذين عبدوا لهم الطريق وازاحوا من دروبهم كثيرا من الاشواك والصخور ، وخففوا ، عنهم شيئا من العبء بما حققوه بتضحياتهم من تجاوز لبعض المفاهيم التي لم تعد قائمة ، واختصروا لهم مراحل الطريق ·

كان الشابي من الاوائل الذين سعوا للبحث عن فكرة شاملة تستوعب تجاربه ونظراته الى الوجود وفكرته عن الفن والحياة ·

ولقد كتب الكثيرون عن الشابي الشاعر ، ولم يتحدث الا القليلون عن الشابي الناقد والشابي المنظر،ولعل الوقوف عند هذا الجانب،وقفة تستوعب بعض آرائه ومفاهيمه المنشورة في مقالاته ودراساته المتفرقة ، تكشف لنا عن اهمية الدور التجديدي الذي مارسه ادب الشابي في الوجدان الحديث ، كما تكشف لنا عن عناصر البقاء والاستمرار والمعاصرة في ثورته التي لا تزال تطالعنا في هذه المحاور الرئيسية التي يتحرك حولها الشعراء المعاصرون في

تفسيرهم لثورتهم وتنظيرهم لتجاربهم على ما بينهم الان من انفصال واختلاف فالقضايا التى عاناها الشابى ما تزال تفرض نفسها بعنف على الوجدان الشعرى الحديث ٠

لا ريب فى ان العصر قد تغير ، ولا ريب فى ان القصيدة العربية الجديدة قد انفصلت انفصالا تاماً عن القصيدة كما تصورها الشابى وابدعتها عبقريته الخلاقة ، ولكن الشىء الثابت الذى لا ريب فيه هو أن الشابى كان رائداً كبيرا من رواد التجديد فى الشعر والوجدان الحضارى ، واجه فى وقت مبكر مشكلات التجديد ، وتحمل متاعبه وخاض فى سبيل تأكيد مفاهيمه معارك عنيفة بشعره ونثره كان لها أعنف الاثر على صحته وازمته الروحية العاصفة ، حين استيقظت نفسه على عالم روحى أسمى وأغنى من العالم الذى يحيط به ، فرفض النموذج الثابت المستقر ، وثار عليه ودعا لتجاوزه من اجل ايقاظ حس الامة وزيادة رصيد الابداع لديها ، والخروج بها من عالم الموت والظلام الى عالم النور والحياة ٠

لقد اتخذ الشابى من الشعر قضية يعيش من اجلها ، وتحولت لديه الى قضية تستوعب التزامه وثورته الحضارية فكان التجديد فى الشعر عنده تجديدا فى الثقافة وبعثا حضاريا شاملا ٠

لم يكن الشابى ظاهرة عابرة ، او بدعة من بدع الاذواق المتقلبة ، ولم يكن جدولا صغيرا ينساب فى الرمل ، ويغيب فى وادى النسيان ، ولكنه كان تيارا هادرا كاسحا حفر مجراه بعمق فى الوجدان العربى الحديث٠كان علامة بارزة فى تاريخ الكلمة العربية الشاعرة لا يستطيع المرء ان يعدوها او يتجاوزها ، ولا بد من ان يقف عندها لتحديد المرحلة وبيان المسافة ٠ انه شاعر من الشعراء الذين ينتهى بظهورهم تاريخ ويبتدىء تاريخ ٠ وفى ذلك تفسير لهذه الحظوة التى ما يزال يظفر بها أدبه وتفسير لتلك المكانة التى ظل يحتفظ بها منذ برز اسمه فى الثلاثينات حتى اليوم ، وتفسير لهذه الصلة التى ما تزال تشده بأوثق الروابط الى القضايا الراهنة للشعر الحديث فتؤكد أن ثورته فى بعض وجوهها ما تزال قائمة ٠ فأدب الشابى ما يزال يمارس حضوره الحى فى وجداننا بما يشيعه من التزام حضارى وثورة مبدعة ٠ وقد ينكر عليه الذوق الراهن بعض اشكاله الفنية أو بعض إسرافه العاطفى ولكن احدا لا يمكن ان ينكر عليه انه كان شاهدا واعيا من شهود عصره ، ومن شهود اليقظة العربية الحديثة ، ورائدا من الرواد الاوائل المعبرين عن ازمة الضمير العربى الحديث ٠

واجه الشابى ، فى وقت مبكر ، قضايا الشعر ومشكلات الشاعر المجدد فى كتاباته النثرية النقدية ، فاوشك ان يصوغ فكرة متكاملة من نظرته الى الشعر وكان ما انجزه منها كافيا لتفسير عمله الابداعى ٠

لقد سبق الشابى هؤلاء الشعراء النقاد والشعراء المفسرين المنظرين بمحاولاته الجريئة فى صياغة مفاهيمه عن الشعر ورسالة الشاعر ٠ وما تزال القضايا التى تعرض لها تشكل هما دائماً لكثير من الشعراء والنقاد ، وتوضح لنا اهتمامات هذا الشاعر وعمق انشغاله بالشعر وقضاياه ٠

وفى اطار هذا الانشغال اهتم الشابى بابداء الرأى فى هذه القضايا :

1) مفهوم الشعر ومقياسه الصحيح
2) مفهوم الشاعر ورسالته وصلته بالوجود
3) مشكلة الحداثة والتراث
4) تقييم لنظرة التراث للاسطورة والطبيعة والمراة والقصة الشعرية
5) نظرة للشعر المعاصر له ، واحكام متفرقة على واقعه وشخصياته
6) تقييم للروح العربية
7) صلة الشعر بالفكر والفلسفة
8) الفنون والنفس العربية
9) الادب العربى المعاصر
10) موقف من الاداب الاجنبية
11) يقظة الاحساس واثرها فى الفرد والجماعة ٠

وسنحاول ان نلقى نظرة عابرة سريعة على بعض هذه القضايا كما تبدو من خلال معالجات الشابى ومواقفه ٠

من اهم هذه القضايا اخلاص الشاعر لنفسه وصدقه فى التعبير عنها ٠ وقد رفض الشابى كل الاطر والصيغ المستقرة الثابتة التى تحول دون تحقيق ذاته، واتخذ من اصالته الذاتية منبعاً يستمد منه طابعه المميز الفريد فأبى ان يعيش تجربة غير تجربته ، وعصرا غير عصره ، ولقد حافظ رغم قصر تجربته الشعرية على تفرده الذاتى ، وخصائصه المميزة التى جعلت منه صوتا نادرا ضمن الاصوات الفريدة فى الشعر العربى ومرجع ذلك الى يقظة حسه ، فاذا تيقظ الاحساس فى قلب الشاعر الفنان كان له بالرغم عنه استقلاله الذاتى الذى يشعره بانه قوة حية منتجة من المستحيل ان تنعمج فى سواها ، وان لا تشق لنفسها سبيلا بكرا للمجد والحياة،وكانت له كرامة ترتفع عن ان تذوب

فى غيرها او تنحط الى درك التقليد وبذلك تصبح نفسه شعلة حية نامية تتوهج فى قلب الحياة ، وطائرا سماويا يتغنى بافكار واحلام البشر » .

اما ارتباط الشاعر بقضايا عصره ، وانشغاله له بهمومه واحزانه فقد عبر عنهما الشاعر فى بيتين رد بهما على حبيبته الساحرة التى راعها منه صمتــه ووجومه فقال :

بل هو الفن وآكتئابه والفنان جم احزانه وهمومه
ابدا يحمل الوجود بما فيه كأن اليس للوجود زعيمه

كان ذلك مفهوما جديدا يطرحه الشابى فى بيئة لم تعتــد ان تخلــع هذا المعنى الجليل على الشاعر الفنان .

اما مفهومه للشعر فقد حدده فى هذه الكلمات (ان الشعر يا صديقى تصوير وتعبير ، تصوير لهذه التى تمر حواليك مغنية ، ضاحكة لاهية او مقطبة واجمة باكية ، او وادعة حالمة راضية او محترقة ثائرة ساخطة ـ وتصوير لاثار هذه الحياة التى تحس بها فى اعماق قلبك وتقلبات افكارك ، نفسك ، ورفــرفة احلامك وعواطفك ، وتعبير عن تلك الصور وهاته الاثار ، باسلوب فنى جميل ملؤه القوة والحياة ، يقراه الناس فيعلمون انه قطعة انسانية من لحـم ودم ، وقلب وشعور ، لانهم يحسون انه قطعة من روح الشاعر وعبق عواطفه أو فلذة حية من فؤاد الحياة) .

«هو هذا اسلوب الذى يكون عنيفا كالعاصفة يمثل سخط الحياة او فورات العواطف ، ويكون رقيقا مشجيا كانات ناى بعيد يمثل أحلام الحياة ويحوى القلوب المتحابة ، ويكون كئيبا مظلما كقلب الظلام حينما يمثل بؤس الحياة واحزان البشر » .

« فالتصوير الصادق الذى يريك تصورات الشاعر ارقى من تصورات البشر والتعبير الفنى الجميل الذى يكون قالبا انسانيا حيا لذلك المعنى الذى يشمله هو الذى ينبغى لك ان تبحث عنه كلما قــرات قصيــدا او رتلت مقطوعــا او تصفحت ديوانا فان وجدته فكن على يقين انك انما تقرا شعــر الحياة ، وان اخطأته فاعلم انك تقرا شعرا زائفا لا قيمة له فى سوق الخلود » .

(ولا يهمك بعد ان تجد التصوير الصادق والتعبير الصحيح ، اكان ذلك شعرا غنائيا يتغنى بخوالج النفس وعواطف الانسان ، ام كان قصصيا يقص عليك فصول الحياة كما هى،او يرسم لك مثلها العليا كما توحيها اليه احلامه ام كان تمثيليا يمثل لك كثيرا من حقائق النفس وصور الحياة ومشاهد الوجود

وانما الذى يهمك بعد ان استوثقت ان الذى بين يديك نتاج قريحة منتجة وخيال حى صحيح ، هو ان تعرف انك تقرا مثلا اعلى من الشعر الانسانى الذى يكاد يسمو الى درجة الالهام او انك تقرا مثلا دون ذلك ، ولكى تدرك هذه الحقيقة ، فانظر هل هو من ذلك النوع الذى يوسع افق الحياة فى نفسك ، ويجعلها تحس تيارات الوجود اكثر مما تحس وتدرك من معانيه واصواته اكثر مما الفت ان تدرك ، وينسيك وجودك الانسانى لحظة لتستغرق فى عالم الجمال المطلق الذى يخلقه الشاعر حواليك ويسبغ منه على نفسك ، اقول ، انظر اذا كان من هذا النوع ، فاعلم انك تقرا شعرا إلاهيا لا تجود بمثله الحياة كثيرا ، والا فاعلم انك تقرا مثلا دون ذلك) .

(ذلك هو الشعر فى نظرى يا صديقى ، وهذا المقياس الذى اعرف به الشعر من غيره وادرك به المثل الاعلى مما عداه ولكنى قبل ان افارقك اقول ان هذا المقياس يقضى عليك ان اتبعته ان تلقى بكثير من أصنام الشعر ودواوين الشعراء الى النار ، الى سلة المهملات .

فان كنت رقيق القلب جم العواطف ، فانى انصح لك فى اخلاص ان لا تاخذ هذا المقياس يا صاحبى ، وان تقنع بمقياسك ، ان كان لك مقياس تقدر بـه قيم الشعر فى عالم الادب ، وان كنت من الاخلاص للادب والفن بحيث لا يحزنك مشهد الاصنام البشرية تحترق فى صميم الحياة ، ولا يحرك نفسك او يهز مشاعرك رؤية الاسفار الكثيرة تندثر فى ظلام الاهمال ، وتنبعث منها رائحة الموت ، فلتأخذ هذا المقياس ولتكن مخلصا فى استعماله ، وانا الكفيل بانك تكون قد حزت مقياسا دقيقا تعرف به كيف تفرق بين شعر الحياة الخالد وبين شعر السخافات والتقاليد) .

ذلك هو مفهوم الشعر عند الشابى . ويدرك الشابى خطورة هذا التعريف فى عصر لم يألفه ، وفى بيئة توارثت ذلك الاصطلاح التقليدى الذى يعرف الشعر بانه الكلام الموزون المقفى فينبه الى ان هذا المقياس خليق أن يدفع بصاحبه الى التضحية بالاصنام التى اقامتها الاجيال .

اما صورة الشاعر لدى الشابى فهى صورة (ذلك الفنان الذى يكون فى روحه شيء من طبع النبوة التى تبصر ما لا يبصره الناس وتشعر باسمى ما يشعرون ، وعنصر من معنى الالوهية التى تخلق من المادة الصماء حياة ساحرة وفلكا دائرا ذلك الخلاق الذى يبعث فى آثاره فلذة من روحه وسمة من حياته ، فاذا هى ناطقة تعبر فى قوة وابداع عما فى هذا الوجود من سحر وجمال ، ويتغنى بما يزخر به قلبه الثرى من عطف وبغض ويأس وحنين

ولذة وألم وغايات ومثل ، ذلك الجبار الذى يرتفع بقلبه فوق البشر ، ليتحدث بلغة السماء عن ثورة الروح وحيرة الفكر التائهة بين نواميس العالم وبهاء الوجود) ٠

هذا هو النموذج الذى يضعه الشابى مقابلا للنموذج الذى وضعته الاجيال القديمة وحددت وظيفته فى نظم الكلام الموزون المقفى و نذر ملكاته للمدح والهجاء والارتباط بالاحداث العامة والمناسبات العابرة ٠

اما ثورته ضد التراث فقد كانت عنيفة عارمة ولكنها لم تفقد احترامها وتقديرها للقديم ، فهو يشعر باهمية الدور الذى يلعبه هذا الادب ، ويكبر ما قدمه للاجيال القديمة من تعبير عن تجربتهم فى اطار عصرهم ومفاهيمهم السائدة ولكنه كان يدعو الى شعر يعانق التجربة الحديثة للانسان العربى الحديث ، ويعبر عن تجربته التى يخوضها فى وجوده المعاصر ٠ انه يبحث عن تلاؤم بين الحياة التى نعيشها والتعبير عنها ، فلم يكن من المعقول لديه ان يعيش فكرنا على صور الماضى ، ويتخذها وسيلة للتعبير عن حاضر منفصل كل الانفصال عن قيم العالم القديم ، انه يبحث عن اضافة ابداعية ، والابداع لا يتم الا بالتجاوز والتخطى للقديم ٠

لقد كان الشابى يدعو للتجاوز ويعتبر ابداعا ويرى فى الوقوف عند القديم جمودا٠ « عندما أقول ذلك الرأى عن الادب العربى لا أزعم انه لا يلائم أذواق تلك العصور ولا أرواحها ، ولكنى أقول انه لم يعد ملائما لروحنا الحاضرة ، ولمزاجنا الحالى ولا ميالنا ورغائبنا فى هذه الحياة ٠ فقد اصبحنا نرى رايا فى الادب لا يمثله ونفهم فهما فى الحياة لا نجده عنده ونطمح بابصارنا الى آفاق اخرى لم تحدثها احلامه ولا يقظاته ٠ لقد اصبحنا نتطلب ادبا جديدا نضيرا يجيش بما فى اعماقنا من حياة وامل وشعور ، نقراه فنتمثل فيه خفقات قلوبنا وخطرات ارواحنا ، وهمسات امانينا واحلامنا ، وهذا ما لا نجده فى الادب العربى القديم ٠ لقد اصبحنا نتطلب ادبا قويا عميقا يوافق مشاربنا ويناسب اذواقنا فى حياتنا الحاضرة بما فيها من شوق وامل ، وهذا ما لا نجده فى الادب العربى ولا نظفر به، لانه لم يخلق لنا نحن ابناء هذه القرون،وانما خلق لقلوب اخرستها سكينة الموت ٠ اما نحن فمازلنا ابناء الحياة ، ولهذا فلا ينبغى لنا ان ننظر الى الادب العربى كمثل اعلى للادب الذى ينبغى ان يكون ، ليس لنا الا احتذاؤه ومحاكاته فى اسلوبه وروحه ومعناه بل يجب ان نعده كأدب من الاداب القديمة التى نعجب بها ونحترمها ليس الا ٠ اما ان يسمو هذا الاعجاب الى التقديس والعبادة والتقليد فهذا ما لا نسمح به لانفسنا ، لان

لكل عصر حياته التى يحياها ولكل حياة ادبها الذى تنفخ فيه من روحها القشيب)

وانطلاقا من هذه الفكرة التى كونها عن الادب العربى الذى يرى انه لا يسد حاجتنا النفسية ، كانت دعوته الى الانفتاح على الاداب العالمية والاستفادة منها والتفاعل مع نماذجها الجديدة على الوجدان العربى ·

وتلك أيضا قضية من القضايا التى ما تزال تثقل بمشاكلها على الوجدان الشعرى الحديث ، وتطالعنا الآن آثارها فى الاتهامات التى تتردد من حين الى اخر حول استلهام الشعراء للنماذج الاجنبية واستعارتهم لملامح غريبة عن تراثنا القديم ·

ولا يتسع المجال لاستعراض كل القضايا التى يثيرها الشابى بشعره وارائه النقدية ونظرياته فى الشعر · وكان خليقا لو امتد به الاجل ان يزيد من بلورة هذه المفاهيم وتعميقها · وما من شك فى انه قد تأثر فيها بالاراء النقدية والمعارك الادبية التى كانت شائعة فى عصره والتى كانت تتردد على اقلام الكبار من رواد الادب العربى الحديث فى المشرق وفى المهجر (1) على ان هذه العوامل المؤثرة لا تنفى ما تميز به الشابى من طابع ذاتى قوى واصالة واضحة برزت مستقلة عن كل تاثير ، وبلغ من اصالتها وعمقها ان كانت مؤثرة فى من جاء بعده من الشعراء والنقاد ·

واننى لعلى يقين بان اعادة النظر فى تراث الشابى على اساس من النظرة النقدية التى توحد بين شعره وما يعبر عنه من ثورة حضارية ، وبين نقداته وتنظيراته وربطها بقضايا الشعر المعاصر ستتزيد منتوسيع آفاق الدراسات الشابية وتبين مدى اتساع الدائرة التى تفاعل معها واثر فيها ، وتبرهن على ان ثورته ما تزال قائمة تعمل عملها ، وتمارس حضورها فى الوجدان ·

على ان ثورة الشابى لا ترفض ان تتجاوز حتى مبدعها عندما يتحول الى نموذج ثابت وقالب من القوالب او صيغة من الصيغ التاريخية التى فقدت صلتها بالواقع وذلك حين يقرر (بان لكل أدب حياته التى يحياها ، ولكل حياة ادبها الذى تنفخ فيه من روحها القشيب) ·

---

(1) انظر بحثى العوامل الفعالة فى تجربة الشابى الشعرية ـ الطبعة الثانية من كتابى (الشابى وجبران)

الفراش والصبح

شعر محسن بنحميدة

لقد احترقتَ وماتـزال فتى غـريـرْ
وتبخرتْ نفحـاتُ روحك عبـر أمـواج الأثيـر

***

كم قد هببتَ مغنيا مترنما عبر الصبيحة والأصيلْ
مثل العصافير الصغيرة إذ تزقزق للزهور وللنميـر

***

كم قد تعـذبَ جسمك الفاني النحيـل
إذ كان يعجز عن تحمُّل قصدك السامي النبيل

***

قالـوا فؤادك قد تصـدّع اذ تحمَّـل فوق ماكان يطيـقْ
أوَ ممكنٌ هذا الذي قالـوا وكنتَ لنـا رفيـق
يـا حامـلا آمـال كل الشعب من بـدء الطريق

* * *

إذا الشعب يـومـا أراد الحيـاة
فـلا بد أن يستجيب القـدر
ولا بـد للظلم أن ينجـلي
ولا بـد للشعب أن ينتصـر

* * *

كنا نحس بحزنك الأقصى وأنت تؤمل الصبح الجديد
متيقنا أن الصباح لسوف يأتي بعد ليلك في اللحود

* * *

قد كنت فخرا مستطابا للشباب وللبلاد
يعلو بشعرك رأس تونس في الأباطح والنجاد
وبعزمك الصلب المجنح كلنا اليوم يسير

إذا الحق يوما أراد الحياة
فلا بد أن تضمحل الصُّوَرْ
ولا بد للظلم أن يمَّحي
ولا بد للعدل أن ينتصر

وهكذا قد عشتَ رغم قساوة الموت العنيد
كالنسر كالجبار كالجلمود
ترنو إلى النور المشع .... بلا حدود

يا أيها الصداح من علياء قصرك والخلود
تهديك تونس نصرها المبثوث في كل الأمور
تهديك تونس يومها الغض المنير
تهديك ما تحياه من صبح جديد

الشابي بعد أربعين سنة

بقلم عبد العزيز قاسم

لقد كتب وقيل الكثير عن الشابي وعن شعره حتى انه ليخيل الينا ان كل شيء عنه قد كتب وقيل . ولقد بلغ شاعرنـا من الشهرة وذيـوع الصيت فى العالم العربي ما جعله يستأثر باهتمام اخواننا بالمشرق فاذا هم ينشغلون به عن بقية شعرائنا وبذلك يكون الشابي وعن غير قصد ، قد أساء الينا بقدر ما أحسن، فنحن لم نتمكن الى اليوم من فتح حوار حقيقي مع الشعراء العرب، نقرأ لهم بدون ان يقرأوا لنا ، فينعدم التفاعل المنشود ، ويتعثر تطور الشعر العربي فى الجملة على الاقل .

لا عصمة لقديس فى معبد الادب ، وان الشرك لاحد أركان الدين فى هـذا الميدان ، لذلك يحق لنا مقاومة وحدانية الشابي ، وفى اعتقادنا ان ذلك لا ينقص من أهميته مثقال ذرة .

وبعد ، فان البحوث والمقالات التى نشرت عن الشابي هى من الوفرة ومن الجودة فى معظمها بحيث تصلح أن تكون منطلقا لدراسة ناقدة ضافية يفصـل فيها بين ما هو موضوعي وما هو عاطفي لاحلال هذا الشاعر مكانته الحقيقية من الشعر التونسي خصوصا والشعر العربي عموما .

وقد كنت أود القيام بهذا العمل النقدي الهام ولكنه يحتاج الى مالا يتوفر لدى الآن من صبر وتفرغ . لذا بدا لى بهذه المناسبة أن أضيف ورقـة لهذا الملف الضخم بالقاء نظرة بكر على « أغاني الحياة » لاستخـلاص ما يمكـن ان يستخلصه قارىء معاصر من هذا الديوان .

الشابي بلا جدال أول شاعر تونسي محدث ، وهو العلامة الاولى فى طريق التعصير، والمنارة التى آهتدت بنورها عدة اجيال كانت تضرب فى بحر التكلف بمجاديف بالية ، فقد قفز بنا الشابي فى مطلع الثلاثينات قفزة خلصت الشعر

التونسي وساعدت على تخليص الشعر العربي من أثقال كانت تشدنا الى الابتذال ومن رواسب عصور الانحطاط التي مسخت أجدادنا من الشعراء وحولتهم الى ناظمين ، قرائحهم أحق بما كانوا ينسجونه من مراث محنطة بمناسبة موت الاعيان والوجهاء . لقد جاءت العشرينات مثقلة بالاحداث والتحولات والتحديات على المستوى السياسي والاجتماعي فقد ظهر الحزب الدستوري وبرزت الحركة النقابية وبدأ الصراع المنظم مع الاستعمار ، وكان لا بد من تجديد المناهل والاساليب الفنية . فهل كان شعراؤنا في مستوى الموقف آنذاك ؟ رغم المحاولات التي وقع القيام بها في تلك الفترة الحاسمة للالتحام بالشعب وتبني قضاياه وللتعبير عما يختلج بضميره من قلق وطموح ، لم يفلح الشعر التونسي في استيعاب مفهوم الثورة باعتبارها تغييرا جذريا شاملا واعادة نظر في حياة الفرد والمجتمع سياسيا وثقافيا وأخلاقيا .

ثم انه من البديهي ان الشواغل الجديدة تحتاج دائما الى لغة وأشكال تعبيرية جديدة . وفي حين تطور النقد بحيث لم يعد يفرق في تقسيم الآثار بين الشكل والمضمون اذ أصبحت الكلمة وسيلة وغاية، ظلت قواعد ابن قتيبة في تبويب الشعر هي المتبعة عندنا الى ما بعد الحرب العالمية الاولى . لقد عالج شعراؤنا باحتشام منذ النصف الثاني من القرن الماضي مواضيع العصر وقام بالمحاولات الاولى في هذا المجال شاعرنا محمود قابادو الذي سبق الشاعر المصري محمود سامي البارودي في الاهتمام بالقضايا التي بدأت تشغل الناس في منطلق عصر النهضة ، وسار على خطاه من جاء بعده من الشعراء ولكن القوالب القديمة المستعملة والروح السلفية التي تحكمت في وجهة الاصلاح لم تسمح بالتفتح على العصرية الحقيقية التي كانت تشترط ترك المسالك المطروقة وتفرض ركوب المغامرة. لقد ظل شعرنا العربي يشكو في أغلب انتاجه مرض المديح والمفاخرة والهجاء لذلك عندما واجه قضايا الوطنية ، لم يجد ما يقوله في هذا الغرض الجديد الا لغة المديح والمفاخرة في دفاعه عن الوطن ، ولم يجد الا لغة الهجاء في مقاومته للمستعمر .

ثم جاء الشابي ولمست أصابعه قيثارة الشعر فاهتزت قلوب شباب أعياه انتظار الجديد وأنشد الشابي فاذا التجربة واقع واذا الخلق معاناة واذا العلاقات بين الانسان والمحيط وبين الدال والمدلول تتجدد وتتوطد ، واذا الكلمات تسترجع مضاءها وتستعيد اشراقها وتنطلق مشحونة معاني وانغاما ، واذا الشاعر يستنطق سكون الاشياء ويجس نبض الظلال ويبوح بأسراره للكائنات ويلتحم في سكرة الاصيل بعظمة الوجود . ولا نبالغ اذا قلنا ان الشابي يكاد

يكون أول شاعر تونسى عرف وعاش ما يسمى بالحالـة الشعريـة ، وذلك فى نظرنا فتحه المبين وكسبنا الاعظم فى هذا المجال · فهل كان الشابى عبقريا فذا يوحى اليه ؟ وهل انفرد بالحصول على النار المقدسة فتجاوز شعراء عصره ؟ وحيث اننا لا نؤمن بهذا النوع من الهبات السماوية نميل الى الاعتقاد بأن الذى كان يفصل الشابى عن معاصريه هو ما توفر لديه من رصيد ثقافى حى تضاف اليه حساسية مفرطة وانتباه حاد لما لا يرى ولا يسمع بغير انتباه ·

بيد أنه سبق لى ان شاركت فى حديث تلفزى عن الشابى فقنت فيما قلت : « لو غربلنا ديوان « أغانى الحياة » لما استبقينا منه أكثر من ستة عشر قصيدا ممتازا » أى ما يقارب ربع ما أنتجه من أبيات ، باعتبـار الباقـى من الشعـر المتوسط ، فرآى بعضهم اذ ذاك ان فى ذلك الحكم نيلا من عبقرية الشابى واجحافا فى حقه · وانى اذ أتمسك اليوم بهذا الرأى ، أريد ان أؤكد اننا لو غربلنا دواوين الشعراء لتعذر علينا الظفر عند معظمهم بهذه النسبة من الشعـر الجيـد · ان مسؤوليتنا نحو الشعر ونحو الشابى الذى لم يمهله الموت حتى يراجع ما نظم وكذلك نحو الدارسين والمتعلمين لا تبيح لنا القول بأن كل ما قاله الشابى انما هو من قبيل الاعجاز · وينبغى لنا أن نتساءل هل كان بوسع الشابى أن يفتح قلعة مجلة « أبولو » لو بعث اليها مثلا بقصيد من صنف « مناجاة عصفور » أو « يا رفيقى » أو « الصيحة » عوضا عن قصيد « صلوات فى هيكل الحب » ؟ ما نظن ذلك !

ولكن شعر الشابى كله على مختلف درجاته ، كان متميزا بالنسبة الى الشعر فى عصره ، فهو الشاعر الرائد الذى احتضن الرومانسية بعد هجرتها من الغرب فأجرى بعروقها من قلبه وفنه وذوقه دما جديدا ، وظل تأثيره واضحا فى معظم الشعراء التونسيين الذين جـاؤوا من بعده الى نهايـة الاربعينـات ، أى الى ان اصطدم هؤلاء الشعراء بواقع قومى جديد أخذ يتبلـور منذ انـدلاع الثـورة الوطنية المسلحة التى أدت الى الظفر بالاستقلال فتغيرت الاوضاع الاجتماعية والسياسية التى غيرت بدورها مناخ الادب ومفهومه شكلا ومضمونا وجاء عصر الثورة على كل القوالب واعادة النظر فى كل القيم ·

فاذا تجاوزنا قيمة الشابى التاريخية يحق لنا أن نتساءل حضوره اليوم فى حياتنا الفكرية والفنية · ينبغى لنا ان نستمد الجوا من شعره · واذا صح ان الشعر يمتاز على النثر بكونه لا وتعاد قراءته فلا ينفد غذاء وايحاء ، لا بد ان نستجلى ه

تجعل الشابي معاصرا لنا وللاجيال القادمة ما بقي الشعر عنصر استكمال الذات وعاملا من عوامل تجاوز المنزلة البشرية في قصورها وعجزها عن التحرر وبالتالي سببا من اسباب احتفاظ الانسان بانسانيته ·

ان الخلود الادبي لا يكتب الا للاثر الذي اعرض عن العرض فعالج القضايا المتجددة وزرع في الخلق الفني بذور الحياة والتطور·وعلى هذا الاساس يسهل علينا ابراز هذه الخصائص في ديوان الشابي لنلفت اليها نظر القراء عامة والطلاب والناشئة من الشعراء على الاخص ·

ويبدو لي أن أول ما ينبغي الاشارة اليه في هذا الصدد هو ان الشابي أدرك بعمق ان التجديد وطرافة الشخصية وأصالة الخلق تقتضي جرأة كبيرة تسلك بالشاعر سبيل الاستفزاز والرفض ، رفض الاتباع ورفض المتعارف من القيم · وبالنظر الى ما تخبطت فيه البلاد العربية من جهل واستسلام وقناعة طوال قرون ، وبالنظر الى ما ظلت تتخبط فيه من تناقضات وذبذبة في مواجهة تحديات القرن العشرين وخاصة في فترة ما بين الحربين العالميتين ، وقد توطد سلطان العقل في تسيير شؤون التقدم ، بالنظر الى كل ذلك نرى بوضوح ان الشابي قد تملكته حيرة لم يسبق ان هزت شاعرا تونسيا قبله ·

لقد كانت هذه الحيرة في ذاتها ثورة في بيئة عربية اسلامية خدرها الاطمئنان والخضوع الى مشيئة الاقدار على مدى أحقاب من الزمن ، كانت هذه الحيرة أرضية مزروعة بالمتفجرات توشك أن تزلزل قواعد الايمان الذي يتنافى في مفهومه التقليدي مع التساؤل عن المصير :

نحن نمشي وحولنا هذه الاكوان   تمشي لكن لأية غاية
نحن نتلو رواية الكون للموت   ولكن ماذا ختام الرواية
هكذا قلت للرياح فقالت   سل ضمير الوجود : كيف البداية

هذا الشاب الذي ولد وترعرع وشب في عائلة ورعة محافظة وزاول تعلمه بجامع الزيتونة وكانت له مع أبيه القاضي الشرعي علاقة حوار متينة ، يتشكك ويسمح لنفسه في وسط متزمت يكفر حتى من شك في كرامات الاولياء والدراويش ، بأن يطرح أسئلة عن المبدأ والمصير في حين أن كتب سادتنا الفقهاء تحتوي على أجوبة جاهزة لكل ما يمكن أن يخطر ببالنا من اسئلة تهم شؤون

الدنيا والآخرة ، ان هذا لعين المروق·ويبلغ الخروج عن الجادة نقطة اللاعود ، عندما يقرر الشابى :

اذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر

هذه الحقيقة التى تبدو لنا اليوم بديهية كانت الى ماض قريب تحكمه الخرافات ويوكل فيه الامر الى « المكتوب على الجبين » ، تتطلب ممن يصدع بها شجاعة نادرة ، علاوة على ما كانت تقتضيه من اعمال الرأى ومراجعة السلوك · ومعلوم ان الاوساط المحافظة قد كفرت الشابى من أجل هذا البيت ·

هذا الجانب العقلانى الرافض الذى نلمسه فى معظم قصائد الشابى ، كان من الجدة والخطورة بحيث لم يجرؤ شعراؤنا على اعتماده الا بعد الاربعينات ·

لقد أشرنا منذ قليل الى طريقة شعرائنا منذ بدء عصر النهضة فى معالجة موضوع الوطنية والنضال السياسى ، فقلنا انها لا تخرج عن بابى المديح والهجاء ، فالوطن « عزيز مقدس قوى مفتدى » ، والعدو « نذل جبان حقير » · كان الشعر الوطنى اذن سطحيا اذ لم تكن له ابعاد فلسفية سياسية ولم يكن ناطقا باسم ثورة حقيقية لا تهمها النتيجة بقدر ما يهمها السبب ·

جاء الشابى فأقر « ارادة الحياة » وأعطاها مفهومها العملى وعندما خاطب الشعب لم يستعمل القوالب الجاهزة والشعارات الديماغوجية لايقاد جذوة حماس وقتى · كان همه ان يبعث فى الشعب ما اعتراه من حيرة مصيرية خلاقة ويتجلى ذلك بالخصوص فى رائعته « النبى المجهول » · وفيها يقسو على الشعب ليستفز كامن طاقاته وليخرج به من سلبية القناعة والرضى عن النفس :

أيها الشعب أنت طفل صغير لاعب بالتراب والليل مغس
أنت فى الكون قوة لم تسسها فكرة عبقرية ذات بأس
أنت فى الكون قوة كبلتها ظلمات العصور من أمس أمس
والشقى الشقى من كان مثلى فى حساسيتى ورقة نفسى

وقد يبدو لبعضهم ان هذا القصيد لا يعدو كونه تعبيرا عن امتعاض شاعر اصطدم باعراض الجمهور عنه،والواقع انالشباب لم يعرض عنالشابى فقدكان مهديه المنتظر ، ولكن الشاعر كان يحس بغربة ذات بعد نفسانى وبعد زمانى ،

غربة كل من يسبق عصره ، وهذا السبق هو الذى يعطى هذه « النبوة المجهولة » مفهومها الكامل وهو الذى يبقى الشابى حيا بيننا بعد مرور 40 سنة على وفاته ٠

لم يسجل الشابى فى شعره الوطنى احداثا معينة ولم يربط خواطره بظرف أو بمناسبة بل أفضى الينا بما أوحى به الوضع من تأملات وأفكار لا يفوت اثرها بفوات الزمن ٠ ذلك أنه لم يتعلق من الاشياء الا بجوهرها والجوهر باق ٠ فلو عدنا مثلا الى قصيد « النبيء المجهول » وأعدنا قراءة هذا البيت :

انت يا شعب قوة لم تسسها فكرة عبقرية ذات بأس

نرى الشاعر يشير الى ما ينبغى للزعامة السياسة ان تكون فى ممارستها لهذه القوة التى لا تغلب ، وقد استمد هذه الحقيقة التى ارتفع بها الى مستوى الشمول من واقع معين عاشه شخصيا ٠ وبامكاننا أن نفهم من ذلك ان الشاعر لم يكن متفقا مع طرائق قادة الحزب الدستورى آنذاك ٠ وفوق ذلك كله لم يزل هذا البيت ينطبق على وضعية معظم الشعوب العربية التى تعود مأساتها أولا وبالذات الى أزمة قيادية ٠

لقد ظل شعارنا حتى الاستقلال وبعده ، وبالضبط حتى نكسة جوان 1967 ، يتشبثون فى شعرهم السياسى بقشور الاحداث ، يتغنون بالانتصار فى واقعة ، او يصبون جام غضبهم على المعتدى فى واقعة أخرى ، وتموت قصائدهم بمرور الاحداث ، فى حين كان يسمو الشابى بتأملاته الوطنية الى مستوى البحث فى مصير البشرية المعذبة المكافحة ، مما يجعل قصائده تتجاوز الحدود المكانية وبالزمانية اذ يجد فيها كل متطلع الى الحرية حيثما كان،صدى لهمومه ومشاغله وركيزة روحية وفكرية يبنى عليها أسس وعيه وارادة تغيير ما به ٠

تعرضنا أولا وعن قصد الى جانب التفاعل مع الشعب فى شعر الشابى لا لانه الجانب الاهم فى ذلك الشعر بل لانه هو الذى يبرز بوضوح قيمته الجماعية ، فماذا عن الجانب الفردى فى التجربة الشابية ؟ قد يقول قائل ان الشابى قد أطال النظر فى قلقه الذاتى وطال تبرمه بالحياة وقد يجد الناقد لذلك بتسليط التحليل النفسى تعليلات قوية المستند ، ليس فيها ما يدعو الى الجدل ، اذ تأكد ان الفنان هو الذى يستطيع تحويل مركباته الى تحف فنية وأعمال ذهنية رائعة ٠ أما أن يقال ان الانطواء على الذات واستنطاق النفس من الاعماق يضع للتجربة حدودا وينقص من قيمتها ، فذلك ما لم يعد يوافق عليه ناقد يحسن صناعته ، ذلك ان الشاعر الحق كلما قال « أنا » قصد « نحن » ٠ فمن خلال

تعبير الشابى عن قلقه نحس بقلق جيل كامل أيقظته رجة التاريخ ففتح عينيه على ليل الاستعمار وأخذ يجول فى قفص حياة بلا آفاق ، حياة لا تعد بشىء ، ولا تفى بوعودها ان هى وعدت ٠

وما الرومانسية فى الاصل سوى شعور بضيق فاجع تجيش به صدور تحلم بالاتساع ٠ فقلق الشابى هو ما ينتاب الارواح الكبيرة فى كل زمان وفى كل مكان عندما تقعدها عن الفعل تفاهة الاشياء وتواصل الوحدة القاسية التى منها نبدأ واليها نؤول ٠

لو عاش الشابى الى اليوم لبلغ الخامسة والستين ولغير من نظرته الى الحياة بمفعول النضج وتغير الظروف ، وذلك بدون ان يتنكر لذاته ولطريقة تفكيره وتأمله من الحياة ٠ فالذى يهمنا استخلاصه والاعتبا ربه اليوم هو صدق تجربته ، وردود فعله تحت ضغط المحيط ، وتمكنه من وسائله التعبيرية ٠

اليوم وقد طغت موجه الشعر الحر الى درجة ان الشاعر صار يخجل من قصائده العمودية بل وقد اصبحت التفعيلة الخليلية محل نظر واشتدت أزمة البحث عن أشكال جديدة ، وأفضت فيها التجارب احيانا الى الفوضى ، فان المتصفح لديوان الشابى لا يتمالك من ان يتحسس فيه غبار القدم وان تأخذه رغبة وضعه فى رف الدواوين التى انتهى زمانها ٠ ولكن ليتوقف هذا المتصفح قليلا وليقرأ :

عذبة انت كالطفولة كالاحلام كاللحن كالصباح الجديد
كالسماء الضحوك كالليلة القمراء كالفجر كابتسام الوليد

(صلوات فى هيكل الحب)

وليقرأ :

ههنا فى خمائل الغاب تحت الزان والسنديان والزيتون
انت اشهى من الحياة وأبهى من جمال الطبيعة المص

(تحت الغصون)

وليقـــرأ :

قد سكرنـا بحبنـا واكتفينـــــا يا مدير الكؤوس فاصرف كؤوسك
واسكب الخمـر للعصافيـر والنحـل وخـل الثـرى يضـم عروســـك

(الخانـي السكـري)

وليقـــرأ :

راعهـا منـه صمتـه ووجومـه وشجاهـا شحـوبـه وسهـومـه
فأدرت كفـا على شعره العـــارى برفـق كأنهـا ستنيمــــه

(الساحـــرة)

هذه القصائد وغيرها ما زالت محتفظة بنضارتها شكلا ومضمونا فمن ناحية الشكل تصلح أن تكون شاهد نفي ووثيقة دفاع تصب في ملف قضية البحور الخليلية ، وهي تثبت أن الشاعر المتمكن من وسائله تنقاد اليه الاوزان والقوا في طيعة لينة . أما من ناحية المضمون فان المسألة تحتاج الى وقفة تأمل .

ان القارىء للشعر المعاصر حيثما كان ، يكاد لا يعثر على قصيد جديد واحد في الحب بوصف هذه العاطفة القيمة الاساسية التي تبرر وجودنا في العالم . وفي هذه السنوات الاخيرة حيث يستعبد الاستهلاك المجتمعات البشرية ، استهلاك البطن وما تحت البطن ، وحيث دخل الادب نفسه سوق الاتجار بالجنس ، حيث تباع المرأة وتشترى رغم ما ندعيه من تحريرها ، فاني اعتقد ان قراءة قصائد الشابي اليوم بامكانها ان توقظ نائم احاسيسنا وان تحرك ساكن منازعنا الى التسامي والى ان نعيش حياتنا الوجدانية بكليتها .

ان الشابي لمن شعراء هذا العصر القلائل الذين غسلوا المرأة ورفعوا عنها رجس « الخطيئة الاصلية » اذ جسموا فيها كل فضائل الجمال وجعلوا منها خير وسيط يصل الانسان بقصى احلامه ويوفق بينه وبين نفسه في صراعه الداخلي المحتدم أبدا . كما أن الشابي من شعراء العصر القلائل الذين ادخلوا الانسان في صحبة الطبيعة فعلموه كيف يستمع الى ما تحت الاصوات وكيف يرى في الاشياء أكثر من الاشياء ، وكيف يدرك الصلات والروابط التي تجعل من الوجود وحدة متكاملـة .

لم تزل فى ديوان الشابى أصوات تنادينا ، ولكنه يحتاج قبل كل شيء الى قراءة نقدية جديدة تشرحه وتقيم تجربته الفنية بوصفها اسلوب رؤية واحساس وطريقة تعبير . لقد جدد الشابى بعد تفكير وترو ، وبعد شعور حاد بالازمة ، ولا أدل على ذلك من محاضرته « الخيال الشعرى عند العرب » التى تعتبر « بيانه » النظرى ، وان أصدر فيها على الشعر العربى احكاما لا تخلو من الغلو . ولكن الذى يهمنا معرفته اليوم هو هل كان الخيال الشعرى عند الشابى مطابقا لما رسمه فى محاضرته من آفاق وابعاد . والقصائد هنا كنوز زاخرة بالصور والاطياف والظلال والاشذاء والالوان والالحان ، واليها امتدت ايدى الشعراء مرارا .

يؤكد نقاد الادب وأساتذته بأوروبا اليوم ان المدارس الشعرية القائمة على اختلاف مناهجها واتجاهاتها انما هى وليدة الخمائر الحية التى تركتها الرومانسية فى القلوب والعقول . ومن وجهة النظر هذه نستطيع أن نقول ان الشابى هو أبو الشعر التونسى المعاصر مهما تعددت فيه المذاهب ومهما حاول أن يقطع جذوره بالماضى البعيد والقريب .

ع. ق.

قراءة جديدة في ديوان الشابي

شعر محمد عمار شعابنية

أنت في القبر واقف لا تنـــــام
ولذكراك تنحني الأيّـــــــــام
وبعينيك تستقر شمـــــوسٌ
ما طوى نـورها السنيِ ظـــلام
يا أبا القاسم الذي كنت تشـدو
بحماس فتخرس الأقْـــــلام
لأغانيك نفحة العطر إذمـــــا
تتلا في الورود والأنســـــام
لم تغِبْ أنت .. إنما غاب عهـــد
أثقلته الدموع والآلام ....
فيه قد كنْتَ صارخا وعظيـــما
عندما قل في بلادي العظــــام .

* * *

غاب عهد وحل عهد جـــديـــد
كثر البغي فيه والإجـــــرام
وهوى العالم الفسيح صــريـــعا
وذليلا تدوسه الاقـــــــدام
واختفت قيمة الحياة .. وصار المرء
في عِرْضه النبيــلِ يســـبـــام
موضة العصر : صنع أسلحة الحرب
وقتل النفوس والانتقـــــــام
موضة العصر أحرقت هيروشيمـــا
وفلسطين مات فيها الحمــــام
كلما غاص في ثراها شهيــــــد
وارتمتْ فوق تربها الاعــــلام
تغسل القدس وجهها بدمـــــاها
وعلى النار ترقد الفيتنـــــام
واذا غازلت شعوب صبــــاحا
أفرغت من دمائها الاجســـــام
والأساطيل تملأ البحر رعبـــــا
ونذير الخراب فيها ينـــــام
ونداء الســلام وهْــمٌ وكم فـــي
أرضنا اليوم تكثر الأوهــــــام

يحلم الجائعون بالخبز لكـــــن «بنغـــلاداش» مالها أحــــــلام

* * *

من دماء الضعيف يصنع نعـــــش لليتامـــى .. وللقــوي طعـــام
واذا أخطأ المسيِّد يُعفَـــــــى ويجازى بذنبــه الخــــــدّام
وانتهت حكمة العقـــــول لأن العصر باتت تقوده الأرقـــــام
ولصوت الأبواق في كل ســـــوق نغمة يستسيغها الأقـــــزَام

* * *

آه يا شاعر الخلـــود فهـــــذا عصرنا كاد يحتـــويه الظـــلام
غير أن الأحرار أقوى اذا مـــــا وحدوا لهجة النضال وقامـــــوا
واذا شاءت الشعـــوب حيـــــاة تستجيب الأقدار والايَّـــــــام

م.ع.ش

العدد الجديد من « المجلة التاريخية المغربية »

صدر عدد شهر جانفي 1975 من « المجلة التاريخية المغربية » التى يديرها الاستاذ عبد الجليل التميمى مشتملا على جزأين أحدهما عربى والثانى فرنسى وأنكليزى . ومن البحوث التى احتوى عليها هـذا العدد الضخم (184 صفحة) :

- دور المبشـرين فى نشـر المسيحيـة بتـونس 1830 ـ 1881 ، لعبد المجيد التميمى
- الخزينة الجزائرية 1800 ـ 1830 ، لناصر الدين سعيدونى
- أضواء تاريخية على بحيرة تونس ، لعبد العزيز الدولاتلى
- سياسة فرنسا الاسلامية بتونس من 1881 الى 1918 ، لأرنولـد قـرين
- حول مفهوم المدجن الاسبانى العربى وأبعاده، لقيبارمو قوستافينو
- قضية الحقوق الثقافية بتونس 1881 ـ 1932 ، لمصطفى كريم
- لوى ماشوال والاصلاح التربوى بتونس خلال السنـوات الاولى للحماية الفرنسية ، لريشارد ماكن

الطبيعة والزمن أو رموز الحياة والموت في شعر أبي القاسم الشابي

بقلم ايليا الحاوي

يمثل الشابى فى سيرته وشعره نموذجا خاصا من توهج العبقرية المبكرة، ادرك به نهاية مطاف الاشياء منذ بدايتها ، وقد يقتضيك جهد ذهنى دائم لتقتنع بان التجارب الماثلة فى شعره نظمها فتى فى مقتبل العمر • ذاك انها تنم عن نضج فى الانفعال ونفاذ فى البصيرة ودرجة على النظم والايقاع ، مما لا يتيسر لفتى فى عمره • فتوهج الشابى المبكر ونضجه الفنى والنفسى هما من سر العبقرية وطرفة من طرائفها •

ولست اجد من يدانى الشابى فى هذا الشأن ، الا الشاعر الفرنسى ارتير رانبو الذى اعلى قبل العشرين من عمره روائع كشف بها لا وعى النفس والوجود ، مما جعله آية الشعر المعاصر والرائى الاكبر ، واذا كان شعر الشابى هبة من العبقرية المبكرة ، فانه لم يله فيه بالوصف والرصف ولم ينصرف الى التماجن على المعانى والصور ولم يتبار على التعقيد والتوليد ومظاهرة القدماء او النسج على منوالهم • فقد ادرك ان للشعر صفة وجودية فى تنازع البقاء ومعانقة الحقيقة الفعلية وفى التحرى عن الحرية ، وقد اتصفت معاناته من ذلك بالجدية والصدق • والواقع ان الشابى كان مصابا بداء الوجود ، يثور فيه الشوق الى الحياة ويتردى من دونها بعاهات الواقع ومباذله حتى اصابه ضرب من العياء واليأس وبات يعبر عن الشيء وكأنه يعبر عنه وعن ضده فى ان معا ، يسفر وجه ويضمر وجه ، وهما وجهان لامر واحد • لا يعادل شغفه بالحياة الا خوفه من الموت وفى حديثه عنها حديث آخر مكتوم عنه ، وفى الماعه به المام غير مباشر بها • وحول ذلك كله يطيف شبح الزمن ، ذلك الرحم العجيب الذى يحتضن الحياة والموت ، الصديق والعدو فى اهاب واحد •

وهذه الحيرة فى تلمس اليقين انعكست على شعره ، فبدا مترجحا ، يميد ويعتصم ويصمد ويتداعى ، يضيء ويحلولك ، ويضم النقيض ونقيضه ٠ فالطبيعة هى روضة ومفازة ، فى ان معا ٠

واذا كان الشابى قد تولى الموضوعات الكبرى لشعر الطبيعة ، فقد عادت على يديه رموزا متباينة للحزن والفرح ، والامل واليأس ، والصراع والخمول ٠ كل ظاهرة تحمل معناها والمعنى الآخر ٠ يلم بالليل (1) فلا تدرك اذا ما كان ليل الطبيعة المأثور ام الليل الاخر المنحل فى ضمير النفس وضمير الحياة ، فهو « ليل كئيب ورهيب وجميل وغريب » ، «أبو الهول والبؤس» ، وفيه «تجثو عرائس الامل العذب» انه «ذرة من مواطن الجحيم» كما انه يسمع النفس رنة الحق والجمال ، وقلما تجد مثل الليل الذى يصفه الشابى فى انفصامه وانشقاقه ، بعضا على بعض ٠

فالشابى كان يعبر عن اللحظة القائمة واللحظة القادمة ومظاهر الكون كلها تعانى داء الوجود وترسم ملامح الفاجعة، والليل هو ككل مظهر آخر، هو رمز ثنائى مضاعف ٠ وهذه النزعة تشخص كذلك فى موقف الشابى من عناصر الكون ، فالرعد (2) يحتضن مثلا القوة والضعف ، يقصف ولكن فى صوته « انين وحنين » « وروح العذاب » ٠ الرعد هو الاخر منشق على ذاته والطبيعة ذاتها تظهر الغدر ، تنظر ولا تسعف وقوى الفهم عاجزة عن الفهم وقوى القوة عاجزة عن الفعل ، والاشياء موجودة وغير موجودة فى اللحظة الواحدة ، الصيرورة الدائمة هى التى تنكد الحياة وتحيل كل شىء الى سراب وقبض الريح :

والشباب الحبيب شيخوخة تسعى الى الموت فى طريق كؤود
والربيع الجميل فى هاته الدنيا خريف يذوى رفيف الورود (3)

---

(1) ديوان أغانى الحياة ، نشر دار الكتب الشرقية ـ تونس عام 56 ص 52 ـ

(2) الديوان ٠ ص 35 ٠

(3) من قصيدة طريق الهاوية ص 110 هى القسم الثانى من قصيدة عذارى افروديت ٠ وفيها يقرن الوجود بالقبر والحياة بالموت والشباب بالشيخوخة والربيع بالخريف والورود بالشوك والتغريد بالنواح والاناشيد بالمراثى ٠

والزمن الذى ولد الفاجعة الماثلة ، ثمة ، وعقد فى نفس الشاعر انشوطة الوجود ، الشباب القائم فى هذه اللحظة هو شيخوخة فى اللحظة القادمة ، انها متوارية فى قلبه تدب ببط فى خلاياه • وما دام الشباب زائلا فان نعيمه منكد ، تكمن الحسرة فيه • حياته هى سعى الى الموت • والربيع انه المهد والخريف واللحد • وشعر الشابى هو بذلك فحص ضمير دائم امام الطبيعة والنفس والحياة • وهذه الفكرة هى التى تنكد الشاعر ، فيظل مقيما من الوجود على سفر وارتحال ، يترقب نذر الشؤم والهلاك ، يبصر النور والمياه ويسمع اناشيد الطير ، ولكنها لا تلج الى نفسه الا بالاسى والوجوم • شدة تولهه بها تدعه يخشى عليها عوادى الزمن المحيل ، فيقتنط ويقيم ما تم النور والغناء فيما هى تقيم اعراسها حوله :

مـا للميــاه نقيــة حولــى وينبوعـى مشـوب
مـا للصبـاح يعـود للدنيــا وصبحــى لا يــؤوب
ما لى يضيق بى الوجود وكل ما حـولى رحيب (1)

ففى ذهن الشابى بل فى ضميره القانط لم تكن الاشياء توجد بذاتها بل متزاوجة وكان الوجود قائم على تنافر وخصام ، الشىء الواحد يحمل حياته ومماته • وهذا الصراع بين قوى النور وقوى الظلمة حول شعره الى مراث ومزامير ، يتردد فيها كل لفظ سلبى ، ينقض عهد الحياة وينيط بها كل غدر وقسوة• فمنذ وجوده تراه يحتضن بذرة عطبه وانقراضه ، وجوده يوجد معه خصمه وعدوه وكان نموه فى حقبة من الزمن ليس سوى واجه آخر من وجوه العبث والسادية التى يتعمدها القدر •

ومن هنا كان شعور الكآبة والغربة ، كآبة لا تفسير لها ولا تبرير وغربة تطل على العالم الاهل وكأنها تطل على القفر • ذاك ان الشاعر كان يشخص امام الشىء ونقيضه فى لحظتى وجوده وهموده • هناك دائما موجودان فى الوجود الواحد وبينهما تكمن الفاجعة وصليب الحتم والرق :

قضيـت ادوار الحيــاة مفكــرا   فى الكائنـات معـذبا مهمومــا
فوجدت اعـراس الوجـود مآتمــا   ووجدت فردوس الزمان جحيما (2)

---

(1) قصيدة نشيد الاسى ص 85 •

(2) قصيدة صوت تائه ص 81 •

ولست اود ان اقتنع بان الشابى ارتدى اسمال الحزن والقنوط من الخارج ، ذلك ان نفسه بكل قواها الواعية واللاواعية تتنفس فى شعره ٠ كان يتأمل ويعانى ، بل ان معاناته كانت حتما عليه ، يتملى بكل موجود والموجود الآخر القائم الى جنبه او فى ضميره وهو يتربص به ويتسرب اليه بالعطف ولقد تأثر الشابى بهذا او ذاك من الشعراء الا انه صهر تأثراته فى جحيم معاناته وسكب عليها من حطام عمره وعافيته وحطام التاريخ وانقاض الطبيعة ، فاذا هو ينطلق بصوته ويصيح بألمه فى اعماق الفراغ والعبث والسدى ٠ وليس فى الشعر المهجرى ما ينم عن بكارة الجرح الوجودى وعمقه ولعنته كما فى شعر الشابى ٠ لعل شعره كان نشيد احتضار طويل تلاه على مسامع الكون الصماء ٠ وفى النهاية يبدو لنا ان الثنائيات توحدت فى شعره دون ان تتآلف فى نفسه ٠ لم يستسلم ، كان يتمنى انتصار النور ولكنه تحقق ان قوى الظلمة هى الاغلب ومن اعماق تلك الهاوية المدلهمة كان يحاول ان يستمد بعض القوة التى هى أشد فاجعة ودمارا من الضعف :

سأعيش رغم الداء والاعداء كالنسر فوق القمة الشماء
ارنو الى الشمس المضيئة ٠٠ هازئا بالسحب بالامطار والانواء
واقول للقدر الذى لا ينثنى عن حرب آمالى بكل بلاء
لا يطفىء اللهب الموجج فى دمى موج الاسى وعواصف الارزاء (I)

وهذه القصيدة حافلة بالمضاعفات والتقمصات الوجدانية ، الم من خلال المعانى الظاهرة بمعان اخرى تناقضها او كأن المعانى الظاهرة هى ردة فعل على المعانى الخفية المكتومة ٠ وبالرغم من انظاهر القصيدة ينم عن التمرد والاعتصام بالقدرة الانسانية ، فان ضميرها حافل بفاجعة الضعف وتخاذل الارادة ٠ واذا كان الشابى قد عزم على التصدى للخطوب والاسقام ، فان ثورته هى ثورة الاسير المكبل باغلالها ، الواقع بين حبائلها ٠ وكل ما ذكر من سلبيات الحياة فى هذه القصيدة وقد توهم واوهم انه انتصر عليه إنما هو قد انتصر ، فى الواقع ، على الشاعر ٠ واذا كان قد اذعن فيما تقدم من مقاطع وابيات للسويداء والهزيمة ، فان معاناته هنا لا تتباين وان تباينت معانيها ومضامينها ٠ التجربة واحدة ، لكن موقف الشاعر منها تبدل، لعله سئم فثار وتحرر، الا ان الضعف والانخذال هما الباعث الدائم للثورة فى هذه الابيات كما كانا باعثى القنوط والفشل فى

(I) قصيدة هكذا تكلم بروميثيوس ــ نشيد الجبار ص 179 ٠

الابيات الاخرى · وفيما دون ذلك نلفى الشاعر وقد حشدنى قصيدته الالفاظ المدلهمة :

« الامطار والانواء ، الظل الكئيب والهوة السوداء ، والقدر وحرب الآمال بالبلاء ، وموج الاسى وعواصف الارزاء ، والشكوى الذليلة وضراعة الاطفال والضعفاء ، والرعب ورجم الردى وصواعق البؤساء ، وظلمة الآلام والادواء وسطوة الانواء » · ويكفى ان نتبصر بهذا الحشد الحالك السواد من الالفاظ المأساوية لندرك ان الشابى كان يحاول ان ينهض من قبر اليأس ، ان يجمع اشلاءه المتناثرة وينفض عنه الاكفان · غاية القوة تدل هنا على غاية البؤس والتراخى · وبذلك تغدو القصيدة تعبيرا عن ثورة الشاعر على قدره وقدر الانسانية كلها بما يهيب بالقدرة البشرية ان تصمد لعوادى الدهر على غرار الدعوة الوجودية الدامية كما نراها فى آثار البير كامو · والمهم فى ذلك كله هو ذلك التواجد الدائم بين الاضداد فى نفس الشاعر وسواء اعبر عن هذا وذاك منها ، فانه يعبر عن الآخر فى الآن ذاته · والثورة العارمة الماثلة فى هذه الابيات هى صنو الهزيمة التى يتلو الشاعر آياتها عبر ديوانه ·

ومع ذلك كله ، فان هذه القصيدة تنقل لنا موقفا جديدا من مواقف الشاعر سوف يتكامل ويتأكد فى دراستنا لتجاربه فى الحب والحرية · وذاك الموقف متصل بالارادة الانسانية والفعل الروحى الذى تتجدد به ، فان كان الانسان مقيدا بجسده وقدرته المادية، فعليه ان يعتصم بالارادة وحريتها الروحية التى لا تحد· الحرية تقد من الداخل ، من ذات الانسان الحقيقية، فيذعن المرء لحدود جسده القاهرة وقدرته المادية المكبلة ، لكنه يرفضها بارادته وروحه ويعتصم بالكرامة ، فلا يظهر وهنا ولا استسلاما ، بل يتوسل الحرية الروحية للانعتاق من العبودية المادية· المادة تمسى الجزء الساقط المرذول من الانسان، والنفس الذى ينفخ فى هذه القصيدة ويولد من الضعف قوة ويحيل صعلوك الداء والخطوب الى جبار متمرد او نسر محلق، انما هو نفس الروح الرافضة لقدرها والتى هى سيدة مصيرها وان كانت المادة والجسد يعيقانها عنه · ومن هنا نفهم المعارضة القائمة عبر متنها بين الشمس المضيئة والهوة السوداء (I) · الشمس تضىء له هنا من الداخل وان كان العالم الخارجى يلقيه فى هاويته

(I) لا ارمق الظل الكئيب ولا ارى = ما فى قرارة الهوة السوداء

المظلمة . ومن لم يستضيء بتلك الشمس ويهتد بها تسحقه اقدام الحياة ، ويؤكد ذلك استدراكه بالقول :

« وأسير فى دنيا المشاعر حالما ،غردا» (1) اى انه يستعيض بسعادة الروح فى الداخل عن تعاستها وتعثرها بين اقدار العالم الخارجى . ويتضاعف هذا التأكيد من تصديه للقدر بالقول : « لا يطفىء اللهب المؤجج فى دمى (2)..» وذلك اللهب هو لهب الارادة والفعل الروحى الذى ينتصر به وحده على عاهات العالم ويتطهر من ادرانه وسقطاته ويتحرر من كبواته وعثراته . القدر يضيمه ويذله ، الا انه لا يشتكى ولا يستسلم ويظل كالجبار الذى يحدق بالفجر الجميل النائى (3) اى بفجر الروح والحقيقة والكمال والسعادة ، عندما يتخلص من طينته الموبوءة وعالمه المتردى الميت . ويتجلى هذا اليقين فى قوله :

النــور فى قلبــي وبين جوانحــــــي   فعــلام اخشــي السيــر فى الظلمــاء

الظلام و ظلام العالم الخارجى ، العالم الزائف الذى مسخت به الحقيقة ، اما نور الروح والارادة ، نور الذات ، فيرتفع به فوق هاوية العالم ، انه نور لا ينطفىء لانه نور الحقيقة الانسانية الذى لاتطوله الخطوب والاعاصير . واذا كان التوحد والتضاد قائمين بين عناصر الطبيعة ومظاهرها ، فى وجودهـا ولا وجودها الدائمين ، فان التعارض والتضاد يقومان ثمة بين الداخل والخارج، بين الروح والعالم الخارجى ، بين حقيقة الانسان الفعلية وحقيقتـه الخارجيـة المزورة . لعله ضرب اخر من الصوفية ، فهى تعتصم بحبال الروح ، ولكنها لا تستسلم للقدر ولا تتذلل له ، بل تثور عليه وترفضه ولا تؤدى له الا حطامها المادى الميت ، انها ثورة الفرد الذى يرفض حتمية الاخرين وعبودية القدر والفناء وينتصر عليهم بالفعل الروحى .

وبذلك يمكننا ان نفسر ايضا شعلة العذاب المتأججة فى شعر الشابـــى والشعور بالغربة والتوحد انه نوع من العذاب الذى انطلق من بعض الوقائع والاحداث المادية ، لكنه انتهى الى تجربة روحية ، ميتافزيقية ، تفصح عن عذاب

---

(1) وأسير فى دنيا المشاعر حالما = غردا وتلك سعـادة الشعراء
(2) لا يطفىء اللهب المؤجج فى دمى = موج الاسى وعواصف الارزاء
(3) ويعيش جبـارا يحـدق دائمـا = بالفجـر الجميـــل النــائى

الروح الاسيرة فى جسدها وبين جدران العالم وغربتها عن وطنها الاصلى حيث كانت تعانق الحرية والحقيقة والسعادة :

شردت عن وطنى السماوى الذى ما كان يوما واجما مهموما
شردت عن وطنى الجميل انا الشقى فعشت مشطور الفؤاد يتيما
فى غربة روحية ملعونة اشواقها تقضى عطاشا هيما (1)

ولقد انعم الشابى فى التحرى عن ذاته المفقودة الضائعة وجرى فى ذلك بخلاف ما جرى عليه سقراط الذى كان يقول افهم نفسك تفهم الوجود وكل شىء آخر • لقد تحرى عن الحقيقة فى الخارج ، فى الطبيعة يستمد من نواميسها دلائل يستدل بها على نوع من اليقين الكامل او المجزوء • السعادة متصلة بالطبيعة والحب كذلك والحرية حتى فى وجهها السياسى تعتمد على قرائن فى مظاهر الطبيعة وعناصرها،التأمل فى العالم هو فى الآن ذاته تأمل فى الذات،ولا فرق بين الداخل والخارج من تمعن فى اسرار الطبيعة خلص الى فهم اسرار نفسه • ولسوف نرى ان الطبيعة كانت سخية على الشابى لانه لم يشخص امامها شخوصا وصفيا ، شكليا كما انه لم يتولها بالتحليل والتعليل والمقارنة ، كما فعل اصحاب البديع والصنعة وانما اتصل بروحها وضميرها ، وسمع همسها المكتوم فكانت الطبيعة فى شعره اهم مصدر لحقائق الوجودية والانسانية •

الا ان اليقين الذى ادركه ظل جزئيا ، عثرت فيه الروح على الفرح ، ولكنها ظلت تعانى شعور القسر والعطب فعانقت الموت على انه سبيل للحرية :

اما اذا خمدت حياتى ، وانقضى عمرى ، واخرست المنية نائى
فانا السعيد باننى متحول عن عالم الاثام والبغضاء
لاذوب فى فجر الجمال السرمدى وارتوى من منهل الاضواء

وبذلك يتأكد لنا من جديد ان مشكلة الشابى الدائمة كانت مشكلة الخلود اى مشكلة الحياة والموت والزمن الذى هو ابو الصيرورة وناشر الوية الزوال والعبث على مطارح الوجود •

---

(1) من قصيدة صوت تائه ص 81 •

ولا يذهبن بنا الظن ان الشابى كان عديم الفرح بالحياة والطبيعة ٠ ففى شعره قصائد كثيرة نظر فيها الى الطبيعة فى حدود اللحظة القائمة ، وتغنى بالحياة على انها البداية والنهاية ، او انه تغامض فيها عن البداية والنهاية واتخذ الوجود القائم على انه الوجود الدائم :

قدس الله ذكره من صباح ساحر ، فى ظلال غاب جميل
كان فيه النسيم يرقص سكرانا على الورد والنبات البليل
وضباب الجبال ينساب فى رفق بديع على مروج السهول ٠٠ (1)

فهذا المشهد من الطبيعة هو مشهد مطلق لم يخن عليه الزمن ولم يتوله فى قنوطه وعمومه كانه استقل فى اللحظة التى تجسد بها ٠ الصباح والنسيم والورد والضباب الشفاف ، هذه كلها اتخذت بحدقة اليفة داجنة ، فبقى كل منها على طبيعته الخاصة به وفقا لمفهوم السعادة الشائعة ، وكان الشابى قد دأب على ان ينكد كل لحظة بالتساول عليها والتحرى عن مؤداها وغاياتها ٠ الا ان هذه الاضواء تظل راكدة ، خاطفة فى شعره ، وهو غالبا يقرنها بعالم الطفولة ، فى الرؤيا والذكرى ٠ ونسبتها الى الطفولة ليست وليدة الصدفة وانما هى عميقة الدلالة على واقع الشاعر وطبعه الذى يعزف به عن الحاضر الى الماضى ٠ فالتغنى بجمال الطبيعة فى الطفولة يرد عبر السياق التشاؤمى،وان كانت معانيه تتغنى بنشوة الطبيعة وجمالها ٠ ذلك ان الشابى هو كسائر الرومانسيين يجد ان الطفولة هى وحسب عهد السعادة ، لان الطفل يتخذ الطبيعة ملعبا وملهى له ولا يتساءل عما قبلها وما بعدها ، ولا يعى معالم العطب والزوال الكامنة فى احشائها٠الطفولة هى التى تقبل الوجود وتحياه بدلا من ان تتفكر به ، وهى لا تتوجس خيفة من الزمن والايام لانها لا تدرك فكرة المحن والخطوب ، كما انها لا تهجس بهاجس الموت ٠

ايثار الطفولة هو تعبير عن لعنة الوعى حيث يفقد الانسان براءة الحياة وتعتريه فكرة الزمن فينحنى على الاشياء يزنها ويقيمها فى مآلها الاخير وفى علاقتها بها ويكف عن التمتع بالسعادة البريئة التى لا تحلولك ولا تتساءل :

ان الطفولة حقبة شعرية بشعورها
ودموعها ، وسرورها وطموحها وغرورها

---

(1) قصيدة ذكرى صباح ص 162 ٠

لم تمش في دنيا الكآبة والتعاسة والعذاب
فترى على اضوائها ما في الحقيقة من كذاب (1)

والشابي يلمح ثم يوضح . ففي قصيدة دعاها « الجنة الضائعة » ، يتحدث عن ايام الطفولة ومنذ المطلع نراه يتحسر على جنة الايام الغابرة ، عندما كان طفلا يعدو في الوادي سحرا واصيلا ، تلك ايام الطهارة والوداعة ، لا يلم بها سوى السرور يتسلق النخل ويقطف الزهر ويصعد الى الجبل ويبني الاكواخ ويخاطب الاصداء ويعدو خلف اسراب الفراش ويعبث بالبهائم . الا ان ذلك كله توارى كما يفني النشيد الحلو وقد ولج الى وادي الزمان ووغى الاباطيل والمآثم والذل والخطوب وينتهي الى القول :

قد كنت في زمن الطفولة والسذاجة والطهور
احيا كما تحيا البلابل والجداول والزهور
لا نحفل الدنيا تدور بأهلها او لا تدور
واليوم احيا مرهق الاعصاب ، مشبوب الشعور
متأجج الاحساس احفل بالعظيم وبالحقير
تمشي على قلبي الحياة ويزحف الكون الكبير (2)

مع انالقصيدة تنحو منحى سرديا فيمعظم الاحيان،فانها عميقة الدلالة على رموز الوعي والغفلة ايالتعاسة والسعادة والامل واليأسوالحياة والموتوغربة الروح في مفازة العالم وفرحها ونشوتها بين رياضه وخمائله الغناء . فالوادي والنخل والجبال والصنوبر والزهر والاكواخ والاصداء..هذه كلها رموزحياة وتفاؤل ، بل انها كانت كذلك في عهد الطفولة ، ولكنه عندما شب عنها وولج الى وادي الزمن ، انبرت له الهموم والخطوب والمحن ، وبات يتسلق جبل الحياة الوعر داميا معانيا اهوال الوجود واعباء الضمير ، ممزق الاقدام ، مترنح الخطوات ، هالته اشباح الظلام وراعه صوت القبر . فالطبيعة هي طبيعة واحدة وقد كانت مبعثا للفرح،مصحوبة ببراءة الاطفال واستحالت الى صخور دامية واشباح عندما تسربت الى ضميره ووعيه هموم الوجود . وبعد ان كان يتسلق الجبال مرحا عابثا عاد يتسلقها كالجندي الذي ادمته المعركة ، فجعل يدب ببطء واحتضار ، ببصر من دونه الاشباح والقبور .

---

(1) قصيدة الطفولة ص 57 .

(2) من قصيدة الجنة الضائعة ص 150 .

فالطفولة هى الرمز الاكبر فى شعر الشابى للحياة والسعادة ويدنو منها رمز الغاب • وفى حين يخيل الينا ان الغاب هو رمز لما يناقض حياة المجتمع والناس ، انه رمز العزلة التى تنجى الشاعر من شرور الاخرين • وعبر ديوان الشابى ايماضات كثيرة الى امتعاضه من سخف الناس واذاهم :

ليت لى ان اعيش فى هذه الدنيا — سعيدا بوحدتى وانفرادى
وبعيدا عن المدينة والناس — بعيدا عن لغو تلك النوادى
فهو من معدن السخافة والافك — ومن ذلك الهراء العادى (1)

ويقول فى قصيدة مناجاة عصفور :

ما فى وجود الناس من شىء به — يرضى فؤادى او يسر ضميرى
فاذا استمعت حديثهم الفيته غثا — يفيض بركة وفتور
واذا حضرت جموعهم الفيتنى — ما بينهم كالبلبل المأسور (2)

وهكذا يكون التجاء الشاعر الى الغاب رمزا ليأسه من حياة المجتمع • ولعله الرمز الادنى والاكثر تداولا بين الشعراء • اما الرمز الاخر الذى يقبع فى لا وعى الشاعر العميق ، فهو متصل برغبته فى الانسحاب من حلبة الحياة وساحها ، فيه نوع من معانقة السكون والوحدة وما تنطويان عليه من معاناة الموت أو شهوة التفكك من قيود الحياة،انسحابه من الحياة منحه بعض العزاء فى العودة الى الحياة الاولى الى نوع من البكارة البدائية فى تلمس حقائق الوجود،عاد الى طفولة الانسان، وبذلك عثر على شىء من فردوسه الضائع•ولنقل ان نزعتى الحياة والموت تتوازنان ثمة• ماتت فيه حياة الجماعة وبقيت حياته الخاصة به والقائمة على النشوة الصوفية فى معانقة الكون• وبذلك يتردد رمز آخر لعله الاعمق وهو رمز صوفى خالص حيث يتعبد الشاعر فى محراب الطبيعة محاولا ان يكتشف سر نفسه وسر العالم لتتم له المشاهدة ويسفر وجه اليقين • فاعتزال الشابى هو اعتزال تأمل ومعرفة ، به يغذى روحه ويتغذى منها ويرتفع عن حياة العامة والشعب ممن لم تنزل عليهم نعمة الروح ، فدأبوا على اشباع غرائزهم والاستسلام لجهلهم •

(1) الديوان : ص 53

(2) الديوان : ص 150

واذا كان قد تصالح فى هذه المرحلة مع الطبيعة ووجد فى نواميسها ما يعبر عن الحقيقة الانسانية العميقة حقيقة التجدد والانبعاث عبر الموت والحياة فقد كان طالما توجس منها ونعى عليها زوالها وسرابها كما بينا وبخاصة فى قصيدتى الليل والخريف • لقد كانت الطبيعة ثمة مفازة وجنازة •

وبذلك يظل رمز التوحد والتضاد ماثلا فى الطبيعة من دلالتها على المعنى الواحد ونقيضه • الا ان تجربة الشابى تطورت وتمكنت من الموضوعية والتأمل فأدرك ان وراء حركات الطبيعة فى المظاهر والعناصر والفصول حكمة وان على الانسان ان يعتزل ساح الضجيج والعجيج بلا طائل ، ليتمكن من التنصت الى همسها • باتت الطبيعة الآن الكتاب الاكبر الذى يطالع فيه حقائق الوجود • ولعل قصيدة الغاب هى اروع ما عبر فيه عن تلك التجربة • فهى تنطلق من السعادة الحسية الشائعة فى التمتع بكل مظهر وحركة ولون وصوت يجول فى الطبيعة ، وينطلق من تلك النشوة الى معانقة حقيقة الكون كانه آدم الاول عندما وعى الوجود وكان فى عدنه ورو حالكون تخفق حوله :

وسنى ، كيقظة آدم لما سرى في جسمه روح الحياة النامي
واحس روح الكون تخفق حوله في الظل والاضواء والانسام (I)

وآدم هو ثمة رمز الانسان الاول الذى يرنو الى الوجود بعين جديدة اولى، عين غير متدجنة ، والسعادة فى تلك النظرة الدائمة التجدد الى العالم فلا يهرم بهرم الحواس ولا تطفر عليه اسراب الهموم من داخل النفس ، هموم الزمن والناس والرزق والزوال • السعادة فى انتعتبر الطبيعة غاية بذاتها طبيعة مطلقة ، لا قبلها ولا بعدها • وفى قصيدة النبى المجهول تظل الطبيعة على بهائها ورونقها ، الا ان نفس الشاعر وباعث الاعتزال يتبدلان ، الطبيعة تعود نقيضا للمجتمع وتتخذ شكل الحقيقة التأملية التى يتصالح الانسان بها مع الوجود • والتجربة المبثوثة فى حناياها ، تمثل يأس الشاعر من النهوض بالعالم وتغييره فى سبيل مثال اعلى يحقق به الانسان غاية الحياة ويطهرها من العبودية والظلم والتقاليد والخمول •

ويأس الشاعر من اصلاح الوجود دفع به الى احضان الطبيعة بعد ان لاقى افدح

(I) قصيدة الغاب ص 189

أنواع الاضطهاد ولبس رداء الذل وكلل بالشوك • الشاعر هنا هو نبى الحقيقة المخذول الذى تنتصر عليه قوى الشر والتخلف فينصرف الى الطبيعة حيث الحقيقة الاولى التى لم يزيفها المجتمع وتنكدها الشرور •

وبذلك يتوحد لديه رمز الحياة والموت ويتصالحان فيكمل احدهما الاخر ويمهد له ويمكن له فى الاستمرار • الموت هو فى سبيل الحياة ، هو وسيلة لتجديدها • الحطاب يهوى الى الجذوع بفأسه ، والسيول تهد القبور والرياح والعواصف تهتف بالثورة • الهدم يعد للبناء ، والخراب هو واسطة للنهوض الجديد من رمس الزمن والتاريخ•اما فى قصيدة ارادة الحياة فان رموز التجدد والثورة والبعث تتكاثف وتعمق ، فاذا كل مظهر من مظاهر الطبيعة يفصح عن حالة من الركود الذى هو فى الان ذاته تمهيد للثورة والبعث •

فالشتاء الذى يكفن الطبيعة برداء الثلج والموت انما يحتضن بعثها فى رحمه • فالتجدد هو ناموس الكون ، والحرية هى نوع من المعانقة لحقيقة الوجود والتجدد الدائم فى فهم اسراره واسرار النفس والاعتصام بالقوى الروحية التى هى وحدها سبيل لتبرير حياة الناس •

ففى هذه النظرة التفاؤلية العامة يتوحد الموت والحياة ، انهما وجدا معا وأقاما على تنافر ظاهر ووئام مضمر، فالحياة تتجدد بالموت ولولا الموت لخمدت الحياة وانتهت والشاعر انما يدعو الى الثورة فى ذكره للحطاب والفأس والرياح والزوابع والاعاصير، الا انها ليست الثورة الدامية التى تتفجر فيها براكين الحقد بل انها حركة باطنية وفعل روحى يتولد فى الداخل ، فيرمى الانسان عنه اسمال التقاليد والاعراف والعبودية ، يقتفى اثر الحقيقة ويعلم الحق والحق يحرره • فى هذه المرحلة يقتنع الشابى بجدوى الحقيقة ، انها وحدها التى تجعل الانسان حرا فلا يذعن للباطل يقاوم ولا يساوم، فتحق له نعمة الوجود وتسبغ عليه عافيته • لقد برىء من داء العبث الى حين الا ان الشعب الغافل او المتغافل لا يعى هذه الحقيقة فهو ابن المدينة حيث يدب الناس دبيبا الى عبوديتهم اليومية والدائمة ، لا يتحرون عن الحقيقة المنقذة ، حتى يستحيلوا الى أرواح غبية تكره النور ، تقضى الدهور فى ليل مغلس ، ولا تدرك من الحقائق الا التى تطوف حولها بمس وجس ، اى انها تأخذ بالحقائق الظاهرة الزائفة • فالشعب هو أقوى قوة لكن ظلمات العصور كبلتها وتراه يخاطب الشعب بقوله :

خلقت طليقا كطيف النسيم وحرا كنور الضحى فى سمـاه
تغرد كالطير اين اندفعت وتشدو بمـا شـاء وحـى الالـه
كذا صاغك الله يا ابن الوجود والقتك فى الكون هذى الحياة(1)

والشاعر يحض الانسان الى ان يستعيد اصله القديم ، صوت الحياة يناديه الى ذلك من نفسه ومن الطبيعة ٠ فالحرية صوت يصدح فى الضمير ولكـن الانسان يسكت صوت الحياة القوى ويخنق صداه ٠ وفى هذه المرحلة تغـدو الطبيعة الرمز الاكبر للحياة فيما يستحيل الشعب الى رمز للموت :

اين يا شعب قلبك الخافق الحساس اين الطمـوح والاحـلام
إن يـم الحيـاة يـدوى حواليـك فأيـن المغـامر المقـدام
اين عزم الحياة ، لاشىء الا الموت والصمت والاسى والظلام(2)

فالشابى يتمثل الانسان بمثال الخلق والابداع، فاذا خلت حياته من الكفاح والفعل فى الوجود والتاريخ ، فان حياة الشعب وموته سواء ، لا شك ان الموت هو موت معنوى ولكنه افدح من الموت الفعلى ٠ فيه تتعطل وظيفة الخلق، اى ارادة الحياة وتبقى وظيفة غريزية صماء مشتركة بين الانسان وسواه من مخلوقـات الوجود ٠ فالارادة المعبر عنها بالحرية هى التى تبرز الوجود الانسانـى وتهـب الغبطة ورغبة البقاء واحتمال العيش ٠ الشعب لا يفطن الى هذه المرامى المبثوثة فى ضميره وضمير الغاب والطبيعة ، عبر النواميس والمظاهـر والعناصـر ٠ فالفصول تدور ، والعواصف ولكن الشعب مقيم على حالة واحدة حتى مل نهر الزمان ايامه الموتى وانقاض عمره المتهدم ، فهو لا ميت ولا حى بل كائن ليس يفهـم :

قد مشت حولـك الفصـول وغنتـك فـلم تبتهـج ولـم تترنـم
ودوت فوقـك العـواصف والانـواء حتـى اوشكـت ان تتحطـم

---

(1) يا ابن امى ص 88
(2) الى الشعب ص 275
(3) الى الشعب ص 185

وكدأبـه دائمـا فان الشعب يتضاعف رمزه ، فهو هنا رمز الموت ، وفى قصيدة اخرى يغدو رمزا للحياة التى تنضـو عنها اسمالها ، فيمـا ينحدر المستعمر المستبد ، حبيب الظلام وعدو الحياة· وبذلك يتضاعف رمز الطبيعة فهى تغرر الظالم بالصحو الذى تتربص به العاصفة والانواء :

الا ايهـا الظـالم المستبـد حبيـب الظـلام وعـدو الحيـاه
سخرت بانات شعب ضعيف وكفـك مخضوبـة من دمـاه
رويدك ، لا يخدعنك الربيع وصحو الفضاء وضوء الصبـاح
وفى الافق الرحب هول الظلام وقصف الرعود وعصف الرياح(1)

فالشعب ذاته الذى كان يرقد فى قبـر التـاريخ والذل ، غدا ينقض على مستذليه كقصف الرعد وعصف الريح وتنهمر ثورته كالسيل ، ففى الشعـب ذاته شعبان وهما شعب واحد يحمل الظلمة والنور ، والثورة والهوان ، والكسل والكفاح ، ذاك ان هذه المتناقضات تتوالد بعضا من بعض ، وهى جميعا متصلة بمعنى الحياة والموت ، ومهما يكن فان امر الحرية هو غالبا أمر وجودى فى شعر الشابى ، هو تعبير عن الارادة والفعل فى الوجود ، وبقيمة الانسان الابداعية وقدرته على تولى امر مصيره من دون الاقدار الخارجية· فهو من هذا القبيل، من اصحاب التخيير ، لا التسيير ولكنه اختيار مرتهن مقيد يتحرك فيه الانسـان من خلال النواميس والحتميات، وفى تلك الحرية الفاعلة نوع من الفشل فى النهاية فهى قد تؤدى للفرد بعض القدرة على الفعل وتنهض بالشعب من وهدة الذل لكنها قائمة على عطب وتراخ ، فثمة حتمية الموت وهو اشد وطأة على الفرد من المجموع لانه هو موته الخاص به ، ولعل يقين الموت ينتصر فى النهاية وتغدو الحرية لحظة طارئة ، او فجوة فى ذلك السير الدامى العجيب من المهد الى اللحد وهو الناموس الاكبر فى العالم ·

الا ان هذه الحالة الواجفة من التناقض واللبس تتبدل فيما يعترى الحب وجدان الانسان · ومن مفاوزة ومهد ولحد تعود الحياة روضة ساحرة يشعلها الخيـال والمثال والحنين فتبدو وكأنها جنة موجودة ضائعة، المرأة هى حوريتها الخارجة من اهابها ومن احشائها تغنى للضياء والضباب والمساء والسكون والعبير والرعاة والربيع والينابيع والعصافير والظل والتـراب والغصـون والنسيـم والاقـاح

(1) الى طغاة العالم ص 185 ·

والليمون والشباب والامل • ولهذا الاحصاء المتكامل لمظاهر الطبيعة دلالة على شغف الشاعر المتمدد ، المتوحد بالوجود وائتلاف الطبيعة والغناء والمرأة فيه • انها امرأة من روح واشواق كلها بل ان حدقتي الحبيبة تضم زمرا من ملائـــك الملا الاعلى وصبايا رواقص يتراشقن بزهر التفاح والياسمين • ولعل المرأة هي هنا رمز الحياة المتحررة من شوائبها وعاهاتها ، انها وفقما يتمثلها الشاعر ، هي وحدها تنقذ من قبضة الزمن اى الموت :

وبنى الليل والربيع حوالينا من السحر والرؤى والسكـون
معبدا للحب والجمال شعريـا مشيدا على فجاج السنيـــن
تحته يزخر الزمان ويجرى صامتـا فى مسيلـه المحـزون
وتمر الايام والحزن والموت بعيـدا عن ظلـه المـأمون (1)

وتمثل الطبيعة بمعبد الحب ليس طارئـا على الشعـر الرومانســى ، الا ان الشابى اناط به بعدا جديدا بالوجودية التى يتنازع فيها مصيره واحساســه الفاجع بالزمن وهموم البقاء والزوال، او الهموم التى لها طابع التنكيد الدائم• فتراه يذكر السنين : «مشيدا على فجاج السنين» ، لان هم العطب وطوارىء الدهر والقدر كان يصحبه على الحب ، فالزمن يجرى من دونهما وكانهما خالدان فى لحظة الحب • هموم الحياة تراجعت بل تضاءلت ، ولم يعد للحزن من سطوة ولا للموت • وتأكيده على خلود الحب هو افصاح غير مبـاشر عن شعـوره بانهزامه وزواليته ، ولو لم يكن الامر كذلك فلم حظرته عليه فكرة الـزمن والالم والموت • فى عرس الصفاء والحب ، يطـرأ عليه هـاجس مـلازم ، او يتراءى طيف السواد ، فيشعر ان الحب ذاته لا يدفع عاديات الـزمن ونكـد الموت ، فيتنكر لهذا الطارىء كى يتعس به وتأكيده على الانتصار هو صنـو للشعور بالفشل والانكسار •

ويمضى ذهول الحب فى غلوائه ، فيعانق حبيبته الموهومة معانقة الروح :

طهرى يـا شقيقـة الـروح ثغـرى بلهيـب الحيــاة ، بـل قبلينـــى
ان نـار الحيــاة والكوثـر المنشـود فــى ثغــرك الشهـى ، الحــزين
فهو كـأس سحريـة لرحيـق الخلــد قــد صـاغهـا الــه الفنــــون (1)

---

(1) تحت الغصون ص 171 •

فهذه القبلة ليست كسائر القبل ، انها اوج التجلي الروحي ، اوفت منـه الطبيعة الى ذروة سحرها والنفس الى غاية طهارتها٠فكأنه لقاء تباين اى لقاء الآخر،لقاء الروح التائهة فى فيافى الوجود منذالقدم ، الفاقدة لكمالها٠تحت وطأة الزمن والداء والهم والحس والشهوة والحياة والموت ، فلما تحررت منها ، جميعا ، عثرت على كمالها وعانقت نصفها الاخر الضائع واتحدت به ٠ وذكره لنار الحياة رمز للروح والكوثر رمز للكمال المتحرر من عبودية الزمن ونكـد السعادة ٠

وللحب قدرة الاحياء والبعث :

أراك فاخلـق خلقـا جـديـدا كأنـى لـم أبـل حـرب الوجـود
وتسمعنـى هـاتـه الكـائنـات رقيق الاغانى وحلـو النشيـد (I)

والشاعر لا يزال يكرر معنى الشباب وملازمته للحب وقد كان حرب الشقاء قد اخنى عليه وغالبه وخلف على اديم وجهه ندوبه واجاعيـده وفى نفسـه قرارة اليأس والفشل ٠ الا ان الحب محا آثار الزمن عن وجهه وبقاياها من نفسه فاذا هو كأنما يطل على الوجود فى فجره الاول ٠ وقد عبر من خلال الحب عـن معاناته الوجودية ونظرته المتشائمة المخذولة فيه نفسه تنفست عن همومهـا ، مرارتها نضحت الى الخارج٠فالحب هو وجه من وجوه نزاع الشاعر بين الحياة والموت والنصر والهزيمة ، من دونه يبدو واهيا ، متداعيا ، ساقطا وبه ينهض من بين انقاض بؤسه ويرى فيه مطالع الخير بعد الشر،وانه واحة سلام وليس حلبة صراع ٠ بل ان الحب ليفيض عن نفس الشاعر كالمحبة من قلب اللـه ، تحنو على كل مظهر فى الطبيعة ، كأنما تود ان تعانقه وتحل فيه :

اراك ، فتخفـق اعصـاب قلبـى ويهتـز مثـل اهتـزاز الوتـر
ويجـرى عليهـا الهـوى فى حنـو أنـامـل لـدنـا كـرطب الـزهـر
فتخلـو أنـاشيـد قلبـى سكـرى تغـرد تحت ظـلال القمـر
اود بنفسـى عنـاق الـوجـود بمـا فيـه مـن انفـس او شجـر
وليـل يفـر وفجـر يكـر وغيـم يـوشـى رداء السحـر (I)

(I) أراك ص I25 ٠

ولذا كانت المرأة والحب والشعر والغاب والطفولة والحرية هى اهم رموز الحياة ، فضلا عن الحقيقة التى هى سبيل النشوة والمعرفة ، فان الشابى لم يكد يركن الى يقين قط ، وكما قدمنا فان تعبيره عن امر يضمر تعبيرا آخر عن نقيضه لقد كان قائما فى الخط الفاصل ولا يستقر فى جهة • لذلك فان ملامح الموت تتبدى لنا فى كل ملمح عبر قصائده ، واذا كان قد تغنى بفرح الوجود حينا ، فانه يغدو احيانا كاله الجحيم يقف على هامة الحياة ، ينثر اوراقها الصفراء فى ريح العبث والموت، فى فجاج الطبيعة التى تفغر فم الهاوية، حيث لا يتراقص نور ولا ظل ، اشكال يائسة والياس مقيم فى قاعها :

لو كانت الايام فى قبضتى اذريتها للريح ، مثل الرمال
وقلت يا ريح بها فاذهبى وبدديها فى سحيق الجبال
بل فى فجاج الموت ، فى عالم لا يرقص النور به والظلال (1)

وتتضاعف النزعة العدمية وكره العالم فيتمنى ان يلقى العالم ذاته فى نار الجحيم ، اى ان يحيله الى رماد الفناء • ولا شىء فى الوجود يبرر بقاءه ، لا الحياة الماثلة فيه والدائرة على ذاتها بلا غاية ولا الناس الذين يولدون ليموتوا ، ولا الطبيعة • فما معنى الافق ما دام يترامى بلا حدود دون ان نطل منه على مشارف الحقيقة وما معنى النجوم ، ما دام ضوءها اعمى ، ثقب ضئيل فى لجة الظلام الابدى • والطبيعة الماثلة فى هذه الابيات تدانى الطبيعة العدمية الماثلة فى شعر بودلير و دى نرفال، رؤيا مترامية ظلالها على جدرا نقبر رحب والعالم والناس هم عبيد لاسى الخوف والحاجة والوحشة والداء والهرم •

وكخلاصة فى شعر الشابى نقول انه كان يتيقن انه زائل كفرد ، انه وسيلة لغاية ما غامضة،وان ثمة نوعا من السادية المنكرة تتعمد اذلال الفرد وتدفع به فى النهاية الى هلاكه ، اى الى اضمحلاله كفرد ، ومن جهة ثانية كان يعثر فى الطبيعة على معنى آخر للتجدد ، وانها تتكامل عبر الظاهر المتنافر ، المنفصم • فالموت والحياة هما وجهان لواقع واحد ، الموت يذهب بالحياة ويطفئها، ثم تعود فتنبعث من جديد وتنهض من رمادها الهامد الذى كان يحسب عدما • وهكذا ، فان الفرد زائل ، زائف بذاته ، انه ككل امر وكل مظهر فى العالم ، موجود وغير موجود ، فى آن معا ، او كما تقول الكونتيس دى نواى ، انه قد مات الان لانه

---

(1) زوبعة فى ظلام ص 181 •

سيموت غدا ٠ فالهلاك الفردى حتم محتم ، الطبيعة تنطق به وتؤكده وتدعـو اليه ٠ فالفرد هو غاية بالنسبة الى ذاته ، اما بالنسبة الى الحياة والطبيعة ، فانه وسيلة وحسب ٠ وحينما ينظر الشاعر الى واقعه الخاص ، ويتحدق بالموت الذى يحدق به ويتسرب الى شبابه ، كان يقنط اشـد القنـوط ، ويتمـادى فى هذه النظرة الفردية العدمية المتشائمة ، ويتحول شعره من ذلك الى مــراث متجهمة ، متقرحة المآقى ، تنعى على الحياة باطلها ولا جدواها٠ وعندما يتناسى واقعه الذاتي واقعه كفرد ، ويرنو الى واقع الحياة والعالم ، كان يتبدى له ان ثمة نوعا من الخلود فى الجماعة او الحياة ذاتها عبر ظاهرة الموت التى تنتابها من الخارج ٠ وربما تعزى بذلك بعض العزاء ودعا الى النهوض الجماعى الذى به وحده يتبرر وجود الانسان ، ولكنه كان يعود فيحس ان الخلود عبر النواميس العامة وبقاء الوجود ، وبالرغم من اعراض الموت التى تنتابه انما هو عزاء فاشل ٠ ماذا يجدى الانسان ان يخلد فى الجماعة مادام هو هالك ولا خلاص له كفرد ٠ ولم يكد الشابى ينتهى من ذلك الى يقين، كان يميد ويترجح بين الاضطهاد، يعانق الشىء وضده فى اللحظة الواحدة ، وليس شعره سوى مجموعة من التجارب بل اللحظات المتناقضة ، التى يهدم احدها الاخر ٠ وهكذا ، فان شعر الشابى كان يتحول الى الرثاء الفاجع ، كلما تحدق بذاته وبالاشياء من خلال وجـود الذات ، اى من الناحية الفردية الخالصة ٠ ينظر الى الزهرة الذابلة بين يدى الخريف ، ويبث فيها من معاناته العدمية الفردية ، فلا تدرى اذا كان يتحدث عنها أم يتحدث عن ذاته من خلالها ٠ انها هى الشاعر مطروحـا على اديـم الواقع الخارجى وبين قبضة النواميس والفصول ، لم تكد تتألق وتزهر حتى ألم بها الخريف ، واذا هى تقوم بين يديه واجفة تتنازع بقاءهـا ، وتتشبث بوجودها كزهرة ٠ الا ان قوى الفناء تتفشى فى خلاياهـا ، فتجف وتيبس وتفقد وجودها وفقا لارادة الحتمية القاهرة التى تستولى على أعناق المخلوقات وتراه يخاطبها كما يخاطب الحى السوى ، يسألها كيف خبت بسمات الحياة بأجفانها وكيف لوت جيدها الحادثات ويردف :

ذكـرت بمضجعهـا المطمئـــن ومرقدهـا فى الشفيـر الجفيـــف
مصـارع امـالـى الغـابـــرات وخيبتهـا فـى الصـراع العنيـف
فقلبـت طـرفى بمهـوى الـزهـور وصعدتـه فى الفضـاء الاسيـــف
وقلت هو الكـون مهـد الجمـــال ولكـن لكـل جمـال خريـــف

وينهى القصيدة بالقول انه اطرق يصغى لصوت الاسى وان الظلام ارخـى سدوله على العالم ٠ وفى يقيننا ان هذه الزهرة تمثل فى وعى الشاعر او لا وعيه

مصير الهلاك الفردى، فقد تنبت الزهور فى موسمها الآخر، وموت هذه الزهرة لن يعدم الزهور فى الكون ، ومع ذلك ففى موتها فاجعة وأسى يسدلان ستائر اليأس على النفس، لان موتها يعنى زوال الفرد بذاته وان كانت الزهور تظل مقيمة متجددة من دونه • هذه الزهرة هى الشابى ذاته ، الم به خريف العافية المبكر ، فتنازع وتماسك لكنه احس بيقين الموت ، وزواله كفرد ، ففجع وبث معاناته من خلال هذه الزهرة البائسة • وثمة قصائد متعددة تعبر عن هذه التجربة القانطة والمتصلة بمصير الفرد من مثل قصيدته فى رثاء الزنبقة الذاوية ، فقد سمعها ترتل نشيد الهاوية ، وابصر الليل وهو يسقيها كأس الاسى، والغروب وهو يصب عليها نجيع الحياة• انها مالت الى معانقة الموت بل انه هو الذى يعانقها وهى تعاصيه وتتمنع عليه • فقد هجرتها بنات الغيوم وارشفها الدهر رضاب الاسى ، وينهى القصيدة بالمقارنة العلنية السافرة بين ذاته وتلك الزنبقة :

وان جرفتنى اكف المنون الى اللحد ، سقتك الخطوب
فحزنى وحزنك لا يبرحان اليفين رغم الزمان العصيب
وتحت رواق الظلام الكئيب اذا شمل الكون روح السحر
سيسمع صوت كلحن شجى تطاير من خفقات الوتر
يردده حزننا فى سكون على قبرنا الصامت المطمئن
فنرقد تحت التراب الاصم جميعا على نغمات الحزن

وما كنا نستبطنه فى ضمير القصيدة اتضح فيها وانجلى ، فقد قرن بين تلك الزنبقة ونفسه فى مصير الهلاك • الموت اصابهما جميعا وماتا موت الكمد وهما يرددان نغمات الحزن • فهذه الزنبقة تجلت وتألق جمالها ، حينا ، وحسبت انها البداية والنهاية ، انها زنبقة الشباب الدائم والعافية التى نعم بها الشابى ، حينا ، ثم انها بدت اداة مقهورة بين يدى القدر السادى ، لم يود لها حقبة من الجمال ، الا ليفجعها باستلابه منها ، وكان ذبولها هو مقدمة حتمية لموتها • لا شك ان موت هذه الزنبقة هو موت خاص بها ، لانه لن يعدم الزنبق من الوجود ، موتها هو كموت الشابى العتيد لن يبيد نسل ادم الذى يعج عجيجه على متن الارض ، ومع ذلك فانه الموت الفعلى بالنسبة اليه لانه يفقد به ذاته •

اما اذا ما تمثل الطبيعة من خلال الرؤيا العامة ، فانه يشاهد دوامة الزمن وديمومة الموت والحياة كليهما ، كانهما مرحلتان ظاهريتان لجوهر واحد • الشتاء

يحتضن فى قلبه الربيع ، كما يقول الشابى فى قصيدة ارادة الحياة ، انه يضم اشواقها المكتومة تحت اكفان الثلج والصقيع ، الشتاء بالفعل هو شتاء وربيع بالقوة والاحتمال بل ان الربيع هو غده ، هو بعثه وحياته الجديدة ٠ فالطبيعة هى مهد ولحد فى آن معا ٠ والفرد وان مات وانقضى بذاته ، انما يخلد فى الاجيال الطالعة ، فى ديمومة الانسان ٠ لهذا تراه يهيب بالشعب ان يفعل فعله فى الوجود ، ان يعتصم بالحرية وهى صنو للكرامة البشرية ، بها تتحقق ارادة الانسان ويصنع الحضارة والتاريخ والمصير فوق هاوية العدم الزائف والطارىء ٠ لهذا ايضا تجد انه لا يعادل شوق الحياة العامة فى شعر الشابى الا اليأس من واقع الحياة الفردية ٠ ولقد غنى للحرية كل نشيد ، لكن اناشيد الاسى والمراثى والمناعى كانت اقوى رنة فى شعره ، ولما لم يعثر فى الخلود الجماعى على العزاء الدائم ، وبخاصة ان الشعب المأخوذ بحمى الرزق ورق التقاليد لم يستجب الى دعوته ، اصابه نوع من العياء العام والحاد بجدوى الكفاح واعتزل وانطوى على آلامه ، كما نرى فى قصيدة النبى المجهول٠الا ان ذلك اليأس تقمص فى نفس الشابى باحوال متعددة، تنفس عنذاته حينا بالحنين الى الموت،كما فى قصيدة زوبعة فى ظلام وقصيدة الى الموت٠وحينا آخر بنوع من الصوفية التى تتنكر للعالم كله ولا تجد فيه إلا سورا ومنفى ، على غرار الرومانسيين،الا انه عثر على الخلاص فى النهاية باهتدائه الى الروح،وبها وحدها انتصر على عاهات العالم والزمن والعجز الانسانى وسائر الحتميات التى تكبله٠ الروح هى التى خاطبته بلغة الشعر ، وهى التى اهدت اليه نعمة الحب فى المرأة ، المرأة التى لا وجه لها ولا جسد ولا حواس وانما هى طيف تسلل من العالم الآخر، عالم الكمال ليعزى الانسان المسحوق من وحشته فى هذا المنفى الارضى ٠ والروح هى التى احلت الوفاق فى نفسه بين الحياة والموت ، وجعلت شوقه لاحدهما يعادل شوقه للاخر ٠ الروح هى التى حولت الموت الى ملاك منقذ ، الموت الذى يفتح به باب الخلود ، حيث ينضو الانسان عنه رداء الاسى وقناع الظلام ويعود الى اصله القديم ، غضا ٠

او كما يقول فى نهاية القصيدة :

هو الموت ، طيف الحياة الجميل ونصف الحياة الذى لا ينوح
هنالك ٠٠٠ خلف الفضاء البعيد يعيش المنون القوى الصبوح
يضم القلوب الى صدره لينسوا ما مضها من جروح
ويبعث فيها ربيع الحياة ويبهجها بالربيع الفروح ٠

هكذا تحرر الشابي من حتمية العدم وانتصر عليه بالذوبان فيه وحلوله في قلبه . وبذلك عاد كل ما هو مادي عابرا طارئا ولا حقيقة الا في الذات الاخرى ، الذات الروحية التي يتصل بها الشاعر في لحظات عبر الشعر والحب وفوق نواميس القهر والقدر .

ومهما يكن ، فان قيمة الشابي الاخيرة ، هي فيما تقدم كله ، بل في فنيته التي انطلق بها الى عالم بكر من الرؤى والصور وفاض فيها بالفاظ وكأنها ابنة نفسه تنثال منها المشاعر انثيالا . وفي النغمية الشجية التي تعزف على اوتار الروح . وحسبه انه لم يلج في مباراة القدماء على الصنعة ، فقد كان الشابي في شعره هو الذات والموضوع والمضحي والضحية او الجرح والسكين كما يقول بودلير .

إ . ح .

صدى منشوراتنا في صحافة المشرق العربي

جاء في مجلة الرسالة الصادرة بالكويت بتاريخ 3 – II – 74 والتي كتبت تحت عنوان « مولد النسيان والدار التونسية للنشر » قدمت فيه كتاب الاستاذ **محمود المسعدي** « مولد النسيان » ما يلي :

« ... وهذا الكتاب الذي جاء الينا منذ ايام واسمه مولد النسيان اصدرته الدار التونسية للنشر كما اصدرت العشرات من الكتب التي تدور بين الشعر والقصة والنقد والتراث وكتب الاطفال ، مما يشجعنا لنعتبرها بحق ، احدى القلاع الفكرية المشرقة في ذلك الجانب من وطننا وهي معنية ليس فقط بمضمون الكتاب ، بل بشكله واخراجه مما يجعلها تقف في الصف الاول في مؤسسات الفكر ونشره وتوصيله ، بل تشجعنا ندعمها والاشادة بمنجزاتها لينتصر الفكر العربي في الجناح الغربي لوطننا وتسترد تلك المنطقة مسيرتها الاولى من تاريخنا الحضاري المشرق ... »

وتحدث نفس الناقد خالد البرادعي في عدد آخر من مجلة « الرسالة » عن كتاب الاستاذ **البشير بن سلامة** « اللغة العربية ومشاكل الكتابة » فقال : « يشدك الى الكتاب سببان اولهما قدرة مؤلفه البشير بن سلامة على الجدل والمحاجة وفهم الموضوع الذي يكتب عنه مما اصبغ على الكتاب صفة وضوح الرؤية وبقدرة كاتبه بالتالي على توصيل ما يريد دون ان يتعثر بالدورانات والدهاليز التي يلجأ اليها بعض الكتاب ... »

لفتة الجيد

شعر عمر السعيدي الغربي

مر كالطيف لحظة وتوارى   خير ما أنجبت بلاد الجريد
عاش حينا أو بعض حين ولكن   رغم ذا لم يزل شجى النشيد
لم يزل شعره الضحوك ينـ   ـسى فى محب القصيد بيت القصيد
لم يزل ملهما سخيا يناغى   هفهفات الاحساس فى الجلمود
و « أغانى الحياة » نبع شهى   مستمد من وحى رب الوجود
كم وكم علم المحبين شعرا   ساحرا دافئا كشدو الوليد
كل بيت من شعره عالم رحب   لذيذ الرؤى جميل الورود
علمته الحياة شعرا عميقا   لم يدنس بوصمة التقليد
قال شعرا غزا قلوب البرايا   فى زمان معبإ بالجحود
غير أن القصيد بعد زمان   عندنا صار كابتسام القرود
كلمات وضيعة وحروف   ثم ماذا ؟ ذكر لصفر جديد
وإذا قال قائل ما اسم هذا ؟   خاطبوه : وصف لنجم بعيد
نجم تجديدنا العظيم وراء الـ   ـكون والأفق والوجود المديد
بينما أهلهم يكدون طول الـ   ـيوم خلف الكسا وخلف الثريد
وينامون تحت شبه غطاء   لم يصارع برد الشتاء الشديد
وأب كادح ليطعم جيشا   حاملا للفنا الخبيث العنيد
بينما الأم كلما ناولتهم   ما لديها تصايحوا زيدى زيدى

* * *

سادتى جرنى يراعى بلا وعـ   ـى لتصوير رب بيت شريد
وأنا شاعر وئيد بأرضى   جاء بى هاهنا ربيب الخلود
فاغفروا غلطتى وقولوا لتبقى   « لفتة الجيد واهتزاز النهود »

ع. س. غ.
ــ حزوة ــ

الشابي يقظة إحساس قومي

بقلم ابو زيان السعدي

تحتل النفوس المبدعة ، منزلتها الواجبة فيحركة الشعوب ، بمدى قدرتها على استيعاب خصائص المرحلة التاريخية ، التى يتشكل بها واقع النـاس ، وتتغير بها مصائر وجودهم من أفق الى آخر ، وبعمق وعيها المتأمل لعناصر الذات الخالقة نفسها ، وما لها من نفاذ بصيرة فى احداث عصرها ، وخضوع حركتها التقييمية لنظرة شاملة ، تتحدد بها الأبعـاد الخفيـة والظـاهرة من حركة الفكر والواقع ، عبر تحولات لا تنتهى فى قلب المجتمع والحضارة ، وان جميع ذلك لييسر عمل الباحث فى ارجاع العمل الفنى او الادبى او الابداعى بعامة ، الى سر مصدره الاول ، ويفسح أمامه مجـالات واسعـة من الـرأى والتعليل والشرح والتفسير يزداد بها الاثر الادبـى غنـى ، وتنكشف بها رؤى ، تصقل الذوق وتهذب الوجدان .

هكذا كانت سنن النابغين من الكتاب والفنانين والشعراء ، فى كل آداب العالم قديمه وحديثه ، وفى مقدمتها الادب العربى ، الذى حفل بألوان فـذة من صور الابداع الفكرى والادبـى ، اتسقت فيهـا النظـرة رغم تنوعهـا ، وتحددت فيها الرؤية ، رغم جزئيات التجربة وتعدد عناصرها ، وهكذا كان أدب الشابى وشعره بنوع خاص .

وانى لأدرك ان البحث عن فكـرة محوريـة فى أدب الشـابى ، قد يعـده البعض ضربا من ضروب الاسراف المنهجى ، لان الشابى لم يعد دور الفتوة حين انقصفت به الحياة ، وهى فترة وجيزة لا تكفى ـ عادة ـ لبلورة فكـرة كبرى او تقرير حقيقة عبقرية ، يمكن أن تكون مفتاحا لشخصيـة الشاعر أو أدبه ، غير ان الدارس المتمعن فيما ترك الرجل من آثار شعرية ونثرية ، لا بد ان يتوقف فى نظرى عند أمرين هامين :

اولهما : ايمان الشابي بمهمته الخطيرة في الحياة والمجتمع ، واعتقاده الراسخ بانه ذو رسالة علوية ، يحملها لكل بني الأرض ، هدفها الدعوة للخلاص من الظلم والشر والطغيان ، والتبشير بمجتمع تنعقد أواصره على الحق والعدل والمحبة ·

وثانيهما : وعيه الكامل بحدود هذه الرسالة ، ومحاولة رسم منطلق فكري ، يتخذه مقياسا لاختبار عوامل الضعف والقصور ، والقوة والغلبة ، في سير الحركة الاجتماعية والفكرية عند أمة من الامم أو شعب من الشعوب·

والامران معا يدلان على اننا بازاء ظاهرة فريدة حقا في الادب التونسي والادب العربي عامة ، وان صاحبنا هو من تلك النفوس التي توهجت بالنبوغ المبكر ، وان قوى خفية في النفس قد فتحت أمامه سبل الرؤية الواضحة ، ودفعت به في هذه المغامرة الوجودية الكبرى ، يصارع تيار الاحداث التي يصطخب بها عصره ويتفاعل بها مجتمعه التونسي المقهور ، وهذا الاشتباك بالحياة والمجتمع والعصر ، لم يزد نبوغه الا تألقا ، ولم يزد روحه الامضاء وعزما ، ولم يزد تجربته الا يقينا وجرأة ·

ومعنى هذا أن نبوغ شاعرنا لم ينشأ في فراغ عزلة فكرية او غير فكرية ، او لم يترعرع الا بالالم وحده ، كما نقرأ في احيان كثيرة ، ولكنه نما وسط ظروف معينة اجتماعية وسياسية وثقافية بل وتاريخية كذلك ، كما سنرى بعد قليل ·

والحق ان الشابي كان رمزا وتعبيرا عن جيل ومرحلة تاريخية ، اكثر منه اى شيء آخر ، ذلك ان الفترة التاريخية التي ظهر فيها ، كانت مليئة بالاحداث الجسام ، وحافلة بمحاولات التغيير والاصلاح ، لا في تونس وحدها ولكن في شتى اقطار الارض العربية ، كان العرب بالمشرق يتنادون الى الحرية والاستقلال عقب انحدار الخلافة العثمانية بعد هزيمتها في الحرب العالمية الاولى ، ويعمدون في جد الى بناء فكر جديد ، تنهض عليه قوائم المجتمع الجديد ، وكان لطفي السيد وطه حسين وقاسم أمين أمثل من عبر عن ذلك النزوع التجديدي ، وكانت اصوات التحرر واليقظة العربية تنتشر في كل مكان ، تقارن الحاضر بالماضي ، وتدعو الى تجاوزه والدخول في خضم حضارة العصر الكبرى ، وكان التونسيون في المغرب يجتازون ازمة يقظة حقيقية ، بعد صحوتهم على واقع الاحتلال الفرنسي البشع ، فقد انطلقوا

يؤسسون المنظمات السياسية والاجتماعية والثقافية ، وهكذا ولد الحزب الحر الدستورى كممثل لطبقات الشعب المختلفة ، بهدف رسم الخطط الناجحة للخروج من المأزق الاستعمارى ، وارساء دعائم الاسلوب الديمقراطى الدستورى لقيادة البلاد الى طريق النهضة الحق ، وهكذا تأسست النقابات العمالية للدفاع عن حقوق العمال المهضومة ، والوقوف فى وجه الرأسمال الاجنبى المستغل لخيرات البلاد ، وهكذا أيضا اشتدت الحركة الفكرية والادبية ، بهذه الصحف المتنوعة التى تصدر ، وبهذه الآراء الجريئة التى تشيع هنا وهناك ، وبهذه النوادى الثقافية التى تظهر فى هذه الجهة او تلك ، واذا كانت تلك الحركات لم تتمخض عن واقع جديد يخلص البلاد مما ران عليها دهرا طويلا ، فاننا يجب ان نعترف ان كثيرا من الآراء السياسية والاجتماعية القيمة ، قد وقعت صياغتها فى تلك الفترة المهمة من حياة هذا الشعب التونسى المكافح ، وان الطاهر الحداد بكتابيه المشهورين ، العمال التونسيون ، وامرأتنا فى الشريعة والمجتمع لم يكن يقف وحده فى الميدان ، وانما كان لسان حركة شعبية كادت ان تغير موازين قيم ثابتة تحجرت بها العقول قرونا عديدة .

لقد عاش الشابى هذه الأحداث ، واختبر بعض مراحلها ، بالملابسة والمعايشة حينا والمطالعة والسماع حينا آخر ، وتمثلها بحس مرهف مشبوب ، عدلت اصواته جذوة العبقرية المقدسة ، وعبر عنها فى اشعاره ملاحم ألم وقوة ، وعواصف غضب وثورة ، أرادها ان تكون يقظة تهز الكيان من الأعماق ، وتغير النفوس من البنية ، وان تكون الصحوة الشاملة التى تبدل الروح غير الروح والعزيمة غير العزيمة .

ومن هنا جاء دوره بارزا فى كل ذلك ، وجاءت نظرته الواضحة العميقة التى يصدر عنها فى كتاباته الشعرية والنثرية ، والتى فسر بها الوثبة والنكسة فى تحرك الشعب ، وعلل بها التقدم والتخلف فى حركة المجتمع ورأى بها الحياة والموت فى تاريخ الامة ، انه يسميها — يقظة الاحساس — وهى مزيج من الفكر والشعور ، يطلق الروح من عقالها الوثيق ، فتشب متوهجة ، تزيل القديم وتبنى الجديد ، مما يتلاءم وواقع الحياة والعصر والتاريخ ، وهو يقف امام تفاوت الشعوب وعظمة هذه وحقارة تلك فيلقى هذا التساؤل : « ما السر فى التفاوت الواضح بين هؤلاء » (1) هل هو

(1) العالم الادبى — السنة الثالثة — العدد السادس 1932 .

الحرية ، كلا ان انبثاقها فى الوجدان وتعلق الناس بها ، يقتضى حركة اولى ، وتختلف عنها ، لا بد من وعى يشمل النفس والعقل ، ومن اتساق بينهما ينقلب به السلوك الاجتماعى الى حياة تعاش وتمارس حتى « اذا تيقظ الاحساس فى روح الشعب تحركت فى صدره ـ رغم كل شىء ـ تلك الاشواق الطامحة والرغبات الجامحة التى كانت مكبلة فى ليل الدهور ، واذذاك يشعر بنفسه ، ويعلم انه عضو حى فى هاته الجامعة البشرية ، عليه واجب السعى والعمل فى سبيل كمال الانسانية المنشود ، فى سبيل مثل الحياة العليا ، الحق والقوة والجمال » (1) ٠

فالشابى اذن يدعو الى ضرب من الوجود الروحى ، يمارسه الانسان حياة ، تتنزل به القيم من عالمها الاجوف الى أرضية صلبة من واقع الانسان المعذب ، أو هو امتلاء النفس بالقيم الانسانية ، وسعى حثيث مجهد ، لتكون تلك القيم اسلحة مشرعة فى أوجه الطغيان حيثما كان ، « ان الأمة العربية كانت بالأمس رائد العالم ورسول المدنية والنور ، حين كانت روحها مستيقظة واحساسها مضطرما مشبوبا ، ثم امست فى آخر القافلة الانسانية نائمة ، تلوك أحلام الماضى ، لما تبلد احساسها وفقدت شعورها بنفسها وبالحياة ثم ها هى اليوم تحاول النهوض واليقظة ثانية، لان روحها قد اخذت تستيقظ من جديد » (2) فانت ترى من خلال هذه الآراء ان الشابى لم يكن شاعر خاطرة عابرة ، او فكرة سالبة نشأت بمعزل عن الاحداث ، وانما هو شاعر متأمل ، يحاول ان يستشف ما وراء الظواهر ، وما يقوم محركا لأحداث التاريخ ونهضات الشعوب والمجتمعات ، بل انه ليستبصر بفكره الملهم روح الشاعر الحق ، ودوره الممتاز فى صنع الحياة ، وان الشعر ليس كلاما ينسق ، او قافية تختار ، وانما هو نظرة تجوس عوالم خفية ، مما لا يرى الناس عادة « اما ذلك الفنان الذى يكون فى روحه شىء من طبع النبوة ، التى تبصر ما لا يبصره الناس وتشعر بأسمى مما يشعرون ، وعنصر من معنى الالوهية التى تخلق من المادة الصماء حياة ساحرة وفلكا دائرا ، اما ذلك الخلاق الذى يبعث فى آثاره فلذة من روحه ونسمة من حياته فاذا هى حية ناطقة ، تعبر فى قوة وابدا عما فى هذا الوجود من سحر وجمال ، وتتغنى بما يزخر فى اعشار القلب البشرى من عطف وبغض ،

---

(1) نفس المصدر ٠

(2) نفس المصدر ٠

ويأس وحنين ، ولذة وألم ، وغايات ومثل ، اما ذلك الجبار الذى تقع بقلبه فوق البشر ليتحدث بلغة السماء عن نشوة الروح وحيرة الفكر التائه بين نواميس العالم وبهاء الوجود ، فاني فتشت عنه فما وجدته ، ولو وجد لظل غريبا مغمورا مجهولا من الناس » (1) وانطلاقا من هنا نستطيع ان نجمع شمل تلك الآراء العديدة التى ينثرها الشابى باحكام فى كل قصائده ، والتى تمجد القوة وتغالب الصعاب ، وتصف الحب وتقدسه ، وتتأمل العالم وتهتف بوحدة الكون فيه ، حقا انها آراء يمكن ان نرجعها الى مصادرها الاولى فى الفكر الالمانى النيتشوى والرومانسى والافلاطونى المحدث ، وغيرها من الفلسفات والمذاهب، وهو ما يجب ان يتم فى كل دراسة موضوعية، ولكنها تلتئم فى فكر الشابى وادبه وشعره ، التئاما لا تنافر فيه ولا اضطراب ، بل هى انسجام تام ووحدة واحدة ، يمتن اجزاءها ووحداتها روح مرهف حساس ، ايقظه الوعى بحقيقة الواقع الذى يعيش فيه ، وبالمرحلة التاريخية التى يمر بها . ومن هنا كان إيمانه بالشعب وبالمجتمع ، وثقته المطلقة باصالته التى لا ينفد خيرها ، « ان فى قلب هذا الشعب التونسى ثروة روحية وفنا قويا ، ولكنها ثروة مهملة وفنا غير مصقول ، وان فى طبيعة هاته البلاد سحرا يلهم الصخر أسمى المعانى وارفع الافكار لو كانت للصخر مشاعر واعية ، وان الداء كل الداء فى الالسنة المعبرة لا فى روح الشعب ولا فى طبيعة البلاد » (2) أليس هو القائل بزأر « زئير العاصفة » :

فيا أيها الظلم المصعر خده رويدك ان الدهر يبنى ويهدم
سيثأر للعز المحطم تاجه رجال اذا جاس الردى فهم هم
رجال يرون الذل عارا وسبة ولا يرهبون الموت والموت مقدم
وهل تعتلى الانفوس ابية تصدع اغلال الهوان وتحطم (3)

كانت هكذا ثقته بالشعب وبهذه البلاد التى انبثق منها ، وبهذا الصوت القوى كان يتوجه الى الطغاة ينذرهم بثورة تعيد للكرامة عزتها وللمجد التليد تاجه ، ولكنه فى أحيان كثيرة ينقم على الشعب صمته وسكونه ويشخص علته بأنها التحجر فى نهر الأمس ، والتغنى بأنشودة المجد الضائع :

---

(1) العالم الادبى ـ السنة الثالثة ـ العدد الثامن والعشرون 1932 .
(2) نفس المصدر .
(3) الديوان ص : 280 .

مل نهر الزمان ايامك الموتى   وانقاض عمرك المتهدم
انت لا ميت فيبلى ولا حى   فيمشى بل كائن ليس يفهم
ابدا يرمق الفراغ بطرف   جامد لا يرى العوالم مظلم
اى سحر دهاك انت مسحور   شقى ؟ او مارد يتهكم (I)

غير ان ذلك لا ينبغى ان يشككنا فى ايمان شاعرنا بهذا الشعب ، او أن يدعونا الى تفسيرات غريبة فى بعض الأحيان ، تظهر الشابى زعيما بغير شعب ، أو شاعرا انحبس فى حدود آلامه الضيقة ، فلم يكن الواقع السياسى والاجتماعى والثقافى فى تونس بمثل تلك المنزلة التى يشار اليها ، ولم يكن الواقع العربى عموما متدهورا كما يظن الكثيرون ، بل كان فى فترة انقلاب وتحول ظهرت آثارهما الخطيرة فيما بعد .

ومن هنا فان أناشيد الحرية والدعوة اليها ، وقصائد القوة والغلبة وتأكيدها فى أكثر من مكان واحد ، وشكوى الألم والدموع والعزلة والانفراد ينبغى ان نردها الى مصدرها الاول فى فكر الشابى ، الذى عبر عنه بيقظة الحس ، لا على ان منشأها العزلة عن العصر وتياراته ، وانما على أساس انها نتاج طبيعى لنهضة وطنية وقومية عمت تونس وكل البلاد العربية الاخرى ، وخميرة حركة اجتماعية حاولت ان تتساند وتتماسك بالنضال والعمل ، ونهضة ثقافية وادبية بشرت بالجديد المعبر حقيقة عن روح الشعب ، هى دعوة للبناء لا للهدم كما وصفت لما ألقى محاضرته الشهيرة « الخيال الشعرى عند العرب » والادعاء بان الرجل مقوض للتراث والادب العربيين ، ويقينى ان الشابى كا نرجل التجديد بحق ، وان جرأته وصراحته لم تكونا الا مظهرا من مظاهر ذلك التجديد الفكرى والادبى، وانه كان يسعى جهده لاقامة بنيان ادبى يليق بمستوى العصر المتطور ، ويليق كذلك بالعصر الذهبى الذى عرفته العربية فى ازهى عصورها ، وان شخصيته الادبية والفكرية لم تضعف بالتأثر ، كما يظن بعض الناس ، ألم يقف موقفا واضحا من قضية الفصحى والعامية ، عقب ظهورها بمصر على يد الدكتور محمد حسين هيكل فى روايته « زينب » او فى « عودة الروح » لتوفيق الحكيم فقد رفض الشابى بصرامة العبث باللغة وقواعدها ، وعد

(I) الديوان ص : 26I .

ذلك افسادا للأدب العربى وتحطيما لمقوماته الاساسية ، يقول فى مذكراته معلقا على رأى نزين العابدين السنوسى يحبذ فيه استعمال بعض التعابير العامية فى بعض الاعمال الادبية « ان مثل هاته الطريقة لقاضية على الأدب العربى الجميل وما سختته الى نوع من الادب هجين ، لا هو بالعربى البليغ ولا هو بالعامى الصميم ، وانما هو مسخ بين الاثنين ، وانما على الاديب الشعبى الذى يريد ان يخضع اللغة العربية واساليبها لاحتمال المعانى الشعبية ، التى تحمل طابع الشعب وميسمه ، وبذلك تكون اللغة قد اكتسبت ثروة معنوية طارفة تضيفها الى ما لها من كنز تليد ، أو أن يدخل تعابير شعبية فى اللغة العربية على شرط ان لا تخل بروح العربية ولا بقواعدها الاصلية وبذلك يكون الاديب مخلصا للغة العربية ومخلصا لفنه النزيه » (١) ٠

وهذا رأى جدير بالتدبر والنظر ، وهو يقدم دليلا جديدا على ان هذه الدعوة وامثالها قديمة ومستعارة ، وانها أثر من آثار الضعف الحضارى ، الذى اصاب العرب فى بعض فترات التاريخ ٠

لقد تألم الشابى من جمود وتقليد معاصريه،ولكنه لم ييأس من المستقبل والشباب ، هؤلاء الذين سيحققون الجديد البناء الذى دعا اليه وضحى فى سبيله بصحته وشبابه « الآن ادركت انى غريب بين ابناء بلادى وليت شعرى هل يأتى ذلك اليوم الذى تعانق فيه احلامى قلوب البشر فترتل أغانى ارواح الشباب المستيقظة وتدرك حنين قلبى واشواقه ادمغة مفكرة سيخلقها المستقبل البعيد » ٠

ا٠ ز٠ س٠

---

(8) المذكرات ص : 52 ٠

شاعر الوجدان

شعر محمد الشعبوني

خلد ملاحم شاعر الوجدان   وانشر صداه على مدى الازمان
وأعد على الدنيا (إرادته) التى   ظلت نشيد العزم والايمان
قد كان فى الشعراء أول منشد   لحن الحياة بريشة الفنان
قد عاش (رغم الداء) نسرا فى السما   لا يحتفى بالضعف والخذلان
النور فى جنباته متدفق   والناى نايه خالد الارنان
يوحى الى جيل العزائم والفدا   اسمى فيوض العطف والتحنان
وهو الخضم الرحب طول حياته   يمتد رغم تفجر البركان
يا شاعرا لما تزل انغامه   تسرى بروح العزم فى الميدان
هذى (أغانيك) الجميلة بيننا   قلب يفيض برقة وحنان
يحيا بها الفن الجميل مرتلا   سور المحبة من عميق حنان
وهى الحياة طبعتها بارادة   جبارة رغم العدو الجانى
وهى الطبيعة فى نشيدك تنتشى   بحلاوة ، وطلاوة ، وبيان
والواحة الغناء صغت جمالها   متغنيا بالحب والاغصان
(والجنة) المثلى التى صورتها   حنت لعهد براءة الصبيان
أيام كنت (مع الحبيبة) تمتطى   تلك الربى بمشاعر الفتيان
والقلب (قلب الأم) وحدك صنته   بفؤادك المتوهج الولهان
ما زال شعرك فى العوالم ساريا   نتلوه فى شوق وفى امعان
هذا الجمال كتبت فى آياته   شعرا يجدد رغبة الانسان
وفتنت بالجنس اللطيف تمده   بروائع الانشاد والتبيان
والمرأة المثلى رفعت مكانها   فى شعرك المتموج الجذلان
تلك الصدور رسمتها ببراعة   هزاتها تطغى على الابدان
(وقعت ما وقعت) فى توقيعها   من (لفتة) هى لفتة الغزلان
والجدول الرقراق كم من جلسة   لك عنده فى رعشة الظمآن
والنحل ، والعصفور ، والمزمار فى   (أيدى الرعاة) لدى الحياة (أغان)
والشعب ان (رام الحياة) بعزة   تسرع إليه شغوفة بتدان
لا بد للأقدار تسمع صوته   وتمده من فيضها النشوان

يا شاعر الايمان والقلب الذى ... يقوى برغم العصف والأحزان
قد عشت تدعو للبقاء على المدى ... ولنصرة الضعفاء فى الأوطان
قد جاش قلبك بالسماحة والصفا ... والعطف والايثار والغفران
قد كنت تدعو للطموح بعزة ... وتصد أهل الزيغ والبهتان
ما كنت تدعو للتشاؤم بيننا ... بل كنت للشعراء نعم البانى
لم يفهموك على الحقيقة وازدروا ... احساسك الصافى من الادران
أصبحت فينا رائدا لا تنتهى ... أنغامه فى الأهل والخلان
والشعب ينشد شعرك العذب الذى ... زادته وقعا روعة الميزان
والشعر يشهد أنك الرجل الذى ... بعث الحياة بشعره الفنان
أبدعت ما أبدعت فنا خالدا ... يشدو به الانسان فى الأكوان
ان كنت أمس وضعته بلساننا ... فاليوم نقرأه بكل لسان
هذا (الصباح) وقد بعثت (جديده) ... متألق فى يومه المزدان
قد عاش هذا الشعب صبحا (شمته) ... متوشحا بروائع الألوان
وأقام شعبك مثلما أملته ... يوما إلى الخضرا عظيم الشأن
وأضاف شعبك فى نشيد جهاده ... بيتيك فى صدق وفى عرفان
وإذا تعلقت الشعوب بغاية ... وصلت بفضل الحزم والامكان
يا شاعر الخضراء ذكرك خالد ... بلغت به العلياء كل مكان
(بيتاك) فى كل الشفاه (إرادة) ... تحمى عزائم جيلنا المتفانى
(بيتاك) كانا صرخة فى وجه من ... رضى القعود وعاش فى الحرمان
أخلصت للفن الجميل ولم تحد ... عن مسلك الابداع والاتقان
والشعر عندك (نفثة القلب) الذى ... ذوبته فى الحب والهجران
والشعر أنفاس الحياة تصوغها ... باقات حب من شذى الريحان
والشعر عندك هذه الدنيا بما ... ضمت من الافراح والأشجان
علمتنا نبنى بلا ملل على ... أس المحبة دونما أضغان
يا شاعرا كتب الخلود بفنه ... هذا رصيدك ما له من ثان
أهديك فى ذكراك أجمل باقة ... ضمختها بمدامعى وحنانى

م. ش.

على هامش الذكــرى

اربعون عاما تمر على وفاة الشاعر الملهم ابي القاسم الشابي*

بقلم : محمد الازهر عبد الحميد الشابي

صباح يوم الاحد غرة ديسمبر 1974 اقيم حفل بهيج لاحياء ذكرى ابى القاسم الشابى باشراف اتحاد الكتاب التـونسيين وامام جمهور حاشد من رجال الفكـر واهل الثقافة تجمعوا ببيت أبـى القـاسم برئاسة السيد رئيس اتحـاد الكتـاب التونسيين الاستاذ محمد مزالى استمع الجميع الى ذكريـات مع الشابى عاشها احد ابناء قرية الشابية هو الاستاذ محمد الازهر عبد الحميد الشـابى المحامى بتونس الذى استرسل فى الحديث عن الشابى كما يلى :

أبو القاسم الشابى الثائـر

كان الشابى فى عهده يمثل ثورة فكرية عارمة صاحبة تجاوزت تونس الى خارجها رغم الحصار المضروب من طرف الاستعمار آنئذ حيث كان الشابى يبعث بشعره الى مجلة « ابولو » وكان رئيس تحريرها الدكتور ابـو شادى الذى احب أبا القاسم الشابى وأعجب به من خلال لوحاته الشعرية التى كانت تمثل تجديدا وثورة فى العالم العربى ٠ كما كان الشابى مرهف الحس رقيق الشعور لطيف الوجدان ، حتى ان الشاعر ابراهيم ناجي ــ الذى كان فى اسرة مجلة « ابولو » ــ قد كتب عن الشابى وعزا حسه وشعـوره الى اعتقاده أن الشابى كان مثقفا باللغة الفرنسية ٠ وكنا جميعا نقرأ ما يكتبه الشابى ومـا يكتبه عنه غيره وقد اجاب الشابى عن اعتقاد الدكتور ناجى بابتسامة لطيفة ثم بكلمة يرددها دوما : « انها لسذاجة » ٠

وكان الشابى يرافقنا الى مكان كثيف النخل يعرف بسلسلة «طاب الطنه» وهو عبارة عن جسر فوق واد يجرى بمياهه الغزيرة الدافقة الى غاية تــوزر ليسقيها ٠ وكان يبدى لنا اعجابه بمقالات زكى نجيب فى الفلسفة ويتعشم له مستقبلا زاهرا ٠ ولم يك الشابى بعيدا عن مدرسة شعراء المهجر التى يتزعمها جبران خليل جبران وقد أبدى لنا اعجابه بكتابه النبىء وبشعراء المهجر الذين

يئسوا من شعبهم فى لبنان وسوريا وهاجروا لبعض بلدان امريكا اللاتينية ٠

وكان الشابى رحمه الله قد أعلمنا فى وقت من الاوقات بأنه اتصل بحوالة بريدية بها مائة فرنك تقريبا كاشتراك فى ديوانه أغانى الحياة جاءته من أحد ادباء أمريكا اللاتينية ، وعلى هامش هذا ذكر لنا الشابى بأن اخشى ما يخشاه عدم طبع كتابه أغانى الحياة الذى أعلن عنه فى صحف تونس والشرق وقد قال لى بأنه جمع مبلغا هاما من الاشتراكات ويخشى ان يتلاشى هذا المبلغ بعد موته ولا ينشر الديوان ٠

فوق رمال القرية : أعاد الشابى نسخ ديوانه

رافقت الشابى أياما بقرية الشابية وكان الشابى يجلس فوق رمالها البيضاء جاعلا فوق ركبتيه مخدة وكراسا وهو يكتب وأنا املى عليه الديوان حتى رتبه فى كراسات ثلاث على ما أتذكر ،وكان يتحدث عن بقية آثار أدبية له لم يسعفه الوقت لترتيبها رغم أنها كانت مكتوبة ، وقد كانت لشاعرنا الملهم رزنامة عمل فله وقت يطالع فيه وحده ووقت يقرأ فيه مع بعض أصدقائه ، ووقت يجالس فيه أبناء القرية على اختلاف رتبهم : البسيط والمثقف والطالب والفلاح وكان لعب « الخربقة » محببا الى نفسه لانه كان ككل قروى ميالا بطبعه الى جميع أنواع ألعاب الطفولة والسذاجة ٠ وكنت افهم أنه يجد لذة فى غشيان مجالس القرية كما يجدها فى قصيد يقرؤه أو مقالة يستمع اليها وقد اكتشف الشابى فى مسقط رأسه طبيعة حلوة تتجاوب وطبعه ، فقد كان يحب الجلوس تحت النخيل وعلى ضفاف الوادى ٠ كما كان يحب الجلوس فوق الرمال فى الجانب الصحراوى ٠ وكان يفتش دوما عمن يستمع اليه أو يسمع منه أو يناقشه ٠ وكان أهل قرية الشابية فى ذلك الوقت كما فى مدينة توزر يتخذون من السقيفة ناديا يتجاذبون فيه المسائل العلمية والفقهية والادبية ، وقد حضرت يوما نقاشا جرى فى سقيفتنا بين الشابى وبين والدى وبعض المثقفين حتى قال والدى أمام جمع من الناس وبحضور الشابى « رغم اختلافنا فى بعض أمهات المسائل فأننى ما رأيت شابا أديبا بآرعا وشاعرا فحلا كأبى القاسم الذى لا يريد الهزيمة فى النقاش وهو أهل لان يفرض افكاره الطيبة »

ومرت الايام وانتقل الشابى الى « أريانة » لملاءمة هواء الزيتون لصحته نزولا عند رغبة أطبائه ٠

كان الشابي يحس ببساطة التفكير السائدة اذذاك ، وجفاف الحس والشعور وكان هذا يؤلمه كما هو واضح في شعره ففي قصيدته (النبيء المجهول) يردد تمنياته :

ايها الشعب ليتني كنت حطابا	فاهوى على الجذوع بفاسي
ليتني كنت كالسيول ، اذا سالت	تهد القبور ، رمسا برمس
ليتني كنت كالشتاء ، أغشى	كل ما أذبل الخريف بقرس
ليت لي قوة العواصف يا شعب	فالقي اليك ثورة نفسي

وقد كان يشعر بأن جمعا من الحساد يرمونه بنقد زائف فيجيبهم وهو يعلم انه مريض مصاب بداء عضال بقوله في « نشيد الجبار » ، أو « هكذا غنى بروميثيوس » :

سأعيش رغم الداء والاعداء	كالنسر فوق القمة الشماء
أرنو الى الشمس المضيئة ٠٠ هازئا	بالسحب ، والامطار والانواء ٠٠٠
لاأرمق الظل الكئيب ... ، ولا أرى	ما في قرار الهوة السوداء
وأسير في دنيا المشاعر ، حالما	غردا وتلك سعادة الشعراء
أصغي لموسيقى الحياة ووحيها	وأذيب روح الكون في انشائي
وأصيخ للصوت الالهي الذي	يحيي بقلبي ميت الاصداء

وهكذا كان الشابي يعيش في جو خانق ، حتى أهل الفكر في ذلك الوقت كانوا لا يهضمون أمثال الشابي والحداد ويوجهون لهما ولامثالهما النقد اللاذع الذي لايتماشى والفكر المجرد وانما كان مبناه العاطفةالسياسية٠ففي آخر حياة الشابي وقبله لم تكن توجد بتونس مؤسسات فكرية او أحزاب توجه الشاب وتأخذ بيده وتبارك الجيل الثائر الصاعد ، حتى جاء الحزب الجديد الذي كان في ذلك الوقت ثورة على القديم البالي وعلى الاستعمار وأساطينه ، ولم يخدم الحزب الجديد سياسة البلاد فحسب بل تعداها الى بعث الثورة في كل قلب والتمرد على الاوضاع البالية في كل روح ومن ذلك الاستعمار الذي حط بكلكله على الشعب فمنعه من الانطلاقة الكبرى ولكن الديوان السياسي جمع حوله كل الشباب وكل اهل الفكر واعطى الحق لكل ثائر وبارك الثورة أينما وجدت وشجع عليها وكان الشابي يرنو الى هاته الحركة الجديدة التي كان يحلم بها بتجاوب وتحمس ، وشاهد الشابي ككل شاب في ذلك الوقت ميلاد الحزب الحر الدستوري الجديد الذي خطب قادته لاول مرة بجامع الهواء برحبة الغنم بتونس العاصمة وحثوا على التظاهر ضد الاستعمار الذي وصل به الحال الى انيشاهد التونسي جائعا محتاجا يبيتعلىالكاغذ(بسباط بروطه

والباب الجديد) وغير ذلك من الاماكن التى كانت تجمع البؤساء من بنى جلدتنا فى ذلك الوقت وكانت أول ظاهرة للشجاعة والاقدام هى قيادة المظاهرات وعلى رأسها القادة والزعماء الذين كانت لهم شخصيتهم وثقافتهم فمنهم المحامى والمدرس والطبيب الامر الذى جعل الطلبة والفلاحين والعملة ينضمون تحت لواء واحد ويسيرون فى موكب واحد وراء حزب جديد واحد ذلك أن هؤلاء كانوا عندما يجتمعون ببعض نوادى الحزب القديم لا يجدون بهما الا محبرة مشدودة الى قلم بخيط طويل ، ولوائح يقرؤها احد زعماء الحزب القديم ثم يأمر الناس بأن يتظاهروا وحدهم أمام سفارة فرنسا ، ونتيجة لذلك كان انحياز الشعب كله الى الحزب الجديد الذى حمل المشعل وسار بالشعب على دروب الثورة ٠ كان الشابى فى ذلك الوقت غير بعيد وساهم وأعرب عن هاته الثورة بأبيات بعث بها الى أول عدد من جريدة العمل باللسان العربى على ما اذكر وكان رئيس تحريرها المرحوم الطاهر صفر وذلك بقوله :

البؤس لابن الشعب يأكل قلبه والمجد والاثراء للاغراب
والشعب معصوب الجبين مقسم كالشاة بين الذئب والقصاب
وأمض ما صدع القلوب ورضها عز الصليب وذلة المحراب

ومن هنا يبدو ايمان الشابى بالدين رغم مسايرته للعصر فهو متفتح يمقت التزمت وكان للتزمت سلطان فى عهد الشابى ، فهو يرمى بالالحاد والكفر كل من يخالفه فى القعود والجمود وكانت السياسية ايضا تلعب دورا كبيرا لتحطيم أمثال الشابى فكان يوجد بجريدة « النديم » لصاحبها حسين الجزيرى ـ وهو من كبار الحزب القديم المعروف ـ مكان مصور فيه مقص ينقد فيه كل من يخالفه فى الرأى وكانت هاته الجريدة التى لا تصدر بانتظام قد ألحقت الأذى بكثير من أهل الفكر اللذين لايؤمنون بما يؤمن به السيد حسين الجزيرى ولا اهدف من وراء هاته اللمحة عن حياة الشابى بمناسبة هاته الذكرى الى دراسة شعر الشابى انما احببت ان أحدثكم عن الشابى القروى فى بيته وعن الشابى الثائر وعن الشابى الشاعر الملهم وعلى الاخص عن حياته الخاصة وكيف كان عظيما بافكاره متواضعا بسلوكه ولما كان عليه من خلق كريم ولطف متناه ، حتى أنه رغم شعوره بغربته الفكرية وشقائه الجسدى يبتسم للحياة ولأبناء الحياة متمثلا ببيته :

خذ الحياة كما جاءتك مبتسما فى كفها الغار أو فى كفها العدم

وباسم عائلة الشابى اتوجه بالشكر لجميع الحاضرين الذين تجشموا الاتعاب لاحياء ذكرى أحد أبناء تونس البررة والسلام ٪

ذكرى الأربعين

شعر ابراهيم عبد الباقي

بسطت لك اليمنى فخذها على الرحب   مددت لك اليسرى فلامس بها حبى
وجاءت بك الذكرى فكنت لها شذى   ويوما لنا نحياه مجدا على النخب
وجاءت بك الأيام صوتا لأمة   وجادت بك الأقدار روحا من الرب
فمثلك لا يمحى على الدهر ذكره   لذلك أنت الذكر فى البعد والقرب
وانك كنت الشعر فى قلب أمة   وانك كنت العزم فى السلم والحرب

* * *

أبا القاسم الأسمى لروحك آية   يفجر منها المجد فى ثورة الشعب
لأنك نبل الصدق والحب خالدا   وأنت الوفا شعرا وروحا على القلب

* * *

أبا القاسم الأعلى لشعرك فتنة   نسيج من الخلد وفيض من الحب
قطاع من الدنيا تجلى مهابة   وبحر من الأكوان فى جوها الرحب
وشدو من الأنغام يسمو روائعا   تردها الأزمان فى لحنها العذب
وتشدو بها الأحقاب يسرا وعسرة   ويعلو بها الانسان فى الموقف الصعب
ويأتى بها النصر المبين الذى يغدو   سحابا من الرحمان يقضى على الجدب
فتصفو لنا الدنيا ويصفو لنا القضا   ونحيا مع الأمجاد فى فرحة الشعب

* * *

أبا القاسم الداعى لخير بلاد   أبا القاسم الداعى لخير بنى العرب
ـك الله من فذ تسامى مفاخرا   لك الله من نبع تدفق بالخصب
ـك الله من نور تألق ساطعا   فسرنا على اليمنى وسرنا على الدرب
وتبقى على الدنيا أشعة رائد   إلى الخير كل الخير هديا إلى القلب
وتبنى بك الأمجاد يا خير شاعر   وتسمو بها الأنساب فى غمرة الكرب
فذكراك بعد الأربعين خريدة   تزين جيد الدهر بالجوهر الحب
وتبقى على الأيام ذكرى فريدة   يمجدها الانسان بالعقل واللب

إ٠ ع٠

من مصادر الشابي ومراجعه

دليل موجز

من إعداد أبو القاسم محمد كرو

بمناسبة مرور أربعين سنة على وفاة الشاعر العبقري « أبو القاسم الشابي » انتظم بتونس مهرجان أدبي شارك فيه عدد من ادباء البلاد العربية • كما اعد المركز الثقافي التونسي بطرابلس برنامجا حافلا لاحياء هذه الذكرى بين أيام 29 ذى القعدة و 6 ذى الحجة 1394 الموافقة 14 و 20 ديسمبر 1974 •

ومساهمة فى احياء هذه الذكرى نقدم قائمة وثائقية بجميع الكتب التى تناولت بالدرس أدب الشابي او حياته او عصره او اى جانب يتصل بشيء من ذلك • منبهين الى ما يلى :

اولا — انه سبق لى ان نشرت قائمة مبوبة عن المصادر والمراجع التى كتبت عن الشابي من سنة 1926 حتى سنة 1960 ، وذلك فى كتابى (آثار الشابي وصداه فى الشرق) الذى طبع فى بيروت 1961 •

ففى هذا الكتاب تم عرض ما يقرب من خمسين كتابا ، وأكثر من مائة مقالة او بحث مع القصائد التى قالها الشعراء رثاء او تمجيدا له •

ثانيا — ان هذه القائمة قد كتبت على عجل لجعلها بمثابة الدليل للذين سيزورون المعرض الوثائقى الخاص بالشابي فى بهو المركز الثقافى التونسى بطرابلس ، خلال اسبوع الشابي •

لذلك لم يقع الاهتمام فيها بمنهج التبويب ، المتبع عادة فى مثل هذه الاعمال •

ثالثا — هناك عدد آخر من الوثائق ، وخاصة من المراجع لم نتمكن من ذكره هنا وذلك بسبب بعدنا عن مكتبتنا الخاصة ، وربما ثمة مراجع لم نطلع عليها •

رابعا ـ اقتصرنا فى هذا الدليل على ذكر الكتب فقط ، وذلك لان المقالات تزيد عن الثلاثمائة وتحتاج وحدها الى بحث مفصل لا يتسع له المجال الآن · وكذلك اغفلنا الكثير من القصائد التى لم تنشر فى الدواوين · وقد حققنا نصيبا من ذلك فى كتابنا (آثار الشابى) وسننشر كافة ما نعرفه من الوثائق والمصادر والمراجع ـ مهما كان نوعها ـ فى كتابنا القادم : « مصادر الشابى ... » ·

خامسا ـ اقتصرنا فى هذه الوثيقة على ابواب خمسة هى : (مؤلفات الشابى) و (كتب خاصة به) و (كتب مقارنة بينه وبين غيره من الشعراء) و (كتب تناولته بالبحث) و (دواوين بها قصائد عنه) تاركين بقية الابواب ـ وهى كثيرة ـ وخاصة ما كتب عنه او ترجم من أدبه فى لغات أجنبية ـ الى كتابنا القادم ·

اولا ـ مؤلفات الشابى :

1 ـ أغانى الحياة :

وهو مجموع شعره · طبع لاول مرة فى القاهرة سنة 1955 ثم بتونس سنة 1966 · وطبعة أخرى بتونس سنة 1970 · وطبع ايضا فى بيروت سنة 1972 ·

2 ـ الخيال الشعرى عند العرب :

وهو محاضرة القاها الشاعر وطبعها بتونس سنة 1929 · ثم اعيد طبعها فى تونس 1961 ·

3 ـ مذكرات الشابى :

وهى يوميات كتبها لمدة شهر ونيف سنة 1930 · ونشرت بتونس سنة 1966 ·

4 ـ رسائل الشابى :

وهى مجموعة من الرسائل بعث بها الى صديقه محمد الحليوى ·· وله رسائل اخرى مع اصدقاء آخرين من تونس وسوريا ومصر ·

وتضم هذه المجموعة 34 رسالة للشابى و 40 رسالة للحليوى و 20 رسالة لصديقهما محمد البشروش · ونشرت الرسائل بتقديم أبى القاسم محمد كرو ـ طبع بتونس 1966 ·

5 ـ الماة عن الادب العربى فى العصر الحاضر :

وهى مقدمة كتبها لديوان « الينبوع » لصديقه المرحوم أحمد زكى أبو شادى ـ طبع بالقاهرة 1934 ·

ثانيا ـ مؤلفات خاصة به :

وتشمل كتبا ودراسات وابحاثا قصيرة كتبها عنه عدد من الدارسين فى تونس والبلاد العربية · وفيما يلى قائمة بها مبوبة بحسب تاريخ صدورها :

1 ـ الشابى حياته وشعره :

بقلم : أبى القاسم محمد كرو · طبع مرات عديدة فى بيروت ، وتونس · أولى الطبعات فى بيروت 1952 وآخرها بتونس 1973 ·

2 ـ كفاح الشابى :

او الشعب والوطنية فى شعره لابى القاسم محمد كرو · طبع فى بيروت 1954 و 1961 ، وفى تونس 1957 ·

3 ـ مع الشابى :

بقلم : محمد الحليوى ـ طبع بتونس 1955 ·

4 ـ أبو القاسم الشابى :

بقلم : زين العابدين السنوسى ـ تونس 1956 ·

5 ـ شعب وشاعر :

للدكتورة : نعمات أحمد فؤاد ـ القاهرة 1958 ·

6 ـ أبو القاسم الشابى شاعر الشباب والحرية :
لطه عبد الباقى سرور ـ القاهرة 1958 .

7 ـ الشابى النبى المجهول :
لمصطفى الحبيب بحر ى ـ دمشق 1960 .

8 ـ الشابى شاعر الحب والحياة :
للدكتور : عمر فروخ ـ بيروت 1960 .

9 ـ آثار الشابى وصداه فى الشرق :
لأبى القاسم محمد كرو ـ بيروت 1961 .

10 ـ منزلة الشابى :
فى الادبين الشرقى والغربى ، بقلم : المنجى الشملى ـ تونس 1963 .

11 ـ الشابى شاعر الخضراء :
بقلم : حمدى محمد عبد الوهاب ـ القاهرة 1965 .

12 ـ دراسات عن الشابى :
مجموعة ابحاث لعدد من الكتاب العرب ، جمعها وقدم لها وعلق عليها : أبو القاسم محمد كرو ـ تونس 1966 .

13 ـ الرحلة الشابية :
بقلم : عثمان الكعاك (بالسحب) ـ تونس 1966 .

14 ـ الشابى من خلال رسائله :
بقلم : أبى القاسم محمد كرو (بالسحب) ـ بغداد 1971 .

15 ـ أبو القاسم الشابى ـ شاعر الحب والثورة :
بقلم : رجاء النقاش ـ بيروت 1971 .
وقد سبق ان نشر هذا الكتاب فى سلسلة (اقرأ) بالقاهرة .
وان كتب على طبعة بيروت انها الاولى .

16 ـ أبو القاسم الشابى ، شاعر الحياة والموت :
بقلم : إيليا الحاوى ـ بيروت 1972 .

16م ـ الشابي :

بقلم : عبد اللطيف شرارة ـ بيروت (سلسلة شعراؤنا 1969) .

ثالثا : كتب مقارنة :

وهي تقارن بينه وبين شاعر آخر ... وبعضهـا جمـع دراستين منفصلتين عن بعضها ، واحدة عن الشابي والاخرى عن غيره . ولا علاقة او مقارنة بينهما . كما سنشير الى ذلك في مكانه .

17 ـ شاعران معاصران :

الشابي وابراهيم طوقان . بقلم : الدكتور عمر فـروخ ـ بيروت 1954 . ولم يقارن بينهما ، ولذلك لقى الكتاب انتقادا شديدا في حينـه .

18 ـ الشاعران المتشابهان :

الشابي والتجاني السوداني . بقلم : أبو القاسم محمد بـدرى ـ ط القاهرة 1954 وطبعة ثانية بعدها .

19 ـ شاعران :

الشابي وسعيد أبو بكر . بقلم : مصطفى رجب ـ تونس 1957 . وجمع بينهما دون مقارنة .

20 ـ الشابي وجبران :

بقلم : خليفة محمد التليسي ـ ط طرابلس 1597 وثانية ببيروت 1967 وثالثة 1974 .

رابعا : كتب تناولته بالبحث :

وهي كتب متفاوتة المحتوى والقيمة ، ومستوى تناولهـا للشـابي بالدرس او التعريف او النقد .
واكثرها مفيد ، وقليلها ضعيف فـاو لا اهمية له . وفيما يلي طائفة كبرى منها ، دون ترتيب تاريخي او ابجدى .

21 ـ الأدب التونسي في القرن 14 هـ :

بقلم : زين العابدين السنوسي ـ (الجزء الاول) ط تونس 1926.

22 ـ التجانى شاعر الجمال :
للدكتور : عبد المجيد عابدين ـ القاهرة ط ثانية 1955 .

23 ـ ابراهيم طوقان شاعر الوطن المغصوب :
للدكتور : زكى المحاسنى ـ القاهرة ط اولى 1955 وثانية (؟) .

24 ـ شوقى وابن زيدون فى نونيتيهما :
بقلم : أبو القاسم محمد كرو ـ تونس ـ ط اولى 1956 .

25 ـ فن الشعر :
للدكتور : محمد مندور ـ سلسلة (المكتبة الثقافية) القاهرة (؟).

26 ـ نظرات فى أدبنا المعاصر :
للدكتور : زكى المحاسنى ـ سلسلة (المكتبة الثقافية) القاهرة 1962 .

27 ـ مكافحة الثقافة :
للدكتور : الطاهر الحميرى ـ تونس 1957 .

28 ـ الطاهر الحداد :
بقلم : أبو القاسم محمد كرو ـ تونس ـ ط الاولى والثانية 1957 .

29 ـ البطولة فى الشعر العربى :
للدكتور : شوقى ضيف ـ سلسلة (اقرأ) القاهرة 1970 .

30 ـ حصاد القلم :
بقلم : أبو القاسم محمد كرو ـ القاهرة ـ ط اولى 1954 .

31 ـ شعراء مجددون :
بقلم : مصطفى عبد اللطيف السحرتى ـ القاهرة ـ ط اولى 1958 (ظنا) .

32 ـ الروائع لشعراء الجيل :
بقلم : محمد فهمى ـ (الجزء الاول) القاهرة ـ ط اولى 1938 (ظنا) .

33 ـ أدباء من الشرق والغرب :
بقلم : عيسى الناعوري ـ بيروت ـ ط اولى 1966 ٠

34 ـ الشعر والتجديد :
بقلم : محمد عبد المنعم خفاجي ـ القاهرة (؟) ٠

35 ـ قضايا جديدة فى أدبنا الحديث :
للدكتور : محمد مندور ـ بيروت 1958 ٠

36 ـ شعر اليوم :
بقلم : مصطفى عبد اللطيف السحرتى ـ القاهرة 1957 ٠

37 ـ الصراع الأدبى بين القديم والجديد :
بقلم : على العمارى ـ القاهرة 1965 ٠

38 ـ الشعر والفنون الجميلة :
بقلم : ابراهيم العريض ـ القاهرة (؟) ٠

39 ـ الشعر العربى المعاصر (تطوره واعلامه 1875 ـ 1940) :
لأنور الجندى ـ القاهرة (؟) ٠

40 ـ الفن الأدبى :
بقلم : مصطفى عبد اللطيف السحرتى ـ القاهرة (؟) ٠

41 ـ الشعر المصرى بعد شوقى :
للدكتور : محمد مندور ـ القاهرة 1954 ٠

42 ـ فن الشعر :
للدكتور : احسان عباس ـ بيروت 1955 ٠

43 ـ شخصيات وتيارات :
لأحمد خالد ـ طبع (سوسة ـ تونس) 1969 ٠

44 ـ الشعر وقضيته فى الأدب العربى الحديث :
لابراهيم العريض ـ بيروت 1952 ٠

45 ـ حركات التجديد فى موسيقى الشعر العربى الحديث :
ترجمة : سعد صلوح ـ القاهرة 1969 ٠

46 ـ شعراء العرب المعاصرون :
للدكتور : أحمد زكى أبو شادى ـ القاهرة 1958 .

47 ـ قضايا الشعر المعاصر :
للدكتور : أحمد زكى أبو شادى ـ القاهرة 1959 .

48 ـ الرومنطيقية ومعالمها فى الشعر العربى الحديث :
بقلم : عيسى يوسف بلاطة ـ بيروت 1960 .

49 ـ رأى فى أدبنا المعاصر :
بقلم : محمد عطا ـ القاهرة (؟) .

50 ـ دراسات أدبية :
للدكتور : أحمد زكى أبو شادى (؟) .

51 ـ دراسات فى الشعر العربى المعاصر :
للدكتور : شوقى ضيف ـ القاهرة 1953 ـ 1959 .

52 ـ رائد الشعر الحديث :
بقلم : محمد عبد المنعم خفاجة ـ القاهرة 1953 ـ 1955 .

53 ـ الاعلام الالف :
لأنور الجندى ـ القاهرة 1957 .

54 ـ الغزل :
للدكتور : سامى الدهان (الجزء الثانى) دار المعارف ـ القاهرة (؟) .

55 ـ الحكم والامثال :
بقلم : حنا الفاخورى (دار المعارف ـ القاهرة) (؟) .

56 ـ خليل مطران :
بقلم : محمد عطا (نوابغ الفكر العربى) القاهرة 1959 .

57 ـ حكاية الأدب العربى المعاصر :
بقلم : خالص عزمى ـ بغداد 1971 .

58 ـ مذاهب الأدب :
بقلم : محمد عبد المنعم خفاجى ـ القاهرة 1955 .

59 ـ دراسات فى الشعر العربى :
للدكتور : محمد مصطفى هدارة ـ الاسكندرية 1970 .

60 ـ دراسات فى الشعر والمسرح :
للدكتور : مصطفى بدوى ـ القاهرة 1960 .

61 ـ تاريخ الثقافة العربية فى السودان :
للدكتور : عبد المجيد عابدين ـ بيروت 1953 و 1967 .

62 ـ من اعلام الأدب المعاصر :
للدكتور : جمال الدين الرمادى ـ القاهرة (؟) .

63 ـ خليل مطران شاعر الأقطار العربية :
للدكتور : جمـال الـدين الرمـادى ـ مكتبة الدراسات الأدبية ـ القاهرة (؟) .

64 ـ قضايا الشعر المعاصر :
لنازك الملائكة ـ بيروت 1962 ـ وله طبعات أخرى .

65 ـ التجانى يوسف بشير (شاعراً وناثراً) :
بقلم : هنرى رياض ـ (لا ذكر لمكان الطبع ولا تاريخه) .

66 ـ الموسوعة الموجزة :
بقلم : حسان بدر الدين الكاتب ـ ج أ ـ دمشق 1971 .

67 ـ تاريخ الشعر العربى الحديث :
بقلم : أحمد قبش ـ دمشق (؟) .

68 ـ القبلة فى الشعر العربى (القديم والحديث) :
للدكتور : على شلق ـ بيروت 1963 .

69 ـ نصوص ودراسات عربية وافريقية :
للدكتور : ابراهيم السامرائى ـ بغداد (؟) .

70 ـ جوانب مضيئة من الشعر العربى :
لمحمد عبد الغنى حسن ـ القاهرة 1972 .

71 ـ محاضرات فى الشعر المصرى بعد شوقى :
للدكتور : محمد مندور ـ الحلقة الثانية ـ القاهرة 1957 .

72 ـ مع الاعلام .
بقلم : جميل الجبورى ـ بغداد 1968 .

73 ـ الرمزية فى الأدب العربى :
للدكتور : درويش الجندى ـ القاهرة 1958 .

74 ـ خواطر فى الأدب :
لموسى سليمان ـ بيروت 1969 .

75 ـ بلابل من الشرق :
بقلم : صالح جودت ـ الجزء الاول ـ القاهرة (؟) .

76 ـ النقد الأدبى من خلال تجاربى :
بقلم : مصطفى عبد اللطيف السحرتى ـ القاهرة 1962 .

77 ـ الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث :
لمصطفى عبد اللطيف السحرتى ـ لقاهرة 1948 .

78 ـ شعراء من بلادى :
بقلم : السيد على إبراهيم ـ بيروت (؟) .

79 ـ أبو شادى وحركة التجديد فى الشعر العربى الحديث :
للدكتور كمال نشأت ـ القاهرة 1967 .

80 ـ القيم الروحية فى الشعر العربى :
بقلم : ثريا عبد الفتاح ملحس ـ بيروت (؟) .

81 ـ الفكر والثقافة المعاصرة فى شمال افريقيا :
لأنور الجندى ـ القاهرة 1965 .

82 ـ جماعة أبولو وأثرها فى الشعر الحديث :
بقلم : عبد العزيز الدسوقى ـ القاهرة 1960 .

83 ـ فى موكب الخالدين :
بقلم : عبد السميع المصرى ـ القاهرة 1960 .

84 ـ التيارات المعاصرة فى النقد الأدبى :
للدكتور بدوى طبانة ـ القاهرة 1963 .

85 ـ مجمل تاريخ الأدب التونسي :
بقلم : حسن حسني عبد الوهاب ـ تونس 1968 .

86 ـ مرايا على الطريق :
بقلم : عبد الجبار عباس ـ بغداد (؟) .

87 ـ في الأدب العربي الحديث :
ليوسف عز الدين ـ بغداد 1967 .

88 ـ معالم الأدب العربي المعاصر :
لأنور الجندي ـ بيروت 1964 .

89 ـ الموسوعة العربية الميسرة :
تأليف وترجمة : لجنة من العلماء ـ القاهرة 1965 .

90 ـ الشعر التونسي المعاصر :
بقلم : محمد الصالح الجابري ـ تونس 1974 .

91 ـ الحركة الأدبية والفكرية في تونس :
للشيخ : محمد الفاضل ابن عاشور ـ القاهرة 1956 وتونس 1972 .

92 ـ الجديد في أدب الجريد :
لأحمد البحتري ـ تونس (؟) .

93 ـ الكلمات التي تقاتل :
بقلم : يوسف الفويري ـ بيروت (؟) .

94 ـ من وحي الفكر :
بقلم : محمد مزالي ـ تونس 1970 .

95 ـ مواقف :
بقلم : محمد مزالي ـ تونس 1973 .

96 ـ دراسات :
بقلم : محمد مزالي ـ تونس 1974 .

97 ـ اللغة العربية ومشاكل الكتابة :
بقلم : البشير بن سلامة ـ تونس 1971 .

98 ـ الاتجاهات الحديثة فى الأدب :
لأنيس الخورى المقدسى ـ بيروت 1952 و 1960 ٠

99 ـ مصادر الدراسة الأدبية :
بقلم : يوسف أسعد داغر ـ الجزء الثانى ـ بيروت 1955 ٠

100 ـ الاعلام :
بقلم : خير الدين الزركلى ـ القاهرة 1955 ٠

101 ـ معجم المؤلفين :
بقلم : عمر رضا كحالة ـ دمشق 1962 ٠

102 ـ الرثاء :
للدكتور : شوقى ضيف ـ دار المعارف ـ القاهرة 1955 ٠

103 ـ المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها :
بقلم : عبد الله الطيب ـ القاهرة ـ ج أ ـ 1955 وبيروت المجلد الاول 1970 ٠

خامسا ـ دواوين شعرية بها قصائد عن الشابى :

104 ـ أعاصير فى السلاسل :
للشاعر : سليمـان العيسى ـ ط اولى ـ حلب 1953 ٠ ثم بيروت 1959 و 1963 ٠

105 ـ من وحى العروبة :
للشاعر : عبد الحميد رسلان ـ القاهرة 1957 ٠

106 ـ عبير الأرض :
للشاعر : فوزى العنتيل ـ القاهرة 1956 ٠

107 ـ أغانى من إفريقيا :
للشاعر : محمد الفيتورى ـ بيروت 1967 ٠

108 ـ الشروق :
للشاعر : حسن كامل الصيرفي ـ القاهرة 1948 .

109 ـ الشعاع :
للشاعر : مصطفى خريف ـ تونس 1949 .

110 ـ فوق العباب :
للشاعر : أحمد زكي أبو شادي ـ القهرة 1935 .

111 ـ أشباح وظلال :
للشاعر : عبد الله الجبوري ـ بغداد 1962 .

112 ـ بقايا شباب :
للشاعر : محمد المرزوقي ـ تونس 1966 .

113 ـ قلب على شفه :
للشاعر : أحمد اللغماني ـ تونس 1966 .

114 ـ شوق وذوق :
للشاعر : مصطفى خريف ـ تونس 1965 .

115 ـ فى ظلال الزيتون :
للشاعر : مفدى زكرياء ـ تونس 1966 .

116 ـ نجوم على الطريق :
للشاعر : جعفر ماجد ـ تونس 1968 .

117 ـ كلمات للغرباء :
للشاعر : محى الدين خريف ـ تونس 1970 .

118 ـ سنابل الحرية :
للشاعر : أحمد القديدى ـ تونس 1969 .

119 ـ فجر الحياة :

للشاعر : منور صمادح ـ تونس 1373 هـ و 1972 .

ملحق أول

بكتيبات الذكرى

بعض الخطب والمقالات التى قيلت فى مهرجانات أقيمت للشابى نشرت فى كتيبات صغيرة ، أهمها ما يلى :

120 ـ ذكرى الشابى :

جمعها الطيب العنابى ـ تونس 1934 .

121 ـ ذكرى الشابى وأحمد أمين :

نشرتها جمعية النهوض بالطالب التوزرى ـ تونس 1955 .

122 ـ فى ذكرى الشابى :

نشرتها دار الثقافة ابن خلدون ـ تونس 1963 .

ملحق ثان

بكتب المختارات الشعرية

123 ـ الجواهر :

جمعها عياد الشماخى ـ تونس 1353 هـ .

124 ـ روائع مختارة من الشعر القومى :

نشرها الشباب القومى ـ بيروت 1952 .

125 ـ مختارات من الشعر العربى الحديث :

للدكتور : مصطفى بدوى ـ بيروت 1969 .

أ. م. ك.

ـ طرابلس ـ

مع الشابي في ذكراه

شعر سحنون مختار

أنت لم تلق فى زمانك حظا   وأنا الحظ فر منى أيضا
وكلانا يموت فى الحب وجدا   وكلانا يموت بالوجد غضا
فاذا قلت فى اندثارك نثرا   أو تدبرت فى انقراضك قرضا
سوف تصغى الى المعانى مليا   ثم تحظى بأصغريك فترضى
وتمد اليدين نمشى سويا   ونجوب الجريد طولا وعرضا
دون أن نلمس الزهور حوالينا   فقد أصبحت بموتك مرضى

* * *

العشايا تشائبت ثم نامت   بعد أن كنت قلبها والنبضا
والينابيع يا لها من شفاه   شفها الوجد فاستشاطت غيضا
والعصافير نشزت حين غنت   وخرير المياه أصبح عضا
أين سمارنا وأين زمان   كان ومضا يذيب فى الحب ومضا

* * *

إيه بلقاسم وحبك فينا   لم يزل واجبا أكيدا وفرضا
لى عتاب لو يسمح المجد فيكم   أن أنميه أو أقول البعضا
والمسافات بيننا تتناءى   فالسما أنت كيف تهبط أرضا
تونس الآن حكمها من ذويها   ولقد كان فى حياتك فوضى
فأتى بعدك الخلاص وصرنا   نتبارى فنسبق الخلق ركضا
والأديب الذى يموت شريدا   أصبح الآن كالسهام وأمضى
فاذا بالجريد يألفه السبت   فلا واحد رنا أو أفضى
لا هديل الحمام مهد شيئا   لا ولا سجعه سجى وانقضا
تركوا النبع والغدير وساروا   فارقوا النخل والهوى والروضا
فسألنا من يجمع الشتات ويبنى   جمعنا بعد أن هوى وانفضا
قيل أنت ومن جميل المعانى   أن ترى ميتنا عيونه يقظى
فتعالت ربوعنا وتسامت   وبقت شعلة ونورا وضا

س٠ م٠

نقوش على قبر النبي المجهول

شعر احمد المختار الهادي

مواويلى التى أعطيتها للناس فى يوم من الأيام
وألحانى التى قد أرقصت كل النخيل بواحتى الفيحاء
وأشعارى التى قد صغتها من رفرفات الغصن للأنسام
وأيامى وأحلامى مع الدمع
وشمعى ساهر يبكى مع الشمع
وقيثار به غنيت يوما جرح هذا الشعب
هى الجرح الذى بنجيعه المهدور قد داويت جرح القلب

* * *

حبيبى
أنا منك ذرة رمل صغيره
ولحظة حب قصيره
وماذا أنا قد أساوى
ونبضة شعرك ، لحظة عمقك ، منها التجلى وفيها التداوى
رحلت وكان رحيلك يوما على متن كل خيال
وكنت الذى وسع الكون لما عبرت حدود المحال
وفأسك يهوى على كل جذع بأرض الشرور استطال
ترى ما الذى قد يقول الذين تمنوا لك الموت لما أردت الحياة
وكنت النبى
وكنت الذى أطلع الشمس فوق أديم بلادى
وكنت الأبى
وكنت الذى غرس الحب فى كل نادى

فمن كفروك
ومن أنكروك
تهرأ بنيان أفكارهم ... على جدران من الملح زيفا بناها الدجل
وأنت تشيد مكان الجذوع التى نتنت سوارى الأمل

* * *

ليس تكفيك إذا قلنا القصائد
أو تكفى كلمات فى حياة من جهاد لمجاهد
صنع التاريخ شعرا
أرسل الشعر من العمق إلى العمق يحيل الحس جمرا
ويحيل الماء خمرا
ويحيل الترب تبرا
يوم أعطى عمره للناس عمرا

* * *

حبيبى
ألا عودة بالخيول الأصيلة
مدائننا حاصرتها الذئاب الضليلة
يداس هنا الحرف باسم العمودى والحر أو غير هذا وذاك
فأين يداك

ترد هجوم الخفافيش عنا تعيد إلينا الحروف الجميلة
وتجعلنا نتفيأ فى الشعر أبهى الغصون الظليلة
أراك تعود
وأدرك أنك عدت لكيما تحقق أحلى الوعود

أ٠ م٠ ه٠

رسمت للحقّ ألواحًا

شعر الناجي الأخضر

باحرف ناشدتكم يا زين خلانى … أن تمهلونى إنى عشت أحزانى
فتلك آية حبى ، تلك معجزتى … أن أستحم بآلامى وأشجانى
إذا مررت بروض لا زهور به … لا بلبلا غردا لا شدو ألحان
مات الربيع على أغصانه أسفا … يا روعة الموت تجلى بين أغصان
ما صاغها قلم واللحن يسعفه … كلا ولا استوعبت أصباغ فنان

* * *

يا رحلة البؤس فى أعصاب نائحة … والدرب مصطنع ما خطه بانى
يئست من أملى ، أطلقت راحلتى … خير الوقوف على أفواه بركان
إن خفتم الرعب يا صحبى فما مهلى … وواصلوا إننى عانقت أحزانى

* * *

أنا نبى ، ولكن قومى اغتصبوا … براءتى واستباحوا مسخ إيمانى
وأسلمونى إلى الاهمال يجلدنى … غادرت سجنى وما فارقت سجانى
لا تحسبوا أننى أرغمت قافية … على الرضوخ إلى قهر وطغيان
عزفت للشعب ألحانى موقعة … وأجمل الشعر ما غنى بأوزان
رسمت للحق ألواحا مطهرة … والظلم أكتب من نتن وأدران
يا إخوتى رجموا قلبى علانية … يا إخوتى صلبوا قلبى بامعان
أصم أعمى أنا ، أمشى يرافقنى … أعمى ، فهل تهدى بعميان ؟
ظللت دهرى أمشى فوق صومعة … وفى الحقيقة لا لا ما برحت مكانى
والصمت يمضغ أيامى ويتفلها … تفاهة العمر أن تنعى بنكران
فراكب العقل أوثان ترافقه … وراكب الحظ مدفوع بأوثان
ياعبقر الوحى صرت الحصن مغتصبا … وصار وحيك مدموغا ببهتان
بحت بلابلك انسدت حناجرها … والناى أغرق فى أعماق كتمان

ونافخ الناى «صدور تنافقه   أحلامه . علها من وحى شيطان
فللشياطين أفكار ملفقة   ألقت بآدم فى صحراء حرمان

* * *

يا موطنى وضفاف الحير قد يبست   والنهر حول مجراه لهجران
ومات كل نبى تحت محنته   كم مات حر وما افضى لقضبان
يا واحة الأنس ما نفسى بغائمة   وتفهمين مناجاتى وتحنانى
يا واحة الحير أجدبنا وباغتنا   رعب الخريف بأشباح وأكفان
وللخريف أباطيل نراوغها   مثل العناء قد هيجت بتعبان
فليت أكواخنا تأوى مصائبنا   يا واحة الحير . إذ تفضى لنسيان
وليت يا واحتى ذكرى تعانقنى   وليت ليت بنات الفكر تهوانى
فالحب نور إذا مست مناعته   قلبا ، تحرر من رجس وأضغان

ت.ا.

أدبٌ حيّ وسلف رضي

شعر البشير صفية

كل ما في الحياة من تجديد   واندفاع الى نظام جديد
وجمال ورقة وهيام   بتراث مهذب موجود
يقتضى لفتة الى سلف دعـ   ـم صرح الآداب بالتمهيد
سلف كان ينشد الشعر للجد   ول ، للباسقات ، للتغريد
سلف كان يكتب الأدب الحـ   ـي لصقل النهى ورفع الجمود
هكذا كان في بلادي رجال   في صعود وظرفهم في ركود
أدب جيد وفكر أبي   مستقل يئن بالتقليد
مثل ما كان لابن شقراطس التو   زري المرتضى بأرض الجريد
وابن نحوينا الذي عزز العلـ   ـم بلون من القريض فريد
وابن شباطنا المفيد بعقل   مستفيض السنا بعيد الحدود
فاقرؤوا معشر الشباب كتاب الـ   ـاكتفا لابن كردبوس العميد
واربطوا ما مضى بحاضرنا اليو   م فذكر الجدود رمز الخلود
واذكروا بعد ذا أبا القاسم الحـ   ـو رقيق الشعور شبل الاسود
فهو مثل الالى تكنفهم عهـ   ـد طغت فيه دولة من قرود
واشرأبت أعناقهم لرجال   حرروا الفكر من جميع القيود
واستعدوا لقتلهم وأشاعوا   كفرهم بالقديم بالتوحيد
فاستماتوا وخلفوا أثرا يحـ   ـمد للقادمين خير رصيد
واحمدوا الله حيث من على العـ   ـرب بطرد العدا ورفع البنود
وادخلوا جنة الحياة بتجديـ   ـد يغيظ العدا ويرضى جدودى
فالشريف الشريف من حفظ الأصـ   ـل ونادى بكل شيء مفيد
ما جديد إلا ومعناه فرع   من قديم لكل ما في الوجود

* * *

فأبو القاسم الذي عاش مشبو   با مريضا مكبلا بقيود
عاش عقدين لم ير الشعب يوما   غير عبد مكبل مكدود

عاش عقدين لم ير العطف إلا من أبى مهدد أو طريد
عاش يبغى الى الشباب سموا وحياة فى ظل عهد سعيد
كم شكا فترة يعيش بها الحـ ـر رقيقا وكم شكا من ركود

* * *

أى عطف أكنه لرجال حرروا الشعب فى زمان الجمود
أى فخر هذا الذى بعث الفكـ ـر سليما مهذبا فى صعود

يرجع الكل للكفاح رجالا ونساء بالمغرب المسعود
إذ يقينى بأن عزة قومى فى قضاء على الغريب العنيد

* * *

أيها العرب ما دهانا وإنا أمة العدل فى الوغى والصمود
ما لبيت مقدس بات يشكو ذلة القدس من بغاة اليهود
أججوها ولا تملوا فان النـ ـصر يأتى من الاله الحميد
سعروها بالشعر والنثر والنـ ـار وردوا الطغاة نسل العبيد
وارفعوا راية السلام على الكو ن بفكر وساعد من حديد
وانشروا العدل فى البلاد وقولوا بعد شكر الاله هل من مزيد

ب. ص.

ألا عش طويلا

شعر بدر الدين المؤدب

ألا عش طويلا أبا القاسم ... فلست بميت ولا نائم
وكيف يموت فتى شنفت ... نفائسه مسمع العالم
روائع سحر من الشعر جاءت ... كوحي لهدى بنى آدم
ترى وقعها فى هزيم الرعود ... وفى صيحة الثائر الناقم
وفى أنة البائس المستغيث ... وفى نبس غمغمة الحالم
وفى بسمة الصبح بعد الدجى ... وفى فكرة الحائر الواجم
وفى فاتنات لحاظ العذارى ... وفى لهفة العاشق الهائم
وفى مرتع الغيد حيث الهوى ... تشاد عروش الصبا الناعم
تغنى مع الطير فى روضه ... وتبكى مع الواله الساهم

* * *

أبا القاسم اسمع ضيوفا أتتك ... فمن ناثر القول والناظم
وجوه من العرب فى نخبة ... فمرحى على الرحب بالقادم
لتحيى ذكراك فى « تونس » ... وترفع ذكرك فى العالم
وتتلو بناديك آى الوفا ... بما صغت قبل أبا القاسم
تحركها نخوة لا تلين ... لثورة الحانق الناقم
وتسخر فى كبرياء الأباة ... من الأحمق العاذل اللائم
فهامة قحطان لا تنحنى ... لكيد عنيد ولا ظالم
وهمة يعرب فوق السماك ... تسامت علوا على الشاتم
اذا فاخرت أمة أمة ... فنحن فخار بنى آدم

* * *

أساءك ما نـد مـن معشـر ضعاف نفـوس « أبا قاسم »
وهل نال منك الهـراء وهـل تقام الحـدود عـلى النـائـم
فقالـوا مضل وقالـوا شقي وحـاشى فمـا أنـت بالآثـم
وقالوا وقالوا ابتغـاء الـرضا مـن السيـد المطلـق الحاكـم
وشعبـك كالعبـد فى رقـه حقير لدى القـاهر الغـاشم
يقـاد إلى العسـف فـى ذلـة وفـى وجـل المجـرم الآثـم
تقـاذفـه قـارعـات الـردى بهـم عـلى صـدره جـاثـم

* * *

فجلجلت كالرعد فوق السحاب وأزبـدت كالعيلـم العـارم
وقمت تغذى حماس النفـوس وتنعـى على الخـامل النـائـم
تهـد القبـور بحد الفـؤوس بغضبـة منتفـض نـاقـم
وتلقى الجذوع بنـار القنـآ ولا غـيـر آس ولا نـادم
بشعر هو الـوحى فى صدقه ولكنـه الـويـل للظـالـم
أمـر من الصـاب فى طعمـه وأنفذ فى القلـب من صـارم

* * *

أبا القاسم اسمع نشيد الحياة من الشعب فى النغـم الحـالم
وقم كى ترى النور بعد الظلام وتنعـم بالأمـل الـدائـم
وتـرقص حـولك فى نشـوة أمان عـذاب « أبـا قـاسم »
فقد حقق الشعب حلم الحيـاة عـلى يـد داهيـة عـالمى
حبيب العروبة حـامى الحمـى ورائـدهـا السـاهـر القـائم

م. ب.

توزر فى 1974/12/1

أضواء الفكر

• كان الاستاذ العوضي الوكيل الشاعر المصري المعروف في زيارة للبلاد التونسية خلال الشهر الماضي وقد سعدت أسرة « الفكر » بالزيارة التي اداها لها وبمجموعة كتبه التي أهداها إياها وهي :

ـ « مطالعات وذكريات » الصادر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة 1972 ضمن سلسلة المكتبة الثقافية ، وهو في 287 صفحة .

ـ « قيم ومعايير » الصادر عن الدار المصرية للتأليف والترجمة سنة 1965 وهو في 205 صفحات .

ـ « العقاد والتجديد في الشعر » الصادر عن دار الكاتب العربي للطباعة والنشر سنة 1967 .

كما سلمنا الشاعر عددا من قصائده سننشرها تباعا في أعداد مقبلة .

• أهدانا الباحث الاجتماعي المصري الدكتور ملاك جرجس كتابه « مشاكل أطفالنا النفسية » وهو في 315 صفحة ومن نشر دار روزاليوسف، فله شكرنا وتشجيعنا .

• صدرت عن الشركة التونسية للتوزيع مؤخرا طبعة ثانية للمجموعة الشعرية « فرحة الشعب » من تأليف الاستاذ محمد العروسي المطوي .

• دار الكتب الشرقية أصدرت هي أيضا في الشهر الماضي مجموعة قصصية لفاطمة سليم عنوانها « تجديف في النيل » ، و « ديوان الحكيم » الذي جمع فيه الاستاذ محمد المرزوقي أشعار أبي الصلت أمية بن عبد العزيز الداني وحققها وقدم لها .

• عن الدار التونسية للنشر صدر حديثا تمثيلية شعرية للميداني بن صالح عنوانها « زلزال في تل أبيب » ، وقصة « في البحث عن الاوراق » لمحمد بن عاشور ، والجزء الثاني من « حكايات العروي » .

• نظم مركز الدراسات والابحاث الاقتصادية والاجتماعية بتونس المؤتمر الاول لتاريخ المغرب وحضارته ، وذلك خلال الاسبوع الاخير من الشهر الماضي ، وقد اشرف على حفل الافتتاح السيد ادريس قيقة وزير التربية القومية .

الفهـرست

العـدد 4 ـ جـانفى 1975 ـ السنـة العشـرون

الفكر

مجلة ثقافية

• تصدر بتونس شهريا
مؤسسها ومديرها المسؤول
محمد مزالى

رئيس التحرير : **البشير بن سلامة**
سكرتير التحرير: **عبدالواحد براهم**
الادارة . 13 نهج دار الجلد ـ تونس
تليفون : 260.237
الحساب الجارى : 33769 ـ تونس
العنوان : صندوق البريد 556 ـ تونس

• تصدر مجلة الفكر عشر مرات فى السنة وتحتجب فى شهرى أوت وسبتمبر
• قيمة الاشتراك السنوى :
اشتراك عادى بتونس والبلاد العربية 3 دنانير .
اشتراكات بالخارج 3،500 ثلاثة دنانير ونصف
اشتراك الانصار د 5 دنانير
• الاشتراكات يرسل معلومها فى حوالة بريدية باسم المجلة أو يصب فى حسابها الجارى : 337.69 ـ تونس
• الرسائل لا ترد نشرت أم لم تنشر
• المراسلات تكون جميعا باسم :
مدير مجلة « الفكر »
صندوق البريد عدد 556 ـ تونس

EL FIKR - Revue mensuelle culturelle 20ᵉ Année N° 4 Janvier 1975

طبع وحفر الشركة التونسية لفنون الرسم 20 نهج المنجى سليم ـ تونس